بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
(فرع اللغة)



دراسة الأصوات وعيوب النطق عند الجاحظ

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة .

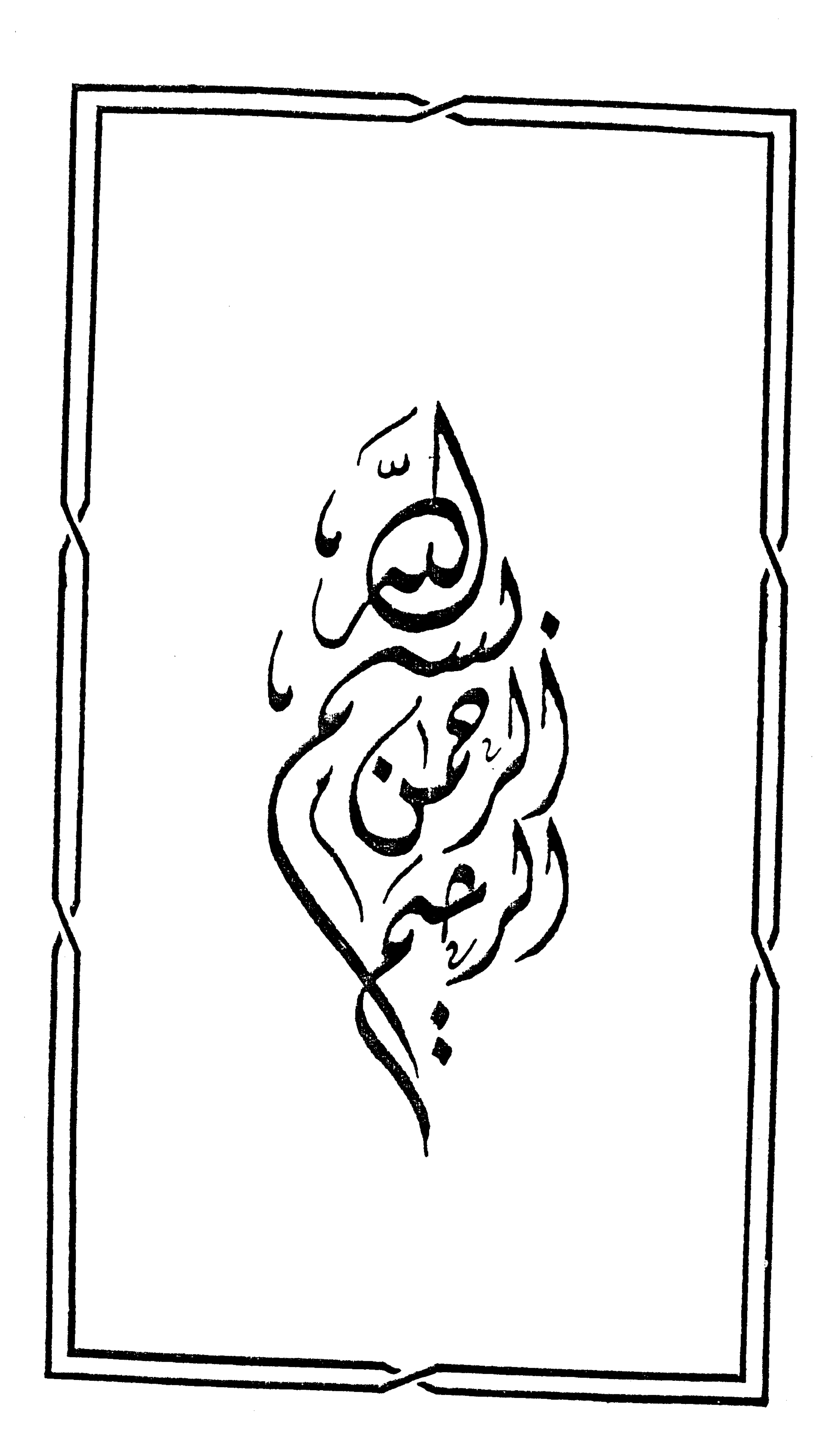
إعداد

الطالبة : هيفاء عبد الحميد كلنتن

إشراف

الأستاذ الدكتور : محمد حسن حسن جبل

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمة

باسم الله خير ما يفتتح به كل أمر . والصلاة والسلام على أكمل البشر سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد :

فلا شك أن الجاحظ من أفذاذ العلماء بالعربية والمتذوقين لها فهو رائد من رواد البيان والأدب العربي المعروفين بدقتهم وبلاغتهم وهو يتميز بغزارة نتاجه ،حيث أثرى المكتبة العربية بموء لفاته التي تتميز بالإبداع والابتكار الذى يجمع الطرافة والعبقرية ، مما أكسبه ميول القارئين في شتى عصور الأدب العربي .

وقد لوحظ تعرضه في كتبه وبخاصة البيان والتبيين والحيوان لمسائل كثيرة تدخل في علم الأصوات ،وأن تناوله لتلك المسائل يتميز بالجدة ويحتوى على إضافات مهمة في علم الأصوات.

كما أن له منهجا في الوصول إلى الحقائق والمعلومات في مجال الأصوات والعيوب يقوم على سعة الاطلاع ودقة الملاحظة.

فهويتناول بالملاحظة أدق الأمور وعظائمها ،حيث أنه يخترق ظواهر الأشياء إلى بواطنها ليقارن ويربط ويستنبط حتى تتبلور لديه الفكرة ويتضح الموضوع.

ومنهجه في تقصي الحقائق الخاصة بالأصوات والعيوب يعتمد على ثلاثة روافد وهي :

١) ملاحظات خاصة في مجال الأصوات اللغوية وعيوب النطق .

٢) ملاحظات الآخرين التي رويت له وبالتالي رواها هو عنهم .

٣) ما قرأه من ملاحظات للقدماء عن الأصوات وخاصة أصوات الحيوانات بشتى أجناسها وأنواعها .

والقارئ لكتابه البيان والتبيين والحيوان يلاحظ إضافاته المهمة في مجال الأصوات وعيوب النطق .

والمجهود الذى قام به الجاحظ في إثراء المكتبة العربية جعل من حق العلم بعامة والدراسات اللغوية بصفة خاصة أن تبرز جهود الجاحظ وينوه بها ، وذلك للاستفادة منها من ناحية ولوضعها في موضعها الصحيح كحلقة في تاريخ البحث اللغوى العربي في الأصوات من ناحية أخرى .

لذا أخذت على عاتقي أن أقوم بهذا الحق في صورة بحث أنال به درجة الماجستير إن شاء الله تعالى في موضوع (دراسة الأصوات وعيوب النطق عند الجاحظ) .

ونظرا للحرص على إبراز ما أضافه الجاحظ وتمييزه عما سُبق إليه فقد جعلت الدراسة على صورة شبيهة بالموازنة ، حيث أذكر أولا ما كان قبل الجاحظ ، ثم أذكر ما جاء به الجاحظ ، ثم أفرد ما أضافه الجاحظ .

وقد بنيت البحث على ثلاثة أبواب :

الباب الأول : في الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي قبل الجاحظ وعنده .

ويتضمن هذا الباب فصلين :

الفصل الأول : في الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي الإنساني قبل الجاحظ .

وفيه ذكرت أعضاء الجهاز الصوتي التي تحدث عنها الأصمعي وثابت ، وذلك في كتابيهما (خلق الإنسان) باعتبار أن مافيهما يمثل ما كان معلوما لدى العرب عن أعضاء البدن الإنساني ،لذا اعتبرت ما في كتابي الأصمعي وثابت - وهما أقدم ما وصلنا من تلك الكتب - هو ما كان معروفا عند العرب قبل الخليل وسيبويه عن جهاز النطق وهي الغلصمة ،والحنجرة ،والحلق ،والفم وما فيه ،والخياشيم .

كما تعرضت لأعضاء الجهاز الصوتي عند الخليل وسيبويه باعتبارهما من العلماء الذين سبقوا الجاحظ في هذا المجال.

وفي الفصل الثاني : تكلمت عن أعضاء الجهاز الصوتي عند الجاحظ ، والذى يشمل ما ذكره الجاحظ عن أعضاء الجهاز الصوتي ،وأيضا ما أضافه في هذا المجال .

أما الباب الثاني : فكان في الكلام عن الأصوات اللغوية قبل الجاحظ وعنده . ويتضمن هذا الباب ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في الكلام عن الأصوات اللغوية قبل الجاحظ ، وشمل ذلك المنهج الذى وضعه الخليل لتذوق نطق الأصوات ، أى تجربة نطقها . كما شمل دراسة الأصوات اللغوية مفردة ،وذلك بالنسبة للمخارج والصفات عند الخليل وسيبويه والفراء وقطرب والأخفش والجرمي. وما ذكره سيبويه عن الأصوات الفرعية ،إلى جانب ما ذكره الخليل عن اختصاص

العربية ببعض الأصوات اللغوية . وأيضا ما ذكروه عن الدراسة التركيبية (الفونولوجيه) للأصوات ، وعن تنافر الحروف .

الفصل الثاني : في الكلام عن الأصوات اللغوية عند الجاحظ.

وفيها تعرضت لمنهج الجاحظ في الوصول إلى الحقائق والمعلومات في مجال الأصوات ، وما ذكره عن المخارج والصفات ، والأصوات الفرعية ، وما تختص به العربية من الأصوات اللغوية ، إلى جانب الدراسة التركيبية للأصوات وما تحدث به من تنافر الحروف والكلمات .

الفصل الثالث : وفيه بيان إضافات الجاحظ في مجال دراسة الأصوات اللغوية .

وقد تضمنت هذه الإضافات كلمته عن "الضاد" ، وما تختص به العربية من الأصوات وتنافر الكلمات ، وإمكانات الجهاز الصوتي الإنساني ، والحروف الأكثر دورانا في اللغة ومنهج إحصاء هذه الحروف ، والامتحانات الصوتية ، وبعض الدراسات المقارنة في الأصوات ، وإيحاءات الأصوات ، وتعليل تنوع الأصوات اللغوية وكثرة الألفاظ ، والعلة في صعوبة بعض اللغات وسهولتها ، وأثر التدريب في تعلم اللغة ، واهتمام الجاحظ بأصوات الحيوانات ، ودراسة الجاحظ للصوت دراسة طبيعية ، وأخيرا وضعه لأسس علم الأداء الصوتي .

الباب الثالث : في الكلام عن عيوب النطق قبل الجاحظ وبعده .

ويتضمن هذا الباب أربعة فصول :

الفصل الأول : في الكلام عن عيوب النطق قبل الجاحظ.

وفيها ذكرت ما قاله الأصمعي وثابت عن العيوب النطقية.

وفي الفصل الثاني : تحدثت عن العيوب التي ذكرها الجاحظ.

وتشمل :

أولا : عيوب النطق العضوية .

ثانيا : عيوب النطق الوظيفية .

ثالثا : عيوب الأداء .

كلام الجاحظ عن أسباب عيوب النطق وعلاجها .

وفي الفصل الثالث : تحدثت عن إضافات الجاحظ في كلامه عن عيوب النطق .

أما الفصل الرابع : ففيه تقويم كلام الجاحظ عن عيوب النطق .

وذلك بمقارنته :

أولا : بكلام الرئيس ابن سينا عن عيوب النطق .

ثانيا : بكلام علماء النفس المحدثين عن عيوب النطق أيضا ويشمل ذلك:

أ - العيوب التي اتفق فيها الجاحظ والمحدثون .

ب - العيوب التي انفرد بها الجاحظ.

جـ - العيوب التي انفرد بها المحدثون .

وهذه المقارنة والتقويم لكلام الجاحظ يفيدنا في بيان ما تضمنه كلامه من إضافات تتمثل في سبقه وريادته ببعض الأفكار الناجحة في مجال عيوب النطق وعلاجها .

وأخيرا الخاتمة : وفيها لخصت نتائج البحث وخلصت فيها إلى أن الجاحظ قد أتى بإضافات لم يسبقه إليها أحد من علماء العربية ،حيث سبق عصره بأفكار رائدة في مجال الأصوات وعيوب النطق وعلاجها .

*

وختاما أحمد الله تعالى على فضله وعونه لي على إتمام هذا البحث الذى أرجو أن يكون في المستوى اللائق بمن بذلوا معي الجهود المضنية في سبيل إخراجه بصورة جيدة تستحق أن أنال بها درجة الماجستير إن شاء الله .

وأخص بالشكر الجزيل منار العلم وصرحه الشامخ الذى نهلنا من نبعه وما زلنا نطمع في المزيد ،وأعني بها جامعتنا الحبيبة جامعة أم القرى .

كما أخص بالشكر سعادة عميد كلية اللغة العربية ،وعميد معهد اللغة العربية ورئيسي قسم الدراسات العليا وقسم اللغة العربية .

ولا يفوتني أن أشكر أصحاب السعادة أعضاء لجنة المناقشة :

سعادة الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح عبد العليم البركاوى

وسعادة الأستاذ الدكتور / مصطفى عبد الحفيظ سالم

اللذين سيكون لكريم ملاحظاتهم وتوجيهاتهم الأثر الكبير في مستقبل خطواتي العلمية القادمة .

وختاما لا يسعني إلا أن أرفع أسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان لسعادة الأستاذ الدكتور محمد حسن حسن جبل المشرف على الرسالة ، الذى كان يمثل مشعلا من مشاعل العلم استضأت به في مشوار بحثي العلمي ، والذى بسعة علمه وصبره الأبوى ساعدني على إخراج هذا البحث بالصورة الماثلة بين أيديكم .

ولا يفوتني في هذا المقام الكريم أن أشكر سعادة الأستاذ الدكتور عياد بن عيد الثبيتي المشرف بالإنابة ،الذى كرمني بقبوله الإشراف على رسالتي لاكمال مشوارى العلمي ، وقد كان لهذا الأمر أكبر الأثر في نفسي حيث أسبل علي ثوبا من الشرف والدافع المعنوى لمواصلة الجهد ، وذلك لما يتمتع به سعادته من مكانة علمية رفيعة هي مطمح كل طالب علم .

وأبلغ الشكر أقدمه لمن كانت الدافع لي لإكمال مشوارى العلمي والعملي ، والدتي الحبيبة ،أطال الله بقاءها .

لكل هؤلاء الأفاضل ،ولكل من ساعدني في بحثي ذكرته أم لم أذكره لا أجد أبلغ ولا أفضل من أن أقول لهم : جزاكم الله خيرا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

هيفاء عبد الحميد كلنتن .

مكة المكرمة في ١٥/١١/١٤٠٨هـ

الجاحـــــظ

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، المعروف بالجاحظ.
وإنما قيل له الجاحظ لأنّ عينيه كانتا جاحظتين .

وهو من أهل البصرة ، وأحد شيوخ المعتزلة.(١)

له مؤلفات عديدة في شتى ألوان المعرفة ، قال عنه المسعودي :
" ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه ".(٢)

ومن مؤلفاته : الحيوان ، والبيان والتبيين ، والعرجـــان والبرصان ، والفرق بين النبي والمتنبي ، والبخلاء ، والزرع والنخــل والزيتون والأعناب ، والعرب والموالي ، والأصنام والمعادن .. وغيرها.(٣)

أجمعت أكثر التراجم على أنه قد توفي في عام ٢٥٥هـ.(٤)

---

(١) استيفاء لترجمة الجاحظ يمكن الرجوع إلى مواضع ترجمته فـــي الكتب القديمة وهي : (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) للخطيب البغدادي جزء ١٢ ص ٢١٢ . دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان . (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان ٤٧/٣ ، تحقيق د . احسان عباس ، دار صادر بيروت - لبنان. (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) للسيوطي ٢٢٨/٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط٢ عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م دار الفكر ، وانظر (معجم الأدباء) لياقـــوت جزء ١٦ ص ٧٤ ، الطبعة الأخيرة ، مطبوعات دار المأمون .
ومن أوسع ترجماته الحديثة ما كتبه العلامة عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه لكتاب الحيوان .

(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ١٣٥/٤.

===

. . . .

===

(٣) انظر (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) ٢/٢٢٨ ٠
وانظر أيضا :
(مقدمة الجاحظ) في كتابه الحيوان ، الجزء الأول ،تحقيق
د / عبد السلام هارون. المجمع العلمي العربي الإسلامي ،
بيروت لبنان ٠

(٤) انظر (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) للخطيب البغدادي
جزء ١٢ ص ٢١٩ ٠
وانظر (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان ٣/ ٤٧٤٠
وانظر (بغية الوعاة) ٢/٢٢٨٠
وانظر (معجم الأدباء) لياقوت جزء ١٦ ص ٧٤ - ١١٤٠

الباب الأوّل

الكلام عن أعضاء الجهاز الصّوتي قبل الجاحظ وعنده
ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الاول : الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي قبل الجاحظ .

الفصل الثاني : الكلام عن أعضاء الجهاز الصّوتي عند الجاحظ .
وإضافاته في هذا المجال .

الفصل الاول : الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي قبل الجاحظ .

الفصـــل الأول

الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي قبل الجاحـــــظ

سأتحدث في هذا الفصل عن العلماء الذين سبقوا الجاحظ في مجال دراسة أعضاء الجهاز الصوتي حتى أستطيع بذلك أن أحدد إضافات الجاحظ في مجال الدراسات الصوتية .

وأول من تناول الأصوات اللغوية تناولا علميا قبل الجاحظ حسب ما وصل إليه علمنا هو الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدى وذلك في مقدمة كتابه " العين "(١) ، ثم تلميذه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه(٢) ، وذلك في باب الإدغام من كتابه المشهور " الكتاب ".
وأرى من الطبيعى أن أعرض لما كان معروفا للقدماء - الخليل وسيبويه ومن قبلهما - عن جهاز النطق الإنساني ، ونظرا إلى أن القدماء كانوا يتناولون ذلك الجانب ضمن كلامهم عن أعضاء البدن الإنساني في كتب خلق الإنسان ،

---

(١) الخلاف في نسبة " العين " للخليل بن أحمد معروف . انظر مقدمة العين جزء (١) ، تحقيق د . عبدالله درويش . فهناك إجماع على أن المقدمة الصوتية التي في أول العين هي للخليل ، ودراستنا تنصب على هذا الجانب الصوتي .
والخليل بن أحمد هو صاحب العربية والعروض وهو أستاذ سيبويه وعامة الحكاية في كتابه عنه . قال عنه ابن المقفع : إن عقله كان أكثر من علمه . انظر الفهرست لابن النديم ص ٦٣ ، حيث ذكر أنه توفي عام ١٧٠ وانظر بغية الوعاة للسيوطي ١/٥٥٧ ، حيث ذكر أن الخليل توفي عام ١٦٠ أو ١٧٥ .

(٢) وهو فارسي الأصل ، نشأ بالبصرة ، وكان علامة ، حسن التصنيف جالس الخليل وأخذ عنه . وعمل كتابه الذى لم يسبقه إلى مثله

===

لذلك نجد أن كتب خلق الإنسان هذه تمثل في محتوياتها ما كان معلوما لدى العرب عن أعضاء البدن الإنساني . لهذا سوف نعد ما في كتابي الأصمعي وثابت - وهما من أقدم ما وصلنا من تلك الكتب - هو ما كان يعرفه العرب قبل الخليل وسيبويه عن جهاز النطق لأن الأصمعي الذى عاصر الخليل شطرا من حياته أخذ علمه في "خلق الإنسان" عن العرب سمعا أو دراية ، وأخذ ثابت عن الأصمعي وغيره كما ذكر في مقدمة كتابه.

أ - أعضاء الجهاز الصوتي عند الأصمعي (١) وثابت بن أبي ثابت (٢) :

لقد تعرض الأصمعي وثابت بن أبي ثابت لجهاز النطق في كتابيهما "خلق الإنسان" وذلك في أثناء عرضهما للأعضاء الموجودة في جسم الإنسان . ومن خلال تقصينا لما ذكراه استطعنا أن نستخلص الصورة التي كانت شائعة عن أعضاء جهاز النطق عند القدماء في ذلك الوقت.

=== أحد قبله ،وكان المازني يقول : من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح . اختلف في تاريخ وفاته فمنهم من قال سنة ١٦١ أو ١٧٧ وقيل سنة ١٨٠ أو ١٨٨ أو ١٩٤ . انظر الفهرست لابن النديم ص ٧٦ دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان . وبغية الوعاة ٢/٢٢٩ . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ،دار الفكر.

(١) هو أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر والنحو. وكان من أهل السنة ،لا يفتي إلا فيما أجمع عليه علماء اللغة ،ولا يجيز إلا أفصح اللغات . له مؤلفات عديدة ،ولقد اختلف في تاريخ وفاته فقيل توفي عام ٢١٣ أو ٢١٥ أو ٢١٦ ، ٢١٧ رحمه الله. انظر الفهرست ص ٨٢ ،وبغية الوعاة ٢/١١٢.

(٢) هو أبو محمد ثابت بن أبي ثابت ،قيل أن اسم أبيه سعيد ،وقيل محمد كان نحويا ولغويا ،لقي فصحاء الأعراب ،وهو من كبار الكوفيين . له عدة مؤلفات منها خلق الإنسان ،ومختصر العربية . وكان تلميذا لأبي عبيد المتوفي ٢٢٤هـ . انظر الفهرست ص ١٠٣ ،وبغية الوعاة ١/ ٤٨١.

فأعضاء الجهاز النطقي عندهم تشتمل على : الفلصمة ،والحنجرة ، والحلق بجميع أقسامه ، والفم بمحتوياته : الحنك ،واللسان بأقسامهما ، والأسنان والشفتين ،والخياشيم .

وفيما يلي عرض شامل لهذه الأعضاء النطقية وماذكراه عنها موضحة بالرسم وهي كمايلي :

١) الفلصمة والحلقوم .

تقارب الأصمعي وثابت في تعريفهما للفلصمة ،وبيان موضعها ،فقد قال الأصمعي : " الفَلْصَمَةُ وهي العُجْرَةُ التي على مُلْتَقَى اللَّهَاةِ والمَرِيءِ ، إذا ازْدَرَدَ الآكِلُ اللُّقْمَةَ فَزَلَّتْ عن الحَلْقِ دَخَلَتْ فَمَ الفَلْصَمَةِ "(١).

وقال ثابت بن أبي ثابت : " الفَلْصَمَةُ من الإنسانِ مُتَّصِلُ الحُلْقومِ بالحَلْقِ ، إذا ازْدَرَدَ الآكِلُ لُقْمَتَهُ فَزَلَّتْ عن الحَلْقِ دَخَلَتْ فَمَ الفَلْصَمَةِ "(٢).

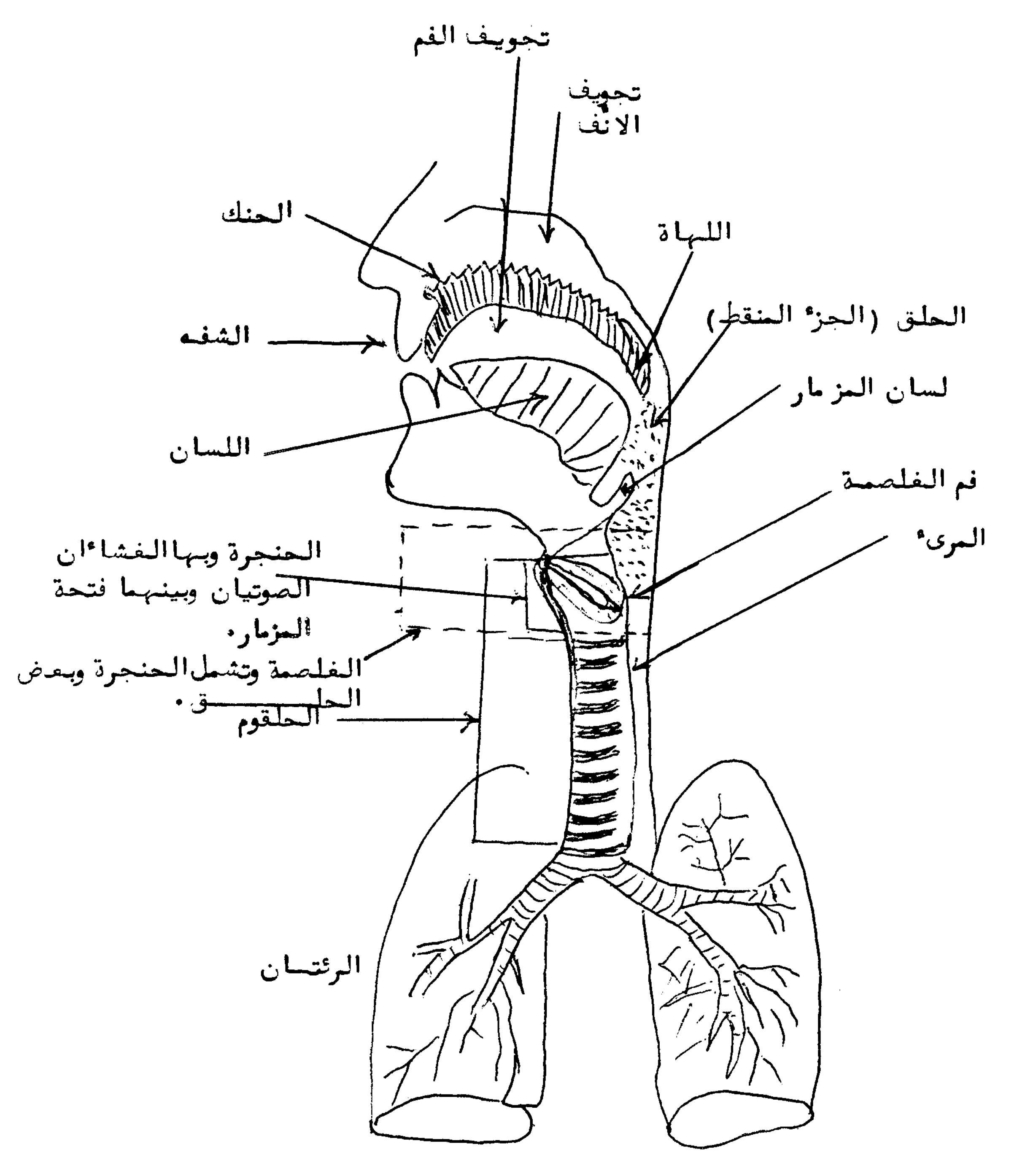
فالعُجْرة التي ذكرها الأصمعي تعني " الموضع الناتيء في مقدم الحلق "(٣) ،وقوله : " الفلصمة هي العجرة التي على ملتقى اللهاة والمريء " معناه أن ذلك النتوء هو نتوء جسم الفلصمة ،وأنها في الوسط بين اللهاة التي تتدلى في أعلى الحلق ،والمريء الذى يبدأ في أسفل الجزء الخلفي من الفلصمة . والمريء هو مجرى الطعام والشراب، فإذا ابتلع الآكل اللقمة فزلت عن الحلق دخلت فم الفلصمة الذى هو كالمدخل إلى فم المريء .

---

(١) " خلق الإنسان " للأصمعي ص١٩٧ ،نشره وعلق عليه د .أوجست هفنر ،المطبعة الكاثوليكية ،بيروت.

(٢) كتاب " خلق الإنسان " لثابت بن أبي ثابت ص ١٩١ .

(٣) انظر لسان العرب مادة " عجر " ٥٤٢/٤ .



المرجع : انظر في تخطيط هذا الرسم :

١ - أصوات اللغة العربية د. محمد حسن حسن جبل ٠٤-٤٥.

٢ - The Human Body in Relife,
Relife Tables (Nova, Rico, Florace),
Chart 036.

٣ - اكملت البيانات في ضوء ما ذكره الأصمعي وثابت - ثم سائر اللغويين - عن أعضاء النطق.

وهذا التعريف يوافق في معناه ما قاله ثابت : من أن الغلصمة من الإنسان متصل الحلقوم بالحلق أي أنها في الوسط تصل الحلق بالحلقوم .

والحُلْقُوم هو : " مجرى النفس والسُّعال من الجوف ، وهو أطباق غراضيف ليس من دونه من ظاهر باطن العنق إلا جلده وطرفه الأسفل في الرئة ، وطرفه الأعلى في أصل عَكَدة اللسان ، ومنه مخرج النفس والريح والبصاق والصوت ".(١)

وفي التهذيب : " والحلقوم وهو الحنجور وهو مخرج النفس لا يجرى فيه الطعام والشراب (والذى يجرى فيه الطعام والشراب) يقال له المرى ".(٢) فالحلقوم هو ما يسمى في عصرنا هذا القصبة الهوائية ، ورأسه هو ما يسمى الحنجرة . والغلصمة تشمل رأس الحلقوم (الحنجرة) ، وما حولها ، والمدخل إلى فم المرىء ، وهذا المدخل وراء الحنجرة وهو الذى يسمى فم الغلصمة . فالعبارة التي وردت في تعريفي الأصمعي وثابت " إذا ازدرد الآكل اللقمة فزلت عن الحلق دخلت فم الغلصمة "(٣) يؤخذ منها أن فم الغلصمة هو كالمدخل إلى فم المرىء ، لأن اللقمة تعبر الحلق - وهو التجويف الذى يعلو الحنجرة - أولا ، ثم تدخل فم الغلصمة ، ومنه إلى فم المرىء ضرورة .

وهناك من تعريفات الغلصمة ما يجعل الحلق جزءا منها .

٢) الحنجرة : لقد اتفق الأصمعي وثابت على أن الحنجرة هي رأس الغلصمة ، ومن المعروف قديما وحديثا أن الحنجرة هي العضو الأساسي لصوت الإنسان ، وذلك لأن الحنجرة تشتمل على الوترين الصوتيين الممتدين أفقيا من الخلف إلى الأمام حيث يلتقيان عند البروز المعروف بتفاحة آدم .

---

(١) انظر لسان العرب مادة (حلقم) ١٢/ ١٥٠ .

(٢) انظر التهذيب ٥/ ٣٠١ وانظر اللسان ١٢/ ١٥٠ .

(٣) انظر لسان العرب ، وتاج العروس (غلصم) .

قال ثابت (1): "الحنجرة رأس الغلصمة حيث تحدَّدَ، وحِدَّتُه أنه طرف الحلقوم" (2).

فالواضح من هذا أن الأصمعي وثابتاً قد اتفقا في تعريف الحنجرة، التي هي رأس الغلصمة . ثم إنه كان من المعروف لأهل القرن الأول ومابعده أن الحنجرة هي التي تولد الصوت .

جاء في لسان العرب (حنجر) "أن القاسم (بن محمد)(١٠٧هـ) سئل عن رجل ، ضرب حنجرة رجل فذهب صوته . فقال عليه الدية" فهذا شاهد على معرفتهم أن الصوت إنما يصدر عن الحنجرة .

٣) الحلق :

من الملاحظ أن الأصمعي وثابتا لم يعرّفا الحلق تعريفا محددا ، وإنما ذكرا عَرَضا في أثناء حديثهما عن الغلصمة : أن اللقمة تزل عن الحلق في طريقها إلى فم الغلصمة.

والذى جاء في العين "الحلق مساغ الطعام والشراب ، ومخرج النفس من الحلقوم ،وموضع المذبح من الحلق [هو] أيضا" (3).

وقول الخليل إنه مخرج النفس من الحلقوم يعني أن الحلق هو التجويف الذى يعلو الحنجرة . وذلك التجويف

---

(1) يعني بقوله "حيث تحدد" : حيث ينتأ في مقدم عنق الرجل. انظر اللسان مادة (حنجر) ٤/ ٢١٦ .

(2) انظر كتاب "خلق الإنسان" لثابت بن أبي ثابت ص ١٩١ ، وخلق الإنسان للأصمعي ص١٩٧ . والأشبه أن ما جاء في خلق الإنسان للأصمعي " من قوله في تحديد الحنجرة "حيث ينحدر منه الطعام" تحريف عن "حيث تحدد" التي جاءت في كلام ثابت. وأضاف ناشر الكتاب إلى الكلمة ما ظنه توضيحا للمراد .

(3) كتاب العين تحقيق د . المخزومي ود . السامرائي ٣ /٤٨ ولفظ [هو] من تهذيب اللغة ٤/ ٥٨ .

هو طريق النفس خروجا من الحلقوم إلى الأنف أو الفم ،ودخولا منهما إليه . وهذا هو عين التحديد الحديث للحلق .

وواضح كون ذلك التجويف (الحلق) هو أيضا مساغ الطعام والشراب ، أى مرّهما من الفم إلى فم الفلصمة ثم المرىء .

وواضح أن الحلق بموقعه هذا هو مجرى الصوت أيضا بعد صدوره عن الأغشية الصوتية في الحنجرة .

ولقد ذكر الأصمعي وثابت أن الفم يشتمل على "اللّغاديد" وهي كالزوائد من لحم تكون في باطن الأذنين من داخل . قال هميان ابن قحافة :

تَرَى اللَّغَادِيدَ بِهِ حَوَابِجَا نِصْفَيْنِ نِصْفاً خَارِجاً وَوَالِجَا (١)

قال ثابت : " قوله حَوابج : مُنْتَفِخَةٌ من شدّةِ هَدِيرِه ،يقال : حَبَجَ يَحْبِجُ حَبْجاً إذا انتفخَ وارْتَفع كأنه وَرَمٌ ". (٢)

و(اللغانين) كما ذكر ثابت ، هي الوَتَرَاتُ اللَّواتي عند باطنِ الأُذُنين إذا استد فوالإنسان تَمَدَّدْنَ والواحدُ لُغْنُونٌ .

(والنَّغانِغُ) : " لَحْمٌ مُتَدَلٍّ في بُطُون الأُذُنَيْنِ والواحد نغنغة ونُغْنُغٌ ". (٣)

---

(١) انظر كتابي (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٦ ،وثابت ص ١٩٠ .
(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت بن أبي ثابت ص ١٩٠ .
(٣) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٩٠ .

وأحب أن أشير إلى أن الخليل وسيبويه قد قسما الحلق إلى ثلاثة أحياز وذلك في أثناء تحديدهما لمخارج الحروف العربية ، فذكرا أن الحلق يتكون من أقصى الحلق ، ووسط الحلق ، وأدنى الحلق ، مع تحديد الحروف التي تخرج من هذه الأقسام الثلاثة.(١)

٤) الفم :(٢)

وهو الفتحة المعروفة التي يدخل منها الطعام وفيها يمضغ ، ويخرج منها ومن الأنف الكلام . وهو من أهم أعضاء الجهاز الصوتي ، حيث إنه يحوي معظم أعضائه : اللسان ، والحنك ، والأسنان ، والشفتين .

---

(١) انظر (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي ٦٥/١ . تحقيق د/عبدالله درويش . وكتاب (الكتاب) لسيبويه ٤٣٣/٤ ، تحقيق عبد السلام هارون / عالم الكتب بيروت .(مصورة) .

(٢) من الملاحظ أن الأصمعي وثابتا لم يذكرا تعريفا للفم . فهما لم يذكرا عن الفم شيئا إلا الأعضاء الموجودة فيه . انظر (خلق الانسان) للأصمعي ١٩١ ، ولثابت ١٥٢ ، ١٦٠ . ولقد جاء في اللسان أن الفوه أصل بناء تأسيس الفم .

قال أبو منصور : " ومما يَدُلُّك على أن الأصّل في فم ، وفو ، وفا ، وفي ، هاء حذفت من آخرها قولهم للرجل الكثير الأكل (فَيِّهٌ) وامرأة (فَيِّهَةٌ) . ورجل أفوه عظيم الفم طويل الأسنان . . . والجمع أفواه . قال تعالى ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ التوبة آية ٣٠ ، وقالوا : رجل مُفَوَّهٌ اذا أجاد القول ، ومنه الأفوه للواسع الفم ، ولم نسمعهم قالوا : أفهام ، ولا تفممت ، ولا رجل أفم .

هذا بعض ما ورد عن الفم في اللسان ، وهناك - إلى جانب ذلك - بعض التحليلات الصرفية عند بعض العلماء عن أصل حروفه .

(انظر لسان العرب مادة فوه) ٥٢٥/١٣ .

٥) الحنـــك :

لقد ذكر الأصمعي وثابت أن الحنك هو : " سَقْفُ أَعْلَى الفَمِ حَيْثُ يُحَنِّكُ البَيْطَارُ مِنَ الدَّابَّةِ ".(١)

وقد قصدا به ذلك الغطاء المحدب الذى فوق اللسان وهو المعروف بين العامة بسقف الحنك.

ولقد قسم القدماء الحنك إلى ثلاثة أقسام وهي :

أ - أقصى الحنك : وهو الجزء المسمى باللَّهاة ،قال الأصمعي : " اللَّهَاةُ : وهي اللَّحْمَةُ الحَمْرَاءُ المُعَلَّقَـةُ في أَعْلَى الحَنَكِ عَلَى عَكَرَةِ اللِّسانِ ".(٢)

ب- وسط الحنك ، ويقال لها المَحَارَةَ أو النِّطَع ،قال الأصمعي : " والمَحَارَةُ أَعْلَى الحَنَكِ المُسْتَدِيرُ ،ويقال له النَّطَعُ مُحَـرَّكٌ ، واللَّحمُ الذى في أَسْفَلِهِ تُسَمِّيهِ العربُ الحَفَّافَ يقولُ الرَّجُـلُ يَبِسَ حَفَافِي من العَطَشِ ".(٣)

وقال ثابت : " والمَحَارَةُ : الحَنَكُ أيضا ،ويقالُ له النَّطَعُ . واللحمُ الذى في أسفَلِهِ إلى اللَّهَاة يقالُ لها الحَفَّافُ .

وقال أبو زيد : يقالُ لِمَوْقِعِ اللسانِ من أسفَلِه : الفِرَاشُ ،ولموقِعِه من الحَنَك : النَّطَعُ ".(٤)

---

(١) انظر كتابي (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٦ ،وثابت ص ١٦١.

(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٦.
والعكرة : هي أصل اللسان كالعكدة . انظر لسان العرب مادة (عكر) ص ١٠٦.

(٣) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٦.

(٤) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٦١- ١٦٢.

جـ - مقدم الحنك : ويسمى اللِّثَة العليا ،قال الأصمعي : "اللِّثَـــةُ وهي اللَّحْمُ الذى رُكِزَ فيه الأسنانُ ،والشُّرُفُ التي تُصَعِّدُ بين اللَّحمِ والأسنانِ يقال لها العُمُورُ واحِدُها عُمْرٌ".(١)

وقال ثابت : "وفي الفم اللِّثَةُ ،وهو اللحمُ الذى على أصـــول الأسنانِ يُمْسِكُ الأسنانَ ،والجمع لِثاتٌ.

وفي اللِّثَةِ العُمُورُ ،والواحد عُمْرٌ ،وهو اللَّحم الذى يسيل مـــن اللِّثاتِ بين الأسنان كالشُّرَفِ ،وقد يقا ل له : القُيُودُ".(٢)

٦) اللســـان :

إن اللسان عضو هام من أعضاء الجهاز النطقي ، فهو كثير الحركة في الفم و ينتقل من وضع لآخر عند النطق فيكيف الصوت اللغوى علـــى حسب أوضاعه المختلفة . كما أنه يساعد في تقليب الطعام وحَدْره إلـى الداخل . ولقد قسم القدماء اللسان إلى ثلاثة أقسام وهي :

أ - أقصى اللسان : وهو الجزء الداخل في الفم ويقع بمحـــاذاة أقصى الحنك الأعلى (أى تحت اللهاة)(٣) ولقد اتفـــق الأصمعي وثابت على تعريفه ،قال الأصمعي : "اللسان وفيـه العَكَدَة (والعَكَرَة) وهما أصل اللسان ومعظمه".(٤)

وقال ثابت : "اللسان وفيه عَكَدَتُه وعَكَرَتُه وجَذْره ،وهو أصْـــلُ اللِّسان ومُسْتَغْلَظِه".(٥) إذا فأقصى اللسان هو أصله والجـــزء الغليظ فيه.

----

(١) انظر (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٤.
(٢) انظر (خلق الإنسان) لثابت ص ١٦٣.
(٣) انظر ما قيل سابقا عن (أقصى الحنك) ص ١١
(٤) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٦ ، ١٩٧.
(٥) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨١.

ولقد ذكر الأصمعي وثابت أن في اللسان عرقين أخضرين يستبطنان اللسان يقال لهما الصُّرَدَان .

كما نوه ثابت إلى أن في أصل اللسان عظمين يقال لهما : العُمَيميران ، ولكل واحد شُعْبتان في طرفه ".(١)

ب - وسط اللسان : من الملاحظ أن الأصمعي وثابتاً لم يذكرا وسط اللسان ، وإنما ذكرا أقصاه وطرفه ، والذى ذكر وسط اللسان هو الخليل بن أحمد الفراهيدى وسيبويه ، وذلك في أثناء تحديدهما للأصوات اللغوية التي تخرج من وسط اللسان (٢) وعلى ذلك فإن وسط اللسان يشمل الثلث الأوسط من اللسان تقريبا .

جـ - طرف اللسان : ويقال له عَذَبَةُ اللسان ، ولقد اتفق الأصمعي وثابت في تعريفه قال الأصمعي : " ثم اللسان وفيه عَذَبَته وهي طرفه ، تقول العرب إذا نعتت خفة اللسان : ما أرق عَذَبَةَ لسانه ".(٣)

وقال ثابت : " وفي اللسان عَذَبَتُه ، وهو طَرَفُه ، تقول العربُ للرجلِ إذا وَصَفَتْ خِفَّةَ لِسَانِه : ما أَرَقَّ عَذَبَةَ لِسانه ".(٤)

ولقد نوه ثابت إلى أن أَسَلَة اللسان وعذبته شيء واحد ، حيث قال : " وفيه الأَسَلَةُ وهو طَرَفُه حيث اسْتَدَقَّ ورَقَّ ، والأَسَلَةُ والعَذَبَةُ واحِدٌ ".(٥)

ونجد أن الأصمعي وثابتا لم يقتصرا على ذكر اللسان وأقسامه فقط ، بل تعدياه الى ذكر الآفات التي تصيب اللسان وتعيبه .

---

(١) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨٢ .
(٢) أنظر العين (د . درويش) ١/ ع ٦ ، والكتاب لسيبويه ٤/ ٤٣٣ .
(٣) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٦ .
(٤) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨١ .
(٥) انظر نفس المرجع ص ١٨١ .

٧) الأسنان :

لا شك أن للأسنان دورا كبيرا في إخراج بعض الأصوات اللغوية ، فلذلك عُدَّت عضوا من أعضاء الجهاز النطقي ، ولقد ذكر الأصمعي وثابت أن الأسنان تشتمل على الثَّنَايَا والرَّبَاعِيَاتِ والأَنْيابِ والضَّوَاحِكِ والطَّواحِنِ والأَرْحَاءِ والنَّواجِذِ ، قال الأصمعي : " وفي الفم الثَّنَايَا والرَّبَاعِيَات ، والأَنْيَابَ والضَّواحِكَ والنَّواجِذُ ، فالضَّواحِك أربعة أضراس من ذلك تلي الأَنْيَابَ إلى جَنْبِ كُلِّ نَابٍ من أسفَلِ الفَمِ وأعلاهُ ضَاحِكٌ .

وأما الأَرْحَاءُ فهي ثَمَانِيَةُ أضْرَاسٍ من كُلِّ شِقٍّ من أسفَلِ الفَمِ وأعْلاهُ ، والنَّواجِذُ أربعَةُ أضْرَاسِ اللَّواتِي هُنَّ أواخِرُ الأضْرَاسِ من كُلِّ شِقٍ من أسفَلِ الفمِ وأعلاهُ ". (١)

وقال ثابت بعد أن عدد ما في الفم من أسنان كما فعل الأصمعي - " إن الأسنان كلها تشتمل على ست وثلاثين سنا من فوق وأسفل . أربع ثنايا : ثنيتان من فوق ، وثنيتان من أسفل .

ثم يلي الثنايا أربع رباعيات ، ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل . ثم يلي الرباعيات الأنياب ، وهي أربعة : نابان من فوق ، ونابان من أسفل . ثم يلي الأنياب الضواحك ، وهي أربعة أضراس ، إلى كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك .

ثم تلي الضواحك الطواحن والأرحاء ، وهي ستة عشر ، في كل شق ثمانية ، أربعة من فوق ، وأربعة من أسفل .

ثم يلي الأرحاء النواجذ : أربعة أضراس ، وهي آخر الأضراس نباتا ، والواحد ناجذ ". (٢)

---

(١) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩١ .
(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

كما ذكر ثابت أن العرب تسمي الضواحك العوارض ولقد أورد قول أبي زيد : " العوارض ثمانية في كل شق أربعة فوق ، وأربعة أسفل ، فذلك ستة عشر ".(١)

كما ذكر أن أصول الأسنان الغائبة في اللثة يقال لها : السُّنُوخ ، والواحد سِنْخ ".(٢)

ونجد أن الأصمعي وثابتا لم يقتصرا على ذكر الأعضاء وتحديدها بل تعرضا أيضا للآفات التي تصيب الأسنان وتعيبها ومنها : الروق ، والشفا ، والفقم ، والفَوَه والقادح .

فالرَّوَق عندهما : " طول الأسنانِ العُلى ، ويقال : رجل أروق ، وامرأةٌ روقاء ".(٣)

وأما الشَّفَا فهو : " أن تختلف نبتتها فلا تستوى ، يقال : رجل أشفى ، وامرأةٌ شفواء ".(٤)

أما الفقم : " فهو تقدم ثناياه السفلى ، فلا تقع العليا عليها ، وذلك إذا ضم الرجل فاه تقدمت ثناياه السفلى فلم تقع العليا عليها ."(٥)

والفَوَه : " هو طول الأسنان كُلُّها ، يقال رجل أفْوَه ، وامرأة فوهاء ".(٦)

والقادح : " هو تآكل الأسنان ، يقال قدح في سنه قدحا . وجمعها قوادح ".(٧)

هذا بالنسبة لبعض الآفات والأعراض التي تصيب الأسنان .

---

(١) انظر كتاب (خلق الانسان) لثابت ص ١٦٧ . المقصود ثمانية في كل جانب من جانبي الفم أربعة من أعلى وأربعة من أسفل ، وقد حددت العوارض بتحديدات كثيرة من حيث عددها ، وتعيينها : الثنايا وحدها / الثنايا وما بعدها / ما بين الثنايا والأضراس / الأسنان التي بعد الثنايا / الناب والضرس الذى يليه / أربعة الاسنان التي تلي الأنياب (انظر اللسان عرض) .

(٢) نفس المرجع ص ١٦٨ .

(٣) كتابي (خلق الانسان) للأصمعي ص ١٩٣ ولثابت ص ١٧٢ .

(٤) انظر كتابي (خلق الانسان) للأصمعي ص ١٩٤ . ولثابت ص ١٧٥ .

(٥) نفس المرجع للأصمعي ص ١٩٥ .

(٦) انظر كتابي (خلق الانسا ن) للأصمعي ص ١٩٥ . ولثابت ص ١٧٣ .

(٧) انظر كتابي (خلق الانسان) للأصمعي ص ١٩٢ . ولثابت ص ١٨٠ .

٨) الشفتان :

إن للشفتين دورا بارزا في إخراج بعض الأصوات اللغوية ،فلذلك اعتُبِرت من الأعضاء الرئيسية في الجهاز الصوتي . قال الأصمعي : " في الفم الشفتان والواحدة شفةٌ ، وكان ينبغي أن تكون شفهةٌ . ويدلك على ذلك أنهم إذا صغروها قالوا : شُفَيْهَةٌ ،فيردونها إلى أصلها ويجمعون فيقولون : شِفاهٌ كثيرة ،فالهاء من شفاه هي الأصلية ، كقولهم شاةٌ وشُويهةٌ وشِياهٌ ،وماء ومُوَيْهٌ ومياه ،ينقصونها في الواحد استثقالا ."(١)

ولقد ذكر ثابت أن في الشفتين الإطارين حيث قال : "وفي الشفتين الإطاران ،في كل شفةٍ إطارٌ ،والإطارُ : الذى يفصل بين الشفة وشعر الشارب كأنه كِفَاف ".(٢)

أما بالنسبة لما يعترى الشفتين من الآفات ،فقد ذكر الأصمعي وثابت عدّة أشياء منها : الهَدَل والفَلَح والعَلَم والذَّلَع ... وغيرها.(٣)

فالهَدَل هو : " ضخم واسترخاء فيها ،يقال : رجل أهدلُ الشفة ،وامرأةٌ هدلاء ".(٤)

أما الفلح : "فهو ضخم (في الشفة السفلى) واسترخاء و تشقق كشفاه الزنج ، يقال : شفة فلحاء بينة الفَلَح ".(٥)

---

(١) انظر كتاب (خلق الانسان) لثابت ص ١٥٢ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥٢، ١٥٣ .

(٣) انظر نفس المرجع من ص ١٥٤ ،الى ص ١٥٧ ،حيث ذكر عِدّة آفات تصيب الشفة .

(٤) نفس المرجع ص ١٥٣ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١٥٣ .

أما العلم فهو : " شقٌّ في الشفة العليا في وسطها ،مثل شفة البعير ،وكل بعير أعلم ،والناقة عَلَمَاءُ ،وكذلك الرجل أعلم ،والمرأة علماء ".(١)

أما الذلع فهو من الإنسان كالهدل ،قال أبو زيد : " ومن الشفاه الذَّلْعَاء وهي من الإنسان كالهدل في البعير ،والاسم الذَّلَع والهدل ".(٢)

هذا بالنسبة لبعض ما يعترى الشفاه من الآفات.

٩) الخياشيم :

تعتبر الخياشيم عضوا من أعضاء الجهاز الصوتي ،لأنها تشارك في إخراج بعض الأصوات اللغوية مثل (الميم ،والنون).

قال الأصمعي في تعريفها : " الخياشيمُ وهي العظامُ الرِّقاق فيما بين أعلاه- (أى أعلى الأنف)- الى الرأس ،والواحد خيشوم ".(٣)

وقال ثابت : " الخياشيم وهي الغَرَاضِيفُ التي في أقصى الأنف ، بينه وبين الدماغ ،الواحد خيشوم ،ويقال : ان الخياشيم عُروقٌ في باطن الأنف ".(٤)

فالخياشيم إذاً تقع في أقصى الأنف في الجزء الواقع ما بين الرأس وما فوق أرنبة الأنف ،وتشتمل هذه المنطقة على عظام رقاق وعروق. والذى يؤيد هذا القول ما ورد في اللسان : " الخيشوم من الأنف ما فوق

---

(١) انظر (خلق الإنسان) لثابت ص ١٥٤.

(٢) نفس المرجع ص ١٥٤.

(٣) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٨٨.

(٤) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٤٧.

نُخَرتِه من القصبة وما تحتها من خشارم رأسه".(١) وقوله : "وفي الأنف ثلاثة أعظم فإذا انكسر منها عظم تَخَشَّم الخيشوم فصار مخشوما".(٢)

ومن الطبيعي أن تشتمل هذه المنطقة على عروق أو شرايين في باطن الأنف وفي هذا الأمر يستقيم القولان اللذان وردا عن الأصمعي وثابت.

وبنهاية هذا الموضوع أكون قد انتهيت من عرض أعضاء الجهاز الصوتي عند الأصمعي وثابت بن أبي ثابت.

---

(١) انظر اللسان مادة (خشم)١٢/١٧٨.

(٢) انظر نفس المرجع ١٢/ ١٧٩.

ب) - أعضاء الجهاز الصوتي عند الخليل وسيبويه :

من الطبيعي أن تلك المعلومات التي ذكرها الأصمعي وثابت عن جهاز النطق ، كانت معروفة للخليل وسيبويه وقد بدا ذلك في ذكرهما أسماءها أثناء تحديدهما لمخارج الأصوات، لكن لهما إضافات في هذا المجال تتمثل في تقسيم كل من الأعضاء المؤثرة في إخراج الأصوات إلى مناطق أو أحياز حسب مخارج الحروف التي تخرج منها.

ومن الملاحظ أن الخليل وسيبويه لم يعقدا فصلا خاصا للجانب العضوي في كتابيهما : (العين) و (الكتاب) ، وإنما تحدثا عن مختلف أعضاء الجهاز الصوتي عند تحديدهما لمخارج الأصوات وصفاتها. فأعضاء الجهاز الصوتي عندهما هي :

١ - الحلق :

ذكر الخليل وسيبويه الحلق عند تحديد مخارج الأصوات اللغوية الحلقية وهي : العين ، والحاء ، والهاء ، والخاء ، والغين ، والهمزة.(١)

----

(١) نسبا إلى الحلق صوت العين والحاء والهاء والخاء والغين ، ونصا على أن الهمزة تخرج من أقصى الحلق ، وذلك في كتاب (العين) للخليل ج١ ص ٥٨ و (الكتاب) لسيبويه ج٤ ص ٤٣٣ والذي يؤخذ من كلامهما أن الحلق هو أول أعضاء الجهاز النطقي .

وهو عندهما أقصى [1] أعضاء النطق أو أعمقها .

أقسام الحلق عند الخليل وسيبويه :

نحن نعرف أن سيبويه قد قسم الحلق إلى ثلاثة مناطق وهي :

(١) أقصى الحلق ، وتخرج منه الهمزة والألف والهاء .

(٢) وسط الحلق ، وتخرج منه العين والحاء .

(٣) أدنى الحلق ، وتخرج منه الغين والخاء .

هذا التقسيم مصرح به في كتابه. [2]

وعندما نظرت إلى أستاذه الخليل بن أحمد وجدت أنه قد قسم نفس التقسيم الذى قسمه تلميذه سيبويه ، ولكنه لم يذكر هذا التقسيم

---

(١) قال الخليل : فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين ، ثم الهاء ولولا هتة في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء ، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد . بعضها أرفع من بعض ، ثم الخاء والغين في حيز واحد ، كلهن حلقية . انظر العين ج١/ص ٦٤ . وقد صرح سيبويه بأن الحلق أقصى أعضاء النطق حيث قال : فللحلق منها (يعني من المخارج) ثلاثة فأقصاها مخرجا : الهمزة والهاء والألف ، ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء . وبأدناها مخرجا من الفم : الغين والخاء . انظر (الكتاب) لسيبويه ج٤/ص ٤٣٣ . وقد تبع سيبويه استاذه الخليل في هذا الترتيب فبدأ بالحروف الحلقية ، فالحلق عندهما هو أقصى أعضاء الجهاز النطقي ، وهذا سليم لغويا إذا اعتددنا أقصى الحلق هو الأغشية الصوتية التي تغطي الحنجرة وتكون قاع الحلق وتخرج منها الهمزة .

(٢) انظر الكتاب لسيبويه ٤/٤٣٣ .

صراحة كما ذكره سيبويه وإنما أشار إليه في بعض كلامه.(١)

فنحن حينما ندقق فيما قاله الخليل وما رواه بعض العلماء عنه كابن كيسان(٢) نستنتج كيفية تقسيمه للحلق التي هي في الواقع أصل تقسيم سيبويه.

----

(١) من ذلك قوله : " وأما مخرج العين والحاء والهاء والخاء والغين فالحلق . وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق ،مهتوتة مضغوطة . فإذا رفه عنها لانت إلى الياء والواو والألف ،عن غير طريقة الحروف الصحاح ". انظر العين ١/٥٨ت:درويش.

(٢) انظر رواية ابن كيسان في كتاب (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) للسيوطي ١/٩٠. تحقيق وشرح وضبط محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوى ،محمد أبو الفضل ابراهيم . دار الفكر.

فالذى نأخذه من نص الخليل وابن كيسان أن الهمزة تخرج من أقصى الحلق ،وأن الألف من جنسها. ونأخذ من رواية ابن كيسان أن الهاء تخرج من نفس مخرج الهمزة وهو أقصى الحلق والخليل لم يبدأ بهن لما تتصف به من صفات لا تؤهلها للصدارة في ترتيبه للمعجم ،فلذلك بدأ بالعين لأنها أنصع الحروف ،حيث قال : " فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين ... " انظر العين ١/٦٤، فالخليل هنا يقصد أن العين أقصى ما يمكن أن يبدأ به من الحروف ،فكأنه لم يستطع أن يبدأ بالحرف الأقصى حقيقة وهو " الهمزة " ولا بالذى يليه وهو الهاء فاعتبر أن العين هي الأقصى . وعلى هذا فإن أقصى الحروف عند الخليل - في غير ترتيب معجم العين - هي الهمزة والألف والهاء ،ثم يليه العين والحاء ثم يليه الغين والخاء ،وهذا ما يعرفه الخليل ،الا أنه لم يصرح به ،كما أنه لم يأخذ به في ترتيب معجمه.

٢) الفـــم :

لم يقف الخليل أو سيبويه عند وصف الفم بعـــده عضواً للنطق ، ربما اكتفاء بكونه عضوا معروفا . وإنما حلل الخليل لفظ الفم تحليـــلا صرفيا .(١)

٣) الحنـك :

المقصود بالحنك هو ذلك الغطاء المحدب الذى فوق اللسان ، والذى تسميه العامة سقف الحنك.(٢)

---

(١) قال الخليل : " الفم أصله (فوه) كما ترى . والجميع أفواه . والفعل : فاه ، يفوه ، فوها ، إذا فتح فمه للكلام " (العين : درويش ١ / ٥٦) .
وقال : " فأما قوله (فموان) فإنه جعل الواو بدلا من الذاهبة . فإن الذاهبة هي هاء وواو . وهما إلى جنب الفاء . ودخلـــت الميم عوضا منهما . والواو التي في (فموين) دخلت بالغلط وذلك أن الشاعر يرى ميما قد أدخلت في الكلمة ، فيرى أن الساقط من (الفم) هو بعد الميم فيدخل الواو مكان ما يظن أنه سقـــط منه ويغلط " (العين : درويش ١ / ٥٧) .
فالخليل هنا قد حدد أصل الفم وما حذف منه ، مع بيان طريقـــة جمعه . أما بالنسبة لسيبويه ، فإنه لم يذكر الفم في أثناء عرضه لمخارج الأصوات وصفاتها كما أنه لم يقم بتحليلها تحليلا صرفيا ، ولعله اكتفى بما فسره أستاذه الخليل .

(٢) هناك الحنك الأعلى وهو ذلك المذكور ، وهناك الحنك الأسفل ، وهو تحت الفك الأسفل بين اللحية ومقدم العنق .

أقسام الحنك :

ينقسم الحنك إلى ثلاثة أقسام وهي :

أ - أقصى الحنك : ذكره الخليل في تحديد مخرج القاف والكاف باسم اللَّهاة حيث قال : "القاف والكاف لهويتان ، لأن مبدأهما من اللهاة ".(١)

والمعروف أن اللهاة جزء من أجزاء الحنك ، وهذا الجزء الأقصى . وقد عبر سيبويه عن هذا المخرج بأنه ما فوق أقصى اللسان من الحنك الأعلى ، وهذا بالنسبة للقاف حيث قال : " ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف ".(٢)

أما بالنسبة للكاف فقد قال : " ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى مُخرج الكاف "(٣) . أى أن الكاف أرفع قليلا من القاف فهي داخلة في اللسان إلى الأمام بعد القاف.

ب- وسط الحنك : وهو النِّطَع ، أو الغار ، أو المحارة .

وقد ذكر الخليل النِّطَع في تحديده لمخرج (الطاء ، والدال ، والتاء) ، حيث قال : " والطاء والتاء والدال نطعية . لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى ".(٤)

وذكر سيبويه وسط الحنك في تحديده لمخرج (الجيم ، والشين ، والياء . قال سيبويه : " ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء ".(٥)

---

(١) انظر (العين) للخليل ١/ ٦٥ . تحقيق د . عبدالله درويش .
(٢) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/ ٤٣٣ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) انظر العين (د . درويش) ١/ ٦٥ .
(٥) انظر الكتاب ٤/ ٤٣٣ .

جـ - مقدم الحنك : وهو اللِّثة حيث ذكره الخليل ونسب إليه مخرج الظاء والذال والثاء حيث قال : " والظاء والذال والثاء لثوية لأن مبدأها من اللِّثة ".(١) مع أن ذكره هنا في مخرج الظاء والذال والثاء غير دقيق ،فلعله يقصد أن هواء هذه الحروف يحتك باللثة من الداخل قبل أن يخرج من الشفرات التي حول اللسان.

أما بالنسبة لسيبويه ،فنجد أنه لم يذكر اللثة في أثناء تحديده لمخارج الأصوات اللغوية .

٤) اللسان :

ذكر الخليل وسيبويه اللسان في أثناء تحديدهما لمخارج أصوات لغوية كثيرة ، وقد قسما اللسان إلى عدة مناطق وهي :

أ - أقصى اللسان : ذكره الخليل عند تحديده مخرج (القاف والكاف) حيث قال : " وأما مخرج ... القاف والكاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم "(٢) وعكدة اللسان هي أصله ومستغلظه . وذلك أقصاه الذى يقابل أقصى الحنك أو اللهاة .

وقد ذكر الخليل أن الكاف أرفع من القاف (٣) ،يعني أن موضع خروجها أقرب إلى خارج الفم من القاف .

أما سيبويه فقد ذكر أقصى اللسان في أثناء تحديده لمخرج (القاف) ،حيث قال : " ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف "(٤) . وقال عن الكاف إنها تخرج "من أسفل من موضع

---

(١) انظر العين (د. درويش) ١/ ٦٥.

(٢) (العين)للخليل ١/ ٥٨ ،تحقيق د . عبدالله درويش .

(٣) نفسه ص ٦٤.

(٤) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/ ٤٣٣.

القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى ". [1] وهو معنى ما ذكره الخليل بعينه. وعلى ذلك فإن أقصى اللسان ينتهي بنهاية الثلث الداخلي من اللسان.

ب - وسط اللسان : وقد ذكره الخليل في تحديد مخرج (الجيم ،والشين ،والضاد) وهو ما عبر عنه بشجر الفم ،أي مفرج الفم ، حيث قال : " الجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم ". [2] ويقصد المنطقة التي توازي مفرج الفم من اللسان.

أما سيبويه فقد ذكر وسط اللسان في أثناء تحديده لمخرج - (الجيم والشين والياء) حيث قال : " ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء ". [3] وعلى ذلك فان وسط اللسان يشمل الثلث الأوسط من اللسان تقريبا.

جـ - مقدم اللسان : إن مقدم اللسان يشمل الثلث الأمامي من اللسان ما عدا أسلة اللسان التي هي طرفه ،ولم يذكره الخليل أو سيبويه بالاسم ،وإنما ذكرا ما يدل عليه في مخرج الراء. [4]

د - حافة اللسان : وهي حرفه المجاور للأضراس وقد ذكرها سيبويه في تحديد مخارج (الضاد ،واللام ،والنون). [5]

---

(١) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٣ .

(٢) انظر(العين) ، تحقيق د. عبدالله درويش ١/٦٥.

(٣) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٣ ،

(٤) انظر ما قيل عن مخرج (الراء) في (العين) للخليل ١/٦٥ ، وفي (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٣.

(٥) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٣.

هـ - أسلة اللسان أو طرف اللسان : ذكرها الخليل في أثناء تحديده لمخرج (الصاد ،والسين ،والزاى).(١)

أما سيبويه فقد ذكرها في أثناء تحديده لمخرج (الطاء ، والدال ،والتاء ،والزاى ،والسين ،والصاد ،والظاء ،والذال ،والثاء).(٢)

٥) الأسنان :

نجد أن الخليل لم يذكر الأسنان أو الثنايا صراحة في أثناء تحديده لمخارج الأصوات ،وإنما ذكر ما يدل عليها في مخرج بعض الأصوات ، كالصاد ،والسين ،والزاى ،والظاء ،والذال ،والثاء ،والتاء ،والفاء .

أما سيبويه فقد ذكرها في أثناء تحديده لمخرج (الطاء ، والدال ،والتاء ،والزاى ،والسين ،والصاد ،والظاء ،والذال ،والثاء ، والفاء) حيث قال : " ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء ". " ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاى ، والسين ،والصاد " ،" ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء ". ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء ".(٣)

أما بالنسبة للرّباعيات والأنياب فلم يذكراها في أثناء تحديدهما لمخارج الأصوات اللغوية .

---

(١) انظر (العين) للخليل ١ / ٦٥ .

(٢) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤ / ٤٣٣ .

(٣) انظر نفس المرجع والصفحة .

أما الأضراس - وتشمل الضواحك والطواحن والنواجذ - فقد ذكرها سيبويه في أثناء تحديده لمخرج (الضاد) حيث قال : " ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد ".(١)

أما الخليل فلم يذكر الأضراس في أثناء تحديده لمخارج الأصوات اللغوية .

٦) الشفتان :

ذكر الخليل الشفتين في أثناء تحديده لمخرج (الفاء ، والباء ، والميم) حيث قال : " وثلاثة شفوية : ف ، ب ، م ، مخرجها من بين الشفتين خاصة . لاتعمل الشفتان في شيء من الحروف الصحاح إلا في هذه الأحرف الثلاثة فقط ".(٢)

أما سيبويه فقد ذكر الشفتين في أثناء تحديده لمخرج (الفاء ، والباء ، والميم ، والواو) ، وذكر أن الفاء تخرج من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا.(٣)

أما (الباء ، والميم ، والواو) فمخرجها من بين الشفتين .(٤)

---

(١) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٣ . الخليل نظر إلى وسط اللسان وسقف الحنك مع نطق (الضاد) . أما سيبويه فلم ينظر إلى هذا ، وإنما نظر إلى خروج الهواء من جانبي اللسان .

(٢) (العين) للخليل ١/٥٧ .

(٣) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٣ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

٧) الخياشيم :

تعتبر الخياشيم عضوا من أعضاء الجهاز النطقي ،فهي تشارك في إخراج بعض الأصوات اللغوية مثل (الميم ،والنون) ،وقد ذكرها سيبويه فقال : " ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة " .(١)

أما الخليل فلم يذكرها في أثناء تحديده لمخارج الأصوات اللغوية.

وبنهاية هذا الموضوع أكون قد انتهيت من ذكر الخليل وسيبويه لأعضاء الجهاز الصوتي ،ووصفهما له.

----

(١) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٤. والصواب النون الخفية فهنا تصحيف.

الفصل الثاني : الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي
عند الجاحظ .
وإضافات في هذا المجال .

الفصل الثاني

الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي عند الجاحظ وإضافاته في هذا المجال

لقد وضحت الرؤية نوعا ما بعد الإلمام بأعضاء الجهاز الصوتي قبل الجاحظ فدراستنا لهذا الموضوع في الفصل الأول ستساعدنا كثيرا على معرفة الإضافات التي أضافها الجاحظ في هذا المجال.

وقد أتى الجاحظ بعدهم بإضافات في مجال الدراسات الصوتية وذلك من جانبين :

١ - الجانب العضوى .

٢ - في مجال الأصوات اللغوية .

ففي الجانب العضوى ذكر الجاحظ بعض أعضاء الجهاز الصوتي كالحنجرة أو الغلصمة واللسان والأسنان والأشداق والشفاه . ونوه إلى أن لسلامتها أثرا كبيرا في سلامة الأداء اللغوى بصفة عامة ، بصرف النظر عن اشتراكها في مخارج بعض الأصوات أو عدم اشتراكها . وهذه وقفة عند أعضاء الجهاز الصوتي التي تناولها الجاحظ . وأرى أن من واجبنا أن نلفت مقدما إلى ما يتميز به تناول الجاحظ لأعضاء النطق عن تناول الأصمعي وثابت من ناحية ،وعن تناول الخليل وسيبويه من ناحية أخرى. فالغالب على تناول الأصمعي وثابت أن يذكرا أعضاء الجهاز الصوتي على أنها من مكونات الفم والحلق وما إلى ذلك فحسب ، و الغالب على تناول الخليل وسيبويه أن يذكرا تلك الأعضاء من حيث مشاركتها في إخراج الأصوات وتكوينها .

أما الجاحظ فإنه يذكر تلك الأعضاء من حيث أثرها في نجاح وظيفة اللغة بأدائها على خير وجه ،أو في فشل هذه الوظيفة بسوء الأداء لخلل في الأعضاء أو في الروافد الفكرية .

أولا : كلام الجاحظ عن أعضاء الجهاز الصوتي : وأول هذه الأعضاء هي :

١) الحنجرة :

لقد سبق أن قمنا بتعريف الحنجرة في الفصل الأول ،وذلك في أثناء حديثنا عن الذين سبقوا الجاحظ في هذا المجال.(١)

والحنجرة كما نعلم هي أهم أعضاء الجهاز الصوتي ،وقد تكلم عنها الجاحظ في أكثر من موضع إلا أنه ذكرها أحيانا باسم الحنجرة وأحيانا باسم الفلصمة . حيث قال : "قال أبو العاصي : أنشدني أبو محرز خلف بن حيان ،وهو خلف الأحمر مولى الاشعريين ، في عيب التشادق :

له حَنْجرٌ رَحْبٌ وقول منقّحٌ وفَصْلُ خطابٍ ليس فيه تشادقُ" (٢)

وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد "عاب الفدّادين والمتزيدين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ،ورحب الغلاصم وهدل الشّفاه ". (٣)

فذكر الجاحظ للفلصمة يصدق أساسا على ما يسمى اليوم الحنجرة وإن كانت الفلصمة تشمل ما حول الحنجرة أيضا .

---

(١) انظر ما قيل سابقا عن الحنجرة ص ٧ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١/١٢٩ .

(٣) انظر نفس المرجع ١/١٣ .

ثم إن ربطه بين جهارة الصوت ورحابة الحنجرة أو الفلصمة يعني أمرين :

الأول : أن المعلومة التي أسلفنا معرفة العرب إياها وهي أن الصوت مصدره الحنجرة كانت حاضرة في ذهنه .

والثاني : أن هناك ارتباطا بين مدى جهارة الصوت وقوته من ناحية ، وبين مدى سعة الحنجرة أو الفلصمة من ناحية أخرى ، وهذا صحيح علميا ، لأن سعة الحنجرة يتبعها أثران :

الأثر الأول : هو ضخامة الصوت بسبب طول الأوتار الصوتية حينئذ .

الأثر الثاني : هو اكتساب الصوت رنينا وجهارة بسبب وظيفة تجويف الحنجرة هنا كصندوق رنان .

ولا بد من الإشارة إلى أن الخليل وسيبويه لم يصرحا بذكر الفلصمة أو الحنجرة في أثناء تحديدهما لأعضاء الجهاز الصوتي ، ولم يذكرا أنها عضو من أعضاء الجهاز الصوتي . أما الجاحظ فقد ذكرها ، وربط بين سعة الفلصمة وجهارة الصوت وفصاحته . ومن هنا يتضح أن الجاحظ هو أول من أشار في كلام علمي إلى أن الحنجرة عضو من أعضاء الجهاز الصوتي . وهذه إضافة لا بد أن تحسب له .

٢) الحلق :

لا شك أن الحلق من الأعضاء المهمة في الجهاز الصوتي ، فعليه تعتمد أصوات كثيرة في الخروج وهي الهمزة والألف والعين والحاء والهاء والخاء والغين.(١)

---

(١) انظر (العين) للخليل ١/٦٥ ، و (الكتاب) لسيبويه ٤/٤٣٣ .

والذى يهمنا هنا أن الجاحظ نوه بأثر جودة الحلق وسعته في قوة الصوت وجهارته حيث قال : " وقع بين فتى من النصارى وبين ابـــن فهريز المطران كلام ، فقال له الفتى : ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجهل منك ! وكان ابن فـهريز في نفسه أكثر الناس علما وأدبا ، وكان حريصا على الجثلقة ،فقال للفتى : وكيف حللت عندك هذا المحل؟ قال : لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة ،وأنت قصيـــر القامة ،ولا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الحلق ،وأنت دقيق الصـــوت ردىء الحلق . إلى آخر القصة ."(١)

فهذه القصة تمثل ما قرره الجاحظ من أثر الحلق في شدة الصوت وجهارته ،فالحلق الجيد الخالي من العيوب يكون عاملا أساسيا في شدة الصوت ،لأن الحلق يعمل كصندوق رنان يكسب الصوت تضخيما وقوة . ويعتبر شدة الصوت من الصفات التي تميز الشخص وتحسنه فـــي نظر الآخرين .

أضف إلى ذلك أن الجاحظ ذكر أن العرب حرصوا على تدريـــب صبيانهم وتعويدهم على رواية الأرجاز وتعلم المناقلات ،ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب لأن ذلك يُفتق اللّهاة ويفتح الجرم. والجرم هو الحلق .(٢)

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٢٤، ١٢٥.
الجاثليق : هو القسيس الأكبر الذى لا يقطع الأمر دونه.
والمطران : دون ذلك.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/٢٧٢.

كما ذكر قصة الخارجي الذى أُوقف لتُضرب عنقه فسمع طفلا يبكي وهم يريدون إسكاته فقال الخارجي : " دعوه يبكي فإنه أفتح لجرمه ،وأصح لبصره وأذهب لصوته ." (١)

فالتدريب على توسعة الحلق أو الجرم كانت من الأمور التي تحرص عليها العرب حتى يصبح الشخص شديد الصوت حسن المنطق .

وكثيرا ما تغنى العرب في أشعارهم بشدة الصوت ،ومدحوا بهذه الصفة خطباءهم ،حيث أورد الجاحظ قول الأعشى في وصف الخطيب بذلك :

فيهمُ الخِصْبُ والسماحة والنجـ ـدةُ جمعا والخاطبُ الصَّلاقُ (٢)

ففي كلام الجاحظ وفي القصة التي أوردها ما يؤكد معرفته لأثر سعة الحلق وقوته وسلامته في سلامة الأداء بالنسبة للأصوات وتحقيق مخارجها وبُعد مداها .

٣) الفـم :

من المعروف أن الفم هو الفتحة التي بين الفك الأعلى والأسفل والتي مدخلها ما بين الشفتين وهو التجويف الذى يدخل منه الطعام والشراب ،وتخرج منه أكثر الأصوات .

ولقد تعرض الجاحظ للفم من ناحية أخرى ،حيث أورد في كتابه البيان والتبيين أن العرب كانوا يمدحون سعة الفم ويستحسنونها ،

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٥٩ .

(٢) نفس المرجع ١/ ١٢٤ . والصلاق : الشديد الصوت .

ويذمون صغر الفم و يستقبحونها ،حيث ذكر الجاحظ قول "الأعرابي الذى سُئل عن الجمال فقال : طول القامة وضخم الهامة ،ورُحب الشدق وبعد الصوت".(١)

كما ذكر الجاحظ أبياتا دل فيها على تفضيل العرب لسعة الأشداق وهجائهم لضيق الأفواه ،وذلك كقول الشاعر :

لحىَ اللهُ أفواهَ الدَّبَى من قبيلةٍ إذا ذُكرتْ في النائباتِ أمورُها(١)

وقول الآخر :

وأفواه الدَّبَى حامَوْا قليـــلا وليس أخو الحِماية كالضَّجُـــورِ(٣)

فالشاعر هنا شبه أفواههم بأفواه الدَّبى لصغر أفواههم وضيقها . والدَّبى هو الجراد .

وفي اللسان يقال للرجل الصغير الفم فُوجُرَنٍ ،وفُودَبَى .(٤)

وسعة الفم تصدق بشيئين ،كبر حجم الفكين واتساع ما بين جانبيهما ،وفي هذه الحالة يتصف الشخص بسعة الفم ،أى سعة تجويف الفم من الداخل . وتصدق أيضا بسعة الشدقين وهما مشق الفم من الجانبين ،فإذا اتسعت فتحة الشدقين ساعد ذلك على انتشار الصوت ونصوع جرسه ، وكلاهما يوءثر تأثيرا ايجابيا في قوة الصوت وجهارته .

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٢١.

(٢) نفس المرجع ١/١٢٢.

(٣) نفس المرجع ١/١٢٢.

(٤) انظر اللسان مادة (فوه) ١٣/٥٣٨.

كما أورد الجاحظ في البيان والتبيين أنهم " كانوا يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغر الفم ".(١)

وهذا الذي قاله الجاحظ عن الربط بين جهارة الصوت وكبر الفم، وبين ضآلته وصغر الفم تصدقه الدراسات الحديثة التي تقرر أن تجويف الحلق والفراغ الأنفي والفم يعمل - بالإضافة إلى ما يعطيه من كمال نطق الأصوات - كفراغ رنان يكسب الصوت قوة وتفخيما، فبقدر سعته تكون قوة تأثيره في الجهارة والتفخيم.(٢)

ولا شك أن الفم الصغير الحجم لا يزود الصوت بالرنين الكافي الذي يجعله في السمت الطبيعي من حيث الجهارة والقوة وعمق الصدى.

ونلاحظ مما أورده الجاحظ أنه قد أضاف إلى عضو الفم إضافة جديدة لم يتطرق إليها الخليل وسيبويه من قبل، فهما لم يتعرضا للفم من حيث صغره وكبره، وإنما تكلما عن أعضاء الجهاز الصوتي الموجود فيه كاللسان، والأسنان، والشفاه ... وغيرها، وذلك عند تحديدهما لمخارج الأصوات اللغوية أو صفاتها.

ومن هنا نجد أن الجاحظ قد أضاف إضافة جيدة في مجال الأصوات اللغوية بحديثه عن سعة الفم وأثرها في قوة الصوت.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٢٠، ١٢١.
(٢) انظر مثلا دراسة الصوت اللغوى د. احمد مختار عمر ص ٨٣ - ٨٤ ط١ (عالم الكتب)، والأصوات اللغوية د. ابراهيم أنيس، ص ١٨ ط/ الرابعة ١٩٧١م - مكتبة الأنجلو المصرية.

٤) اللسان :

كما اهتم الجاحظ بالحنجرة والحلق والفم من حيث أثر قوتها وسعتها وسلامتها في كمال أداء اللغة وتحقيق وظيفتها بنجاح ، فإنه اهتم أيضا بدور اللسان كثيرا من حيث طوله وقصره وعرضه ورقته ، وأثر سلامته أو اصابته في أداء الصوت اللغوى .

فقد أورد كثيرا مما يشير إلى تنبه الأوائل إلى أهمية اللسان ومكانته في التعبير عما يجول في النفس البشرية، من ذلك أنه كان يقال : " عقل الرجل مدفون تحت لسانه ".(١)

وكثيرا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من سقطات اللسان ،وأن عدم صونه يؤدي إلى العذاب في الآخرة فقد قال : " وهل يَكِبُّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ".

كما قال الشاعر :

وجرحُ السيف تدمُله فيبرا وَيبقى الدهرَ ما جرح اللسانُ (٢)

وأورد الجاحظ أنه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لحسان ابن ثابت : " ما بقي من لسانك ؟ فأخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته . ثم قال " والله ما يسُرُني به مِقولٌ من مَعَدٍّ ،والله أن لو وضعتُه على حجر لفلقه أو على شَعَر لحلقه ".(٣)

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٧١.

(٢) نفس المرجع ١/١٦٧.

(٣) نفس المرجع ١/١٦٩.

كما أورد الجاحظ أيضا قول كعب بن جُعيل التغلبي ليزيد ابن معاوية ، حين أمره بهجاء الأنصار ، فقال له : "أرادّى أنت إلى الكفر بعد الإيمان ، لا أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه ، ولكني سأدلك على غلام في الحي ، كافر كأن لسانه لسان ثور ، يعني الأخطل ".(١)

ومن قصة حسان بن ثابت يتضح لنا أن لسان حسان بن ثابت كان طويلا من الناحية العضوية حتى ضرب به أرنبة أنفه .

وأيضا كان أبو السمط مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة وأبوه وابنه يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف آنافهم.

يفهم من كلام الجاحظ أن لطول اللسان أثرا في فصاحة النطق وفي القدرة اللغوية شعرا ونثرا .

ولا شك أن لطول اللسان وعظمه أثرا في فصاحة الأداء اللغوى ، بمعنى تميز الأصوات اللغوية التي يشترك في أدائها اللسان - وهي أكثر الأصوات - بعضها من بعض ، وبمعنى السرعة في إلقاء الألفاظ مع تميزها وسلامتها أيضا . ثم لا شك بعد ذلك أن طول اللسان بما يتيحه يشارك في اسعاف الفكر بالتعبير عما يجرى فيه إذا كان معين الفكر غزيرا والقدرة اللغوية عاليه. ومن هنا يفهم ما أراده الجاحظ من التنويه بطول اللسان في معرض الحديث عن القدرة الشعرية .

والذى نؤكده أن طول اللسان يساعد في الأداء الفصيح ويساعد في سرعة الأداء للأصوات وللكلمات ، فإذا اجتمع هذا مع الشروط الأخرى ساعد هذا مساعدة كبيرة في الشاعرية أو القدرة اللغوية ،

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٦٣ .

بدليل أن اللسان لو كان قصيرا أو ثقيلا فإنه لا يسعف الفكر بالتعبير السلس وقد يترتب على ذلك ضياع الخيط الفكرى وفقد بعض الأفكار وهذا يؤدى بدوره إلى القصور اللغوى . وقد أشار الجاحظ إلى أن لسلامة اللسان أثرا واضحا في سلامة الأداء اللغوى وأن من أثر إصابة اللسان وثقله تحدث اللثغة.(١)

كما أورد الجاحظ في كتابه "الحيوان" أن أرسطو زعم أن الطائر والسبع والبهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين وأحكى لما يلقن ولما يسمع ، كنحو الببغاء والغُداف وغراب البين وما أشبه ذلك.(٢)
أما عن رقة اللسان فقد أورد الجاحظ أن أحدا حدثه بأنه سمع أعرابيا يمدح رجلا برقة اللسان فقال : " كان والله لسانه أرق من ورقه وألين من سَرَقه ".(٣)

فرقة اللسان تؤدى إلى خفته وخفة حركته ويسرها وسرعتها وزيادة قدرته على اتخاذ الأوضاع المناسبة للأصوات المختلفة ، وهذا بدوره أيضا يؤدى إلى إخراج الكلام فصيحا واضحا ، كما يساعد ويسعف الفكر وذلك كما بيناه من قبل .

أما عن عطب اللسان وفساده وما يترتب عليه من حَصَر وعيّ وحُبْسه ولثغة . . . الخ ، فقد ذكره الجاحظ كثيرا وسنتناوله تناولا مستقلا في الباب الخاص بعيوب النطق .

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ففيها إشارات توضح ما قصدناه آنفا.

(٢) انظر الحيوان للجاحظ ٥/ ٢٨٨.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٦٩ ، والسرقة : شقائق من جيد الحرير .

٥) الأسنان :

الأسنان هي تلك الأعضاء العظمية النابته في كل من الفكين الأعلى والأسفل من فم الإنسان ،وبها يمضغ الطعام.(١)

ووظيفة الأسنان في مضغ الطعام معروفة ،والذى يهمنا هو دورها في الأصوات اللغوية ، فهي عضو من أعضاء الجهاز الصوتي ،وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن هناك أصواتا تعتمد في خروجها على الأسنان.(٢)

ولا بد من التنويه إلى أن موضوع الأسنان ومالها من أثر كبير في إظهار بعض الأصوات اللغوية قد تطرقنا إليه في أثناء الحديث عن الأصوات اللغوية قبل الجاحظ وأشرنا إلى ما ذكره الخليل وسيبويه من أن هناك أصواتا تعتمد في خروجها على الثنايا والأضراس فهما قد بحثا موضوع الأسنان من هذه الناحية فقط .

أما الجاحظ فقد بين أن لتمام الأسنان وسلامتها أثرا في سلامة اللفظ ، فإذا تمت الأسنان تمت الأصوات ،وإذا نقصت تأثر الأداء اللغوى بمقدار ذلك النقص .

فالجاحظ ذكر ما روى عن يونس من أن المراد بقول الأحنف :

أتمتني فلم تُنقص عظامي ولا صوتي اذا جَدَّ الخصومُ (٣)

---

(١) لم يرد في لسان العرب تعريف عن الأسنان وإنما ورد قوله السن : واحدة الأسنان . وقال ابن سيده : السن الضرس ، أنثى ،ثم بعد ذلك قام بسرد المعاني اللغوية الأخرى.

(٢) انظر ما سبق ص ٢٦ من هذه الرسالة .

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٥٩.

هو تمام أسنانه وعدم نقص نبتتها مما نتج عنه فصاحته وحسن أدائه حتى وصف بأنه (أبين العرب والعجم قاطبة).(١)

فالملاحظ هنا كما أشار إلى ذلك يونس بن حبيب أن لسلامة الأسنان أثرا في سلامة اللفظ فإذا تمت الأسنان تمت الأصوات، وإذا نقصت نقصت الأصوات.(٢)

وقد أورد الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أن (زيد بن علي ابن الحسين) كان حسن المخرج وأن نطقه خالٍ من الصفير.

وأورد قول (عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر) أن سلامة لفظ زيد هي من أثر سلامة أسنانه فقال في كلمة له واصفا أسنانه:

قلت قوادحُها وتمَّ عديدُها ... فله بذاك مزية لا تنكر(٣)

ولقد عرف العرب الأوائل أن سلامة النطق هي من أثر سلامة الأسنان ومن ذلك قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزع ثنيتي سهيل بن عمرو الخطيب فقد قال عمر: يا رسول الله انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا.(٤) وإنما قال ذلك لأن سهيلا كان (أفلح) أى

----

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٦٠

(٢) انظر المرجع نفسه ١/٥٩.

(٣) والقادح: هو أكال يقع في الأسنان.

(٤) في الإصابة قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم: دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقوم علينا خطيبا. فقال الرسول: دعها فلعلها أن تسرك يوما. فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم قام سهيل فقال لهم: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله، فالله حي لا يموت.

انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، القسم الثالث ص ٢١٣. تحقيق علي محمد البجاوى، دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة.

مشقوق الشفة السفلى .(١)

وذكر الجاحظ قول سهل بن هارون : " لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه ".(٢)

كما أورد الجاحظ أيضا في كتابه البيان والتبيين سؤال أبي الحسن المدائني : لمبارك الزنجي الفاشكار عن السبب الذى تنزع من أجله الزنج ثناياهم ؟ ولِمَ يُحدّد ناس منهم أسنانهم ؟ فقال: أما أصحاب التحديد فللقتال والنهش ولأنهم يأكلون لحوم الناس . وأما الذين ينزعون ثناياهم فإنهم قالوا : نظرنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهنا أن تشبه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم .

ويرى بذلك أنهم فقدوا الكثير من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا . هذا بالنسبة لنزع الثنايا وما له من أثر سيء في النطق .

---

(١) الذى ورد في البيان والتبيين للجاحظ عبارة : (كان أعلم من شفته السفلى) ولعله تحريف ارتكبه النساخ ، لأن أهل اللغة يجمعون على أن (العلم) أو (العلمة) : هي شق في الشفة العليا ولا يمكن أن يخفى ذلك على الجاحظ ، وقد ذكر ذلك في الحيوان في الكلام عن الجمل ، ثم ان الفلح هو : شق في الشفة السفلى ، فإذا اجتمع مع نزع الثنايا السفلى بقي اللسان بلا حاجز سفلي من الأسنان أو الشفتين ، فيبرز ممتدا إذا لم يجد حاجزا . وهذا هو معنى قول عمر رضي الله عنه (حتى يدلع لسانه) ، لأن دلوع اللسان هو خروجه . هذا وتحقيق الأمر بالنسبة لسهيل بن عمرو رضي الله عنه أنه كان أفلح لا أعلم . جاء ذلك في قول أحدهم لسهيل بن عمرو : " لولا شيء يسوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لضربت فلحتك ، أى موضع الفلح وهو الشق في الشفة السفلى ". انظر لسان العرب مادة (فلح) ٥٤٨/٢ .

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٥٨/١ .

ثم بعد ذلك فصّل الجاحظ الأمر بالنسبة لسقوط كل الأسنان أو بعضها ، فقرر أن سقوط كل الأسنان أقل ضررا لسلامة النطق من سقوط بعضها دون بعض ،فإنه يفسد البيان .

وقد ذكر الجاحظ ما قاله (محمد بن عمرو الرومي) : " من أنه قد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها ،وخالف أحد شطريها الشطر الآخر ".(١) وهذا واضح لأن سقوط شطر دون شطر يخل بانتظام حاجز الفك الأسفل المحيط باللسان ،وسقوط الجميع يجعل ذلك الحاجز منتظما مما يساعد على سلامة النطق .

ثم قال الجاحظ : " وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقطت جميع أسنانهم ،وبعد أن بقي منها الثلث أو الربع ".(٢)

فممن سقطت جميع أسنانه وكان معنى كلامه مفهوما : الوليد بن هشام القحذمي (٣) صاحب الأخبار .

ومنهم أبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبي وكان ذا بيان ولسن .(٤)

----

(١) انظر البيان والتبيين ١ / ٦١ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) هو الوليد بن هشام بن قحذم ،أبو عبد الرحمن القحذمي ،من أهل البصرة /كان يروى عن جرير بن عثمان ،وروى عنه أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي . توفى سنة ٢٢٢ . انظر ما ذكره محقق البيان والتبيين ،د. عبد السلام هارون عنه ١ / ٦١ .

(٤) انظر البيان والتبيين ١ / ٦١ .

كما ذكر الجاحظ أن (سفيان بن الأبرد الكلبي) (١) كان كثيرا ما يجمع بين الحار والقار ، حتى تساقطت جميع أسنانه ، وكان في ذلك كله خطيبا بيّنا.

وذكر أيضا أن (عبيدالله بن أبي غسان) أصيب بما برد أسنانه بحيث كانت لا ترى إلا لمن يتطلع في لثته أو في أصول منابت الأسنان ، ولكنه كان يحاول أن يستعيض عن قصر أسنانه بخفة تصريف لسانه. (٢)

كما نوه الجاحظ إلى أن السقوط يكون مفسدا للبيان إذا كان في اللحم الذى فيه مغارز الأسنان تشميرٌ وقِصر سَمك (٣) ، ففي هذه الحالة تذهب الحروف ويفسد البيان ، وأخيرا نوه الجاحظ إلى أثر سوء نبتة الأسنان وسوء انتظامها في أداء الأصوات ، مما ينتج عنه فساد النطق وعدم الوضوح . ومن الفساد في نبتة الأسنان : الشَّفا والروق والفقم.

أما الشَّفا : " فهو اختلاف الأسنان ، وقيل : اختلاف نِبْتَة الأسنان بالطول والقِصَر والدخول والخروج . والسِّنُّ الشاغيةُ : هي الزائدة على الأسنان وهي المخالفة لنبتة غيرها من الأسنان.

قال ابن برى : الشَّفا اختلاف نبتة الأسنان ، وليس الزيادة كما ذكره الجوهرى . وقيل : هو خروج الثنيتين .

----

(١) وهو أحد قواد بني أمية . كان ذا ضلع كبير في حرب الخوارج ، وهو آخر من أرسل الى قطرى بن الفجاءة وقتله . انظر ترجمة محقق البيان والتبيين له ١/ ٦١ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٦١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

ورجل أشفى ،وامرأة شفواء ".(١)

إذاً فاختلاف الأسنان وعدم انتظامها من العيوب التي تؤثر على خروج الأصوات اللغوية بصورة سليمة.

أما الرَّوَق : " فهو طول وانثناء في الأسنان ،وقيل: الرَّوَق طول الأسنان واشراف العليا على السفلى ،رَوِقَ يَرْوَقُ رَوَقا فهو أَرْوَقُ إذا طالت أسنانه.

والرُّوق : الطوال الأسنان ، وهو جمع الأَرْوَق ".(٢)

فالملاحظ أن طول الأسنان وانثناءها ،أو اشراف الأسنان العليا على السفلى مما يمنع الإنسان المصاب به من أن ينطق الأصوات اللغوية بصورة سليمة ،لأن وضعها غير المنتظم يؤثر على خروج الأصوات اللغوية خروجا صحيحا ،كما هو الحال عند الإنسان السليم.

أما الفَقَم : " فهو أن تدخل الأسنان العليا إلى الفم أى أنه عكس الوضع الشائع في جمهور الناس ،وقيل في عبارة أخرى : الفقم وهو أن يخرج أسفل اللحي ويدخل أعلاه ،فَقِم فَقَماً وهو أفقم، ثم كثُر حتى صار كل معوج أفقم.

وقيل في تعبير ثالث : الفقم في الفم أن تتقدم الثنايا السفلى فلا تقع عليها العليا إذا ضم الرجل فاه . ويقال للرجل إذا أخذ بلحية صاحبه وذقنه : أخذ بفُقْمه ".(٣) وهذا كله يعني شيئا واحدا هو

---

(١) انظر لسان العرب مادة (شفا)١٤/ ٤٣٥.

(٢) انظر لسان العرب مادة (روق)١٠/ ١٣٥.

(٣) انظر لسان العرب مادة (فقم)١٢/ ٤٥٧.

أن تقع أسنان مقدم الفك الأعلى -عند اطباق الفم- إلى الداخل وراء أسنان مقدم الفك الأسفل ، أى تكون هذه الأخيرة هي الظاهرة . فالإنسان المصاب بالقم لا يحسن نطق الأصوات اللغوية التي تعتمد في خروجها على توازى الثنايا العليا بالثنايا السفلى ،وذلك مثل حرف (السين ،والصاد ،والزاى) لأن ثناياه العليا لا تقع على ثناياه السفلى حتى ولو ضم فاه ،لذلك نجد أن الأصوات اللغوية الصادرة منه تكون غير سليمة .

٦) الأشداق :

الشدق كما جاء في اللسان هو جانب الفم. وقال ابن سيده :إن الشِّدْقين طِفْطِفَة(١) الفم من باطن الخَدَّين. وشفة شدقاء : واسعةُ مُشَقِّ الشِّدْقَيْنِ .

والأشدق : العريض الشدق الواسعُ المائلُه .

والشَّدَق بالتحريك : سَعة الشِّدْق.(٢)

فالشدق من الأعضاء التي لم يتطرق لها الخليل وسيبويه بالدراسة في أثناء تعرضهما لأعضاء الجهاز الصوتي .

أما بالنسبة للأصمعي وثابت ،فالملاحظ أنهما قد ذكرا الأشداق وعرفاها . قال الأصمعي :

" وفي الفمِ الشَّدَقُ وهو سعةُ الشدقين يقال للرجل إذا كان كذلك رجلٌ أشْدَق وامرأةٌ شدقاء . والشِّدْقُ : مشق الفم مما يلي اللحية وليس بمقدم

---

(١) والطفطفة هي : كل لحم أو جلد .

(٢) هناك تعريفات أخرى وردت في اللسان عن الشدق . انظر مادة (شدق)١٠/ ١٧٢-١٧٣ .

الفم وهو ما بين باطن اللِّحية إلى الأضراس ".(١)

وقال ثابت بن أبي ثابت : " وفي الفم الشَّدَقُ ،وهو سَعَةُ الشِّدْقَيْن ، يقال رَجُل : أَشْدَق ،وامرأة شَدْقاء . والشِّدْق -بكسر الشين - مُنْشَق الفم مما يلي اللِّحية ".(٢)

أما بالنسبة للجاحظ فقد لاحظ ملاحظة مهمة وهي أن سعة الأشداق لها دور بارز في جهارة الصوت وفصاحته (٣) . فهو لم يذكر الأشداق على أنها عضو من أعضاء الجهاز الصوتي ،وإنما ذكرها على أساس أنها من المؤثرات في جهارة الصوت وفصاحته . وهذه إضافة لا بد أن تحسب له. ولقد أورد الجاحظ في كتابه أن الرسول صلى الله عليه وسلم " قد عاب الفَدَّادين ،والمتزيدين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ".(٤)

فالواضح أن سعة الأشداق كانت من الصفات المستحسنة بحيث ينتحلها بعض الناس ،بمعنى أنهم يتكلفون الاتصاف بها.

كما أورد الجاحظ في كتابه قول الأعرابي : حينما سُئل عن الجمال فقال : " طول القامة وضِخم الهامة ،ورُحب الشدق وبُعد الصوت ".(٥)

----

(١) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٥ .

(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٦٠.

(٣) انظر ما قيل سابقا ص ٣٥.

(٤) انظر كتاب (البيان والتبيين) ١٣/١ .

(٥) انظر المرجع نفسه ١٢١/١.

وواضح أن هذا في جمال الرجال خاصة . والذى يؤكد أن العرب كانوا يعتبرون سعة الأشداق من الصفات الجمالية للرجال ، هو ما ورد من أن الأصمعي قال لأعرابي : ما الجمال فقال : " غؤور العينين وإشراف الحاجبين ورُحب الشدقين ".(١)

كما قال ابن قتيبة إن العرب كانوا يَمْدَحُونَ برُحب الشدقين ومنه قول : هند بن أبي هالة في وصف منطق الرسول صلى الله عليه وسلم : بأنه كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه وذلك لرحب شِدْقيهِ. ويقال للرجل إذا كان كذلك أشدق(٢) بيِّن الشَّدَق .

قال الجاحظ : " ويدُّلك على تفضيلهم سعة الأشداق ، وهجائهم ضيق الأفواه ، قول الشاعر :

لحى اللهُ أفواه الدَّبى من قبيلةٍ ... إذا ذُكرت في النائبات أمورُها(٣)

وقال آخر :

وأفواه الدَّبى حامَوْا قليـــلا ... وليس أخو الحِماية كالضَّجُورِ(٤)

وقد ذكر الجاحظ أنهم قد شبهوا أفواههم بأفواه الدَّبى لصغر أفواههم وضيقها . وقد ذكر ابن قتيبة أن الضبي قال : أنشدناهُ أبو سعيد وفسرهُ قوله:(٥)

أكان كَرّي وإقدامي لِفي جُرَذٍ ... بين العَواسج أحْنى حوله المُصَعُ

---

(١) لقد ورد هذا القول في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ١/ ١٢١.

(٢) انظر كتاب غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٤٩٣. تحقيق د. عبد الله الجبورى ط/ ١

(٣) انظر البيان والتبيين ١/ ١٢٢.

(٤) نفس المرجع والصفحة . والدَّبى هو : الجراد قبل أن يطير ، وقيل : قبل أن تنبت أجنحته .

(٥) انظر كتاب غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٤٩٢. والعَوْسَج : شجر من شجر الشوك ، وله ثمر أحمر مدور (انظر اللسان مادة عسج ص ٣٢٤) . والمُصَعُ : حَمْلُ العوسج وثمره ، وهو أحمر يؤكل . انظر اللسان مادة مصع ص ٣٣٩.

قال : هذا رجل لقبه بغي جُرز لضيق فمه .

والذي لا شك فيه ،أن لسلامة الأشداق أثرا في سلامة اللفظ ووضوحه وبيانه .

ومن العيوب التي ذكرها الجاحظ في الأشداق : مَيَل الشدقين ،وفي (خلق الإنسان) للأصمعي و (البيان والتبيين) للجاحظ وفي (لسان العرب) ما يفهم منه أن ذلك المَيَل يسمى ضَجَما . والضَّجَم كما جاء في اللسان هو : " العوج . وقيل أن الضجم: عوج في الفم ومَيَل في الشدق ،وقد يكون عوجا في الشفة والذقن والعنق إلى أحد شقيه. والمتضاجم : المعوج الفم ".(١)

قال الأصمعي : " الضجم وهو مَيَلٌ في الفم فيما يليه من الوجه يقال : رجلٌ أضجمُ ،وامرأة ضجماءُ ".(٢)

ولقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين إلى أن الأحنف بن قيس كان أشدق مائل الذقن ،ومع ذلك كان أخطب العرب .(٣)
ومن هنا نلاحظ أن ميل الأشداق قد يمكن التغلب عليه وذلك كما حصل مع الأحنف بن قيس .

٧) الشفاه :

أسلفنا أن الخليل وسيبويه قد ذكرا الشفاه في معرض حديثهما عن الأصوات اللغوية ،حيث ذكرا أن هناك أصواتا لغوية تخرج من الشفتين .(٤)

---

(١) انظر لسان العرب مادة (ضجم)١٢/ ٣٥٢ . وهناك تعريفات أخرى وردت في اللسان .

(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) انظر ما سبق ص ٢٧ .

أما الجاحظ فقد تعرض للشفاه من ناحية غير الناحية التي تعرض لها الخليل وسيبويه ، فهو قد ذكر أن هَدَل الشفاه من المؤثرات في جهارة الصوت وفصاحته حيث قال : " وعاب (ويقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) الفدّادين والمتزيدين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ورحب الفلاصم وهَدَل الشفاه ".(١) فَهَدَل الشفاه من المؤثرات في جهارة الصوت وفصاحته ،ولا شك أن لسلامة الشفاه أثرا في سلامة نطق بعض الأصوات .

والمعروف أن هناك أصواتا لغوية تعتمد في خروجها على الشفتين (كالباء ،والميم ، والفاء ،والواو) . فإذا كانت الشفتان سليمتين من العطب فإن الأصوات اللغوية تسلم من فساد النطق بها .

ومن الآفات التي تصيب الشفاه وقد ذكرها الجاحظ : الفَلَح والعَلَم .

والفَلَح كما جاء في اللسان هو : شق في الشفة السفلى ،واسم ذلك الشق الفلحة. وقيل : هو تشقق في الشفة ،وضخم واسترخاء كما يصيب شفاه الزنج .
وفي الحديث ،قال رجل لسهيل بن عمرو : لولا شيء يسوء رسول الله صلى الله عليه وسلم لضربت فَلَحتك . أي موضع الفلح وهو الشق في الشفة السفلى" (٢) . ونحن نعرف أن الشفة السفلى لها دور رئيسي في نطق بعض الأصوات اللغوية (كالباء ،والميم ،والفاء ،والواو) ، فهي التي تقوم بحبس النفس بالتقائها مع الشفة العليا عند النطق بحرف (الباء) ، وهي التي تقوم بالدور الرئيسي في انطباق الشفتين

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٣.

(٢) انظر اللسان مادة (فلح) ٢/٥٤٨.

في الأصوات التي تتطلب ذلك (كالميم) . وهي التي تقوم بالدور الرئيسي في نطق الفاء حيث يلتقي باطنها بأطراف الثنايا العليا ،وفي نطق الواو حيث تستدير فتكمل مع استدارة الشفة العليا استدارة الشفتين .

وإنما قلنا بأنها التي تقوم بالدور الرئيسي لأنها هي طبق الفك الأسفل من الفم ،والفك الأسفل هو الذى يتحرك وله امكانية الحركة ليلتقي مع الفك الأعلى أو يقترب منه ،من أجل إخراج الأصوات بينهما . والفك الأعلى ثابت وحركة الشفة فيه موضعيه تتمثل في الانقباض والانبساط .

أما بالنسبة للعَلَم فقد جاء في اللسان "أن العَلَمَ والعَلَمة والعُلْمة: الشَّقُّ في الشفة العليا ،وقيل في أحد جانبيها ،وقيل : هو أن تنشقَّ فتَبين .

ويقال للبعير أعْلَمُ لِعَلَم في مِشْفَره الأعلى "(١).

وقد أشار الجاحظ للعُلْمة مرتين (٢).

فإشارة الجاحظ هذه عن العلم دلت على علمه بأثر هذه الآفة في سلامة نطق الأصوات اللغوية .

والشفة العليا ليس لها دور في حبس النفس إلا التقاؤها مع الشفة السفلى في ذلك.

وعلى هذا فالأصوات التي تتأثر بالعُلْمه هي الأصوات التي لا تتم إلا بالتقاء الشفتين وهي الباء والميم ،أواستدارتها وهي الواو وما إليها ، على أساس أن شق الشفة العليا يوءثر في احكام استدارة الشفتين والتقائهما.

----

(١) انظر اللسان مادة (علم)١٢/ ٤١٩ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٥٨ ، ٣١٧ على التوالي .

ثانيا : ما أضافه الجاحظ في مجال الكلام عن أعضاء الجهاز الصوتي

أ : بيان أثر حالة أعضاء الجهاز الصوتي في الأداء اللغوى وتحقيق وظيفة اللغة .

لقد سبق لنا الحديث عما ذكره الجاحظ عن أعضاء الجهاز الصوتي ، فعرفنا أن تناوله للأعضاء لم يكن كتناول الأئمة السابقين عليه ،حيث نجده قد تطرق لموضوع أعضاء الجهاز الصوتي من ناحية أخرى ،فقد بحث في أثر حالة الأعضاء ودقتها في تحقيق وظائف اللغة ،فكانت دراسته للأعضاء من حيث أثر سلامتها وتمامها وحجمها وقوتها في أدائها لوظيفة اللغة ،وأثر عطبها ونقصها في نقص الحروف وتكميل البيان . فهو قد لحظ وظائف أعضاء الجهاز الصوتي في استعمال اللغة ،فلذلك كان تناوله مختلفا عن سابقيه ، ولعله قد اكتفى بما ذكروه من الوصف العضوى لأعضاء الجهاز الصوتي في معرض حديثهم عن الأعضاء في كتب (خلق الإنسان) ،الأمر الذى جعله يكمل ما بدأوه من دراسات عن أعضاء الجهاز الصوتي من ناحية التوظيف . فنجده قد أخذ يلاحق صور استعمال اللغة في وظائفها في الحياة العامة من أحاديث وخطب وشعر وروايات ،وما إلى ذلك ملاحظا في نفس الوقت أثر حالة أعضاء النطق واحدا واحدا : الحنجرة ، والحلق ، والفم ،واللسان ،والأسنان ، والشفتين من حيث سلامتها وكمال حالها ،وأثر ذلك في أداء اللغة . ومن هنا كانت إضافته للدراسات الصوتية في هذا الجانب وهي إدخال هذا البعد الجديد من أبعاد الدراسة الصوتية - وهو الأثر الوظيفي لحالة أعضاء جهاز النطق الإنساني - ضمن مجال هذه الدراسات . وقد سبق تفصيل كلامه عن هذا الأثر.

ب : بيان مرونة أعضاء الجهاز الصوتي متمثلة في القدرة على المحاكاة :

لقد ذكر الجاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان المنطق والقدرة على التعبير . كما منح البعض الاستطاعة والتمكين في تقليد الأصوات ومحاكاتها .(١)

وقد ذكر أن هناك أناسا يستطيعون أن يحاكوا الناس في كلامهم وحركاتهم ويفعلوا مثلهم في الحديث دون أن يتركوا شيئا بدون تقليد .

ولقد تجلى هذا الأمر في قوله : " إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئا . وكذلك تكون حكايته للخُراساني والأهوازى والزِّنجي والسندى والأحباشي وغير ذلك. نعم حتى تجده كأنه أَطْبَع منهم ، فإذا ماحكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمعت كلُّ طُرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد . وتجده يحكى الأعمى بصورٍ ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه ، لا تكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله ،فكأنه جمع جميع طُرَف حركات العُميان في أعمى واحد ".(٢)

فقدرة بعض الناس ومرونة أعضائهم من حيث أداء أى صوت وتقليده هي التي جعلتهم يصورون أو يقلدون الفأفائين أو العميان.

فالحاكي يصور ويقلد كل الفأفائين ويصورها في مرة واحدة .

ومن الناس الذين منحهم الله هذه القدرة والاستطاعة (أبو دَبُّوية الزّنجي) مولى آل زياد ،حيث ذكر الجاحظ أنه كان ينهق ،فلا يبقى

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٧٠.
(٢) نفس المرجع ١/ ٦٩.

حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق .

وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دَبُّوبه يحركه ، وقد كان جَمَعَ جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد . وكذلك كان في نباح الكلاب".(١)

كذلك ذكر الجاحظ : " زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير ،لأنه يصور بيديه كل صورة ويحكى بفمه كل حكاية ."(٢) وهذه القدرة والموهبة لا تكون في كل الناس، وإنما في بعضهم ممن منحهم الله الاستطاعة والتمكين .

فمن هنا نلاحظ أن هذه إضافة جديدة تحسب للجاحظ خاصة بالجانب العضوى بالنسبة للجهاز الصوتي .

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٠٧٠

(٢) نفس المرجع والصفحة .

جـ : بيان أثر التدريب في تحسين أداء أعضاء الجهاز الصوتي :

هناك إضافة ثالثة للجاحظ في هذا المجال وهي تنويهه بأثر التدريب في طلاقة اللسان وإمكانات أعضاء النطق .

فالتدريب أمر لا بد منه بالنسبة لمن يريد أن يُعَوِّد لسانه على الطلاقة ويُمكِّن أعضاءه من النطق السليم الواضح .

ولقد تنبه الجاحظ إلى أن التدريب أمر ضروري . فذكر أن طول التدريب واستعمال التكلف يذلل الجوارح ويعودها على أن تنطق بصورة سليمة. فالإنسان إذا حاول وجهد نفسه واشتد طلبه لذلك الأمر ،فلا بد من أن تطاوعه جوارحه فيما يريد ،لأن الاستمرار على أمر معين لا بد من أن تكون له نتيجة مرضيه.(١)

كما ذكر الجاحظ أن الإنسان الذي يترك "شمائله على حالها ولسانه على سجيته ، كان مقصورا بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه ".(٢) أي أنه إذا ترك التدريب فإن أصواته اللغوية وطريقة نطقه ستظل على ما كانت عليه حين نشأ في بيئته ،لا تتحسن.

ولقد أشار الجاحظ إلى أن هذه القضية "مقصورة على مخارج الألفاظ ،وصور الحركات والسكون . أما حروف الكلام فإن حكمها خلاف هذا الحكم."(٣)

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٧٠.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) نفس المرجع والصفحة.

كما ذكر بأن العرب قد لاحظوا أثر التدريب في الإنسان وأهميته ، وتنبهوا إليه ، لذلك كانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ،ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب ، لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم". (١)

كما ذكر أيضا أن اللسان إذا أكثرت تقليبه رقّ ولان ، واذا أقللت تقليبه وأطلت إسكانه جسأ وغلظ. (٢)

فلا شك أن طول إسكان اللسان وعدم تحريكه يسبب صعوبة في تدريبه وتطويعه ، فلا يقتصر الضرر على صعوبة التدريب فقط ، وإنما قد يسبب ثقلا في الكلام وعدم إبانة ،وذلك كما حصل (ليزيد بن جابر) قاضي الأزارقة " الذى كان يقال له الصَّموت ، لأنه لما طال صمته ثقل عليه الكلام فكان لسانه يلتوى ولا يكاد يُبين". (٣)

قال الجاحظ : " واخبرني محمد بن الجهم أن مثل ذلك اعتراه أيام محاربة الزطّ ،من طول التّفكّر ولزوم الصمت". (٤)

----

(١) انظر البيان والتبيين ٢٧٢/١.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع ٣٨/١.

(٤) نفس المرجع ٣٨/١.

الباب الثاني

الكلام عن الأصوات اللغوية قبل الجاحظ وعنده

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الاول : الكلام عن الأصوات اللغوية قبل الجاحظ .

الفصل الثاني : الكلام عن الأصوات اللغوية عند الجاحظ .

الفصل الثالث : إضافات الجاحظ في مجال دراسة الأصوات اللغوية .

الفصل الاول : الكلام عن الأصوات اللغوية قبل الجاحظ .

الفصــل الأول

الكلام عن الأصوات اللغوية قبل الجاحــــــظ

دراسة الأصوات اللغوية مفردة :

بعد الحديث عن الجانب العضوى الخاص بأعضاء الجهاز الصوتي ، سوف أتحدث الآن عن الجانب الآخر ، وهو جانب دراسة الأصـــوات اللغوية مفردة من حيث مخارجها وصفاتها ، ومنتظمة من حيث ما يطـرأ عليها بعد التركيب من تغيرات . ومن المهم أن نعرض ما كانت عليــه دراسة الأصوات اللغوية قبل الجاحظ ممثلة في ما كتبه الخليل وسيبويه - إذ ليس لغيرهما (١) إضافات جوهرية في هذا الجانب - حتى نستطيع أن نتبين ما أضافه الجاحظ في هذا المجال .

----

(١) إضافات الذين جاءوا بعد الخليل وسيبويه من علماء اللغة في مجال الأصوات محدودة جدا ، وبخاصة في مجال الدراســة الإفرادية للأصوات - بحيث يمكن إجمالها في سطور .

أ - فمثلا سنرى أن الخليل وسيبويه قد عدُّوا المخارج ستة عشــر مخرجا ، بينما رأى الفراء (٢٠٧)هـ ، وقطرب (٢٠٦)هـ ، والجرمى (٢٢٥) هـ ، أن المخارج أربعة عشر " ومحل الخلاف هو مخرج اللام والنون والراء . فمذهب هؤلاء أنه مخرج واحد ، ومذهب الجمهور أنها ثلاثة مخارج - وهــو الصحيح لتباينهـــا عند الاعتبار " (ارتشاف الضرب لأبي حيان . تحقيق د . مصطفى النماس ١/٤٠٥) .

ب - في كتاب الحدود للفراء حدٌّ للهجاء ، وللهمز (انظر أبو زكريا الفراء د . أحمد مكي الأنصارى ١٧٧) وهما من موضوعات الدراســة الإفرادية للأصوات .

===

. . . .

---------- ----------

===

جـ - لقطرب كتاب في "الهمز" وفي "معاني القرآن" (ينظر الفهرست ٧٨، وبغية الوعاة ١/٢٤٢، ووفيات الأعيان ٤/٣١٢). وكتب "الهمز" و "معاني القرآن" المتاحة فيها منثورات من الدراسة الصوتية الافرادية بالإضافة إلى ما فيها من دراسة الأصوات المنتظمة في كلمات، وستأتي الإشارة إليها.

د - أبو الحسن الأخفش (الأوسط ٢١٥) هـ خالف سيبويه في ترتيب مخارج الهمزة والهاء والألف، حيث جعلهن سيبويه في مرتبة واحدة، بينما رأى الأخفش أن الهمزة أول، والهاء والألف على رتبة واحدة (أي بعد الهمزة) (انظر ارتشاف الضرب ١/٥). كما أن كتاب الأخفش "معاني القرآن" زاخر بالملاحظات والمقررات الصوتية الافرادية، مثلا كلامه عن أكثر من عشرين صوتا من الأبجدية (انظر معاني القرآن للأخفش - تحقيق فائز فارس ٢/٦٠٥ فهرس الأصوات) وعن حروف الحلق (١/٥)، وحروف الثنايا (١/١٠٧)، وعن تقارب المخارج (١/١٠٦، ١٥٣، ٣٤٣) وهناك المزيد من الملاحظ والمقررات (ينظر فهرس الأصوات في معاني القرآن للأخفش) ولكن نسبة الجديد فيها محدودة.

أولا : منهج الوصول إلى الحقائق الصوتية :

أول ما ينبغي تسجيله من الجهود الصوتية التي سبقت الجاحظ هو المنهج الذى وضعه الخليل وجعله سبيلا إلى الوصول إلى الحقائق والمعلومات عن أصوات اللغة ، وذلك المنهج هو تذوق الحرف (الصوت) أى تجربة نطقه ، ثم استخلاص الحقائق والمعلومات عن الصوت من ذلك الذوق . وقد حكى الليث تلميذ الخليل عن استاذه ذلك المنهج فقال :

" وإنما كان ذواقه إياها (يعني الحروف : الأصوات) أنه كان يفتح فاه بالألف ، ثم يُظْهر الحرف (المراد ذوقه) نحو : أَبْ ، أَتْ ، أَعْ ، أَغْ ... فوجد العين أدخل الحروف في الحلق (١) ، فجعلها أول الكتاب [يعني معجم العين] ، ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم ".(٢)

وقد كُتب لهذا المنهج البقاء حيث أقره علماء اللغة (٣) إلى أن جاء العصر الحديث بالمناهج الحديثة .

ثانيا : مخارج الأصوات اللغوية :

حدد الخليل وسيبويه مخارج الأصوات اللغوية مبتدئين بالحلق فذكرا :

١) - الأصوات الحلقية : الهمزة والهاء والألف والعين والحاء والغين والخاء (٤) ، حيث قسما الأصوات الحلقية إلى

---

(١) انظر التعليق في ذلك ص ٢١ من رسالتنا هذه .
(٢) كتاب (العين) تحقيق د . عبدالله درويش ١ / ٥٢ .
(٣) ينظر مثلا سر صناعة الاعراب لابن جني ١ / ٥٠ ، ٥١ في المتن والهامش .
(٤) انظر العين ت : د . درويش ١ / ٦٤ ، والكتاب لسيبويه ٤ / ٤٣٣ .

ثلاثة أقسام :

أ - ما هو من أقصى الحلق وهو الهمزة والهاء والألف .

ب- وما هو من وسطه وهو العين والحاء .

جـ - وما هو من أعلاه الذى هو أدناه إلى الفم وهو الغين والخاء .

وقد صرح سيبويه بذلك التقسيم في كتابه ،أما الخليل فلم يصرح بذلك.

٢) - صوت القاف والكاف : وقد اتفقا على أن مخرجهما واحد ،فالخليل قال عنهما لهويتان ،وأن الكاف أرفع من القاف.(١)

أما سيبويه فقال عن القاف : " إنها من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى أما الكاف فمن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا وما يليه من الحنك الأعلى ".(٢) والخلاف بينهما في العبارة لفظي لأن أقصى الحنك الذى يشترك مع أقصى اللسان في إخراج القاف هو اللَّهاة أو مبدأ اللَّهاة قبيل الجزء الرخو منها .

----

(١) انظر العين ت د. درويش ١/ ٦٤ ، ويقصد بقوله : أن الكاف أرفع من القاف أنها داخلة في اللسان إلى الأمام بعد القاف. أى أن اللسان فيها يقابل الحنك في نقطة أرفع أو أعلى من نقطة تقابلهما في نطق القاف .

(٢) انظر الكتاب ٤/ ٤٣٣ .

٣) - صوت (الجيم والشين والياء) : فقد ذكرا أنها تخرج من بين وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى ،وعبر الخليل عن ذلك بشجر الفم.(١) وقال عن (الياء) إنها هوائية .

٤) - أما عن مخرج (الضاد) فقد اجتزأ الخليل بالقول بأنها شجرية ،أما سيبويه فقد كانت عبارته : " ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد(٢)." والواقع أن كلا منهما نظر إلى جانب خاص في مخرج الضاد ، فالخليل نظر إلى ارتفاع اللسان معها إلى الحنك ثم مفارقته ذلك الموضع عند النطق بها . أما سيبويه فنظر إلى جريان النفس في جانب اللسان من أوله حتى يخرج من الشفتين ،ولسيبويه بعد ذلك كلام مطول في نطق ما سماه بالضاد الضعيفة.(٣)

---

(١) انظر العين ت.د. درويش ١/ ٦٤ ،والكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٣) انظر الكتاب ٤/ ٤٣٣ ، قال سيبويه عن الضاد الضعيفة :" أنها تُتكلف من الجانب الأيمن ، فان شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف ،لأنها من حافة اللسان مطبقة ، لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه. وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين . وهي أخف لأنها من حافة اللسان ،وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها ، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان ، فسهل تحويلها إلى الأيسر لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن ، ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان ،كما كانت كذلك في الأيمن".

٥) - أما بالنسبة لمجموعة (اللام والراء والنون) ،فقد قال عنهن الخليل إنهن ذلقيات يخرجن من ذلق اللسان وهو تحديد طرفه.(١)

أما سيبويه فلم يذكر مخرج اللام ،ولعله سقط من بعض النسخ التي اعتمدتها النسخ المطبوعة ،وقال عن الراء والنون انهن يخرجن من "حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا مُخرج النون . ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء".(٢)

أى أن هذه الأصوات الثلاثة تخرج بوضع طرف اللسان على أعلى لثة الثنايا العليا إلا أنه مع اللام يخرج النفس من جانبي اللسان ،ومع الراء يخرج من فوق ظهر اللسان عندما يفارق طرفه موضعه. ومع النون يخرج النفس من الأنف.

وكلام سيبويه في الراء والنون وصف دقيق وقد ذكر في موضع آخر أن النون/ الخفية يعتمد لها في الخياشيم.(٣)

٦) - مجموعة (الطاء ،والدال ،والتاء) ،فقد عبر سيبويه عن مخرجهن بأنه مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا .(٤)

---

(١) انظر العين ت/د . درويش ١ / ٦٥.

(٢) الكتاب لسيبويه ٤/٤٣٣.

(٣) انظر نفس المرجع ٤ / ٤٣٤ ،حيث قال سيبويه : " ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة ".والصواب الخفية فهذا تصحيف .

(٤) نفس المرجع ٤/٤٣٣.

وعبارة الخليل أنها نطعهة ." والنِّطَعُ مثل فِخْذ وَفَخْذ : ما ظهر من الغار الأعلى ، وهي الجلدة الملتصقة بعظم الخُلَيْقاءِ ، وفيها آثار كالتحزيز ، ويجمع على نطوع . ومنهم من يقول للأسفل والأعلى : نِطْعَان." (١)

ونتبيّن من هذا أن الخليل جعل نقطة التقاء اللسان بالحنك في نطق هذه الأصوات أدخل في الحنك ماحدده سيبويه ، لأن النِّطَع أعلى في الحنك من أصول الثنايا التي ذكرها سيبويه .

٧ - مجموعة (الزاى ، والسين ، والصاد) ، فقد حدد سيبويه مخرجهن من بين طرف اللسان وفويق الثنايا (٢) . أما الخليل فقد عبر عن هذه الأصوات بأنها أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان وهو مستدق طرف اللسان. (٣)

والذى ذكره الخليل هو الجزء من المخرج الخاص باللسان وهو الذى عبر عنه سيبويه بطرف اللسان . ولعل سيبويه يقصد بـ (فويق الثنايا) (٤) مرور النفس مع هذه المجموعة من فوق أطراف الثنايا السفلى حيث يمر بعد ذلك إلى الخارج .

---

(١) انظر العين ٢/ ١٦ ت : المخزومي والسامرائي .

(٢) انظر الكتاب ٤/ ٤٣٣ .

(٣) العين ت: د . درويش ١/ ٦٥ .

(٤) انظر الكتاب ٤/ ٤٣٣ .

٨) - مجموعة (الظاء ،والذال ،والثاء) ،فقد عبر سيبويه عن مخرجهن بقوله : " ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء ،والذال ،والثاء ." (١)

أما الخليل فقد وصفهن بقوله : " والظاء والذال والثاء لثويه ،لأن مبدأها من اللِّثَةُ " (٢) . ولا شك أن هذه الأصوات تخرج بعيدة عن اللثة . ولعل الخليل يقصد بوصفه لها بأنها لثويه ،أن النفس معها يمر باللِّثة العليا قبل أن ينفذ من جوانب اللسان بين الثنايا العليا والسفلى .

٩) - أما مخرج (الفاء) فقد عبر عنها سيبويه بأنها تخرج من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا. (٣)

أما الخليل فوصف (الفاء) بأنها شفوية واضعا إياها مع (الباء والميم) (٤) وهو في وصفه إياها بأنها شفوية نظر إلى اشتراك الشفة السفلى في إخراجها على ما قال سيبويه بعد ،ولم ينظر إلى اشتراك الثنايا العليا في إخراجها ،ولا شك أن عبارة سيبويه أدق .

١٠)- مجموعة (الباء ،والميم ،والواو) وقد قال عنهن سيبويه : إنَّهُنَّ يخرجن من بين الشفتين . (٥)

---

(١) انظر الكتاب ٤/٤٣٣ .

(٢) انظر العين ،تـ : د درويش ١/٦٥ .

(٣) انظر الكتاب ٤/٤٣٣ .

(٤) انظر العين ،تـ : د درويش ١/٦٥ .

(٥) انظر الكتاب ٤/٤٣٣ .

وقال الخليل عن (الميم والباء) أنهما شفويتان ، والمقصود طبعا أن الميم والباء تخرجان بالتقاء الشفتين إلا أن الميم يخرج النفس معها من الأنف ، فتكتسب غنتها بذلك . و (الباء) يحتبس معها النفس .

أما بالنسبة (للواو) فلا شك أنها تخرج باستدارة الشفتين كما قال سيبويه ، إلا أن للسان في إخراجها دورا وهو استعلاء أقصى اللسان عند نطقها .

أما الخليل فقد قال عن الواو ضمن أصوات العلة بأنها هوائية ، بمعنى أنه لم ينظر إلى دور الشفتين أو اللسان في إخراجها . ولم يفصل الخليل ولا سيبويه في الحديث عن مخارج أصوات المد وصفاتها وهي (الواو ، والياء) بين استعمالها صامته ، واستعمالها حركات طويله .

ثالثا : الكلام عن الصفات :

نظرا لأن مصطلحات الصفات التي ذكرها سيبويه - وأخذ بها جميع من جاء بعده إلى عصرنا الحاضر - لم يرد معظمها في كلام استاذه الخليل ، فسنقف أولا على الصفات التي ذكرها الخليل مبينين بإيجاز ما كان يعنيه بكل منها :

١) - الطلاقة :

ذكر الخليل هذه الصفة في أثناء حديثه عن صوت (العين والقاف) حيث قال : " ولكن العين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه ، لأنهما

أطلق الحروف وأضخمها جرسا ".(١)

ولم يذكر الخليل من تفسير لهذه الطلاقه إلا ما يفهم من عبارة وأضخمها جرسا ، فهو عطف للتوضيح .

ويوءخذ من دلالة تركيب (ط ل ق) على خلوص الشيء من الشيء ، أى انفصاله منه وانقطاع ارتباطه به ،أى أن المراد بوصف العين والقاف بالطلاقه هو تمييز صوتيهما عن غيرهما أى وضوحه وعدم التباسه أو اختلاطه بغيره ،وذلك لضخامة جرس كل منهما ،وهو ما عبر عنه الخليل بضخامة الجرس ، وهو الصوت .

٢) النصاعة :

لقد ذكر الخليل هذه الصفة في أثناء حديثه عن صوت (العين والقاف) أيضا ، حيث قال : " فإذا اجتمعا إحداهما في بناء حَسُن البناءُ لنصاعتهما ."(٢)

فإذا احتكمنا إلى دلالة تركيب (نَصَعَ) وجدناه يدل على شدة البياض والوضوح . " فالناصع : الشديد البياض الحسن اللون" ونستطيع أن نأخذ من هذا أن الخليل يقصد بنصوع العين علو صوتها ووضوحه ،وأعنى به حدّة درجته وارتفاعه . فهي في باب الأصوات تشبه الأشياء اللامعة الشديدة النصوع في باب المرئيات . وهذا القول يوءكد ما سبق أن وُصفت به من الطلاقة وتميز الصوت .

---

(١) انظر العين ت: د . درويش ١/٦٠ .
(٢) انظر نفس المرجع والصفحة .
وهناك أقوال عديدة ذكرها بعض العلماء تشير الى اتصاف العين بالنصوع من ذلك قول الأزهرى : " بأن العين أنصع الحروف جرسا " . وقول ابن جني " بأن العين أنصع الحروف وألذها سمعا".

٣) - البُحّـــة :

ذكر الخليل صفة البَحَح في أثناء حديثه عن صوت (الحـــاء) حيث قال : " فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بُحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين ".(١)

وقال : " عود أبح إذا كان في صوته غلظ ".(٢)

فالخليل يقصد بالبحة ذلـــك الصَّحَل الذى في صوت الحاء ، فكأنه صوت احتكاك غير ناصع أى غير حادّ وهو ناشيء عن احتكاك نفس الحاء بجدران الحلق ،وهذا الاحتكاك بجدران الحلق مع فقدان زمير الجهر يجعل (الحاء) صوتا غير واضح ولا ناصع .

٤) - اللين والهشاشة :

ذكر الخليل هاتين الصفتين في أثناء حديثه عن صوت (الهاء) حيث قال : " وإنما استحسنوا الهاء في هذا الضرب للينها وهشاشتهـا وإنما هي نَفَس لا اعتياص فيها ".(٣)

ويقصد بقوله (في هذا الضرب) هو الرباعي الحكائي الخالي من الحروف الذلق .(٤)

----

(١) العين ١ / ٦٤ ،تحقيق ت:د/عبد الله درويش .

(٢) انظر العين ٣ / ٣٢ . ت : المخزومي والسامرائي .

(٣) العين ١ / ٦١ ، تحقيق ت:د/عبد الله درويش .

(٤) انظر نفس المرجع ١ / ٦٠ ، ٦١ .

أما عبارته الأخيرة وهي قوله : " إنما هي نفس لا اعتياص فيها" فتفسر ما أراد باللين والهشاشة . وذلك أن الهاء تخرج بانفتاح المزمار انفتاحا واسعا فيخرج النفس سهحا ومهموسا ،ولا يكون أمامه في مجرى النفس والصوت أية عوائق أو مضايق ،بل لا يكاد يحتك بشيء حتى يخرج من الفم ،فخروجها أشبه بخروج النفس .

٥) - الههة أو الهتة :

لقد تعرض الخليل لهذه الصفة في أثناء حديثه عن صوت (الهاء) أيضا حيث قال : " فأقصى الحروف كلها العين ... ،ثم الهاء ولولا هتة في الهاء . وقال مرة (ههة) لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء ".(١) " وفسر الخليل الهت بقوله (الهت شبه العصر للصوت.. ويقال الهمز صوت مهتوت في أقصى الحلق فإذا رفه عن الهمز صار نفسا".(٢) فهذه الهههة التي ذكرها الخليل يقصد بها ما يحسه الإنسان عند نطق الهاء من فراغ وسلاسة بسبب عدم احتكاك هوائها بشيء من جدران الجهاز الصوتي عند خروجها ،وهذا ما وصفه من قبل باللين والهشاشة .

٦) - الهوائية :

لقد تعرض الخليل لهذه الصفة في أثناء حديثه عن أصوات العلة الثلاثة إلى جانب الهمزة ،وقد فسر أكثر من مرة ما يقصده بوصف هذه الأصوات بالهوائية . فقد قال مرة : " فأما الهمزة فسميت حرفا هوائيا لأنها تخرج من الجوف ، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان ، ولا من مدارج الحلق ،ولا من مدارج اللَّهاة ،إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تُنسب إليه إلا الجوف.

---

(١) انظر العين ت د. درويش ١/ ٦٤ .

(٢) انظر العين ت : المخزومي والسامرائي ٣/ ٣٤٩ .

وكان يقول كثيرا : "الألف اللينة والواو والياء هوائية . أي أنها في الهواء "(١) أ.هـ

فالواضح من الكلام السابق أنه كان يقصد بوصفه لهذه الأصوات بأنها هوائية هو أن كلا من الأصوات الأخرى لها حيز يتم تولده وتتشكل ملامحه فيه بواسطة ما يحدث لأعضاء الجهاز الصوتي في هذا الحيز من تلاقٍ أو تقاربٍ يعصر الصوت ويحدد ملامحه.

أما هذه الأربعة وهي (الهمزة ،والألف ،والياء ،والواو) ، فإنها بعد صدور زميرها أو جهرها من المزمار يجرى صوتها في هواء الجهاز الصوتي ،أي جوفه أو فراغه دون أن يحدث لها عصر يطبعها بملامحها ،فكأن الخليل رحمه الله لم يلحظ دور اللسان والشفتين في طبع هذه الأصوات بطابعها ،وذلك من حيث ارتفاع اللسان قريبا من أقصاه مع استدارة الشفتين في الواو ،وارتفاع مقدم اللسان مع انفراج الشفتين في الياء ،وارتفاعه أدنى ارتفاع مع كون الشفتين في وضع عادى محايد مع الألف .

أما الهمزة فلعله اكتفى بما لاحظه عنها من حيث خروجها من أقصى الحلق مهتوته مضغوطه.(٢)

ولنا أن نلحظ عزلة الهمزة عن أخواتها في النصوص السابقة لامتيازها عنهن بهذا التحديد والتشكل لصوتها ،وإن شاركتهن في جريان صوتها بعد ذلك في هواء الجهاز الصوتي دون تدخل من أعضاء هذا الجهاز ،فلذلك قيل عنها بأنها هوائية .

---

(١) العين ت د . عبدالله درويش ١/ ٦٤ ،وكذا ذكر ذلك عن الهمزة في ١/ ٦٥.

(٢) انظر المرجع نفسه ١/ ٥٨.

٧) - الصلابة والكزازة :

لقد وصف الخليل (الطاء) بهاتين الصفتين في قولـه :
" فإن كان البناء اسما لزمته السين أو الدال مع لزوم العين أو القاف ، لأن الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها ".(١) ولم يفسر الكزازة في هذا الموضع . وقد جاء في العين " كزز ". قوله : " ان الكزازة : اليبس والانقباض ،ورجل كزٌّ صلب قليل الخير والمواتاة . . . وذهب كزَ: صُلب جدا ".(٢)

فالواضح من هنا أن الكزازة قريبة المعنى جدا من الصلابة ويمكن أن نأخذ من هذا أن المقصود بصلابة الطاء وكزازتها هو ما اتصفت به من الغلظ الشديد المتمثل في طريقة خروجها وذلك بانطباق مقدم اللسان على مقدم الحنك الصلب ،وأيضا في اشتمال الطاء وجمعها لكل صفات القوة من الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والتفخيم والإصمات، فلذلك نجدها غليظة ثقيلة لا تلين في نطقها الفصيح ولا تخف .

٨) - الخفوت :

تعرض الخليل لهذه الصفة في أثناء حديثه عن صوت (التاء) وذلك في قوله : " لأن الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها وارتفعت عن خفوت التاء ".(٣) أ.هـ

---

(١) العين ٦٠/١ ،تحقيق د. عبدالله درويش .
(٢) العين ٢٧٢/٥ ، ٢٧٣ ،تحقيق د. المخزومي والسامرائي .
(٣) العين ٦٠/١ ت: د. درويش .

فالواضح من هذه العبارة أن المقصود بخفوت التاء هو ضعف صوتها وخفاؤه ، إذ جاء في اللسان أن الخُفوتُ ضَعْفُ الصَّوت من شِدَّة الجوع " والخَفْت إسْرار المَنْطِق " (١) وقد وصفت التاء بأنها من الأصوات ضعيفة الأسماع (٢) - أى أن صوتها لا يكاد يسمع . وهذه هي صفة الخفوت .

٩) - الانحراف :

ذكر الخليل صفة الانحراف في أثناء مقارنته بين طريقة خروج حروف الذلاقة وبخاصة (الراء ، واللام ، والنون) وبين سائر الحروف حيث قال عما عدا هذه الثلاثة " ولم ينحرفن عن ظهر اللسان انحراف الراء واللام والنون " (٣) فالانحراف إذاً هو خروج الصوت مع هواء الراء واللام والنون منحرفا عن ظهر اللسان إلى جانبيه مع اللام وإلى جانبي طرفه خاصة مع الراء ، وإلى الأنف مع النون . والذى يؤيد فهمنا هذا لمعنى صفة الانحراف ما ذكره سيبويه عن هذه الصفة ، وإن كان قد جعل صفة الانحراف خاصة بصوت (اللام) حيث قال : " ومنها - أى من الحروف - المنحرف ، وهو حرفٌ شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة ، وهو اللام . وإن شئت مَدَدْتَ فيها الصوت . وليس كالرخوة ، لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه . وليس يخرج الصوت

---

(١) انظر لسان العرب مادة (خفت) ٢/ ٣٠ . وانظر العين ٤/ ٢٣٩ .
(٢) انظر أصوات اللغة العربية د . محمد حسن جبل ١٧٠ .
(٣) انظر العين تاد . درويش ١/ ٥٧ - ٥٨ .

من موضع اللام ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فُويق ذلك ". (١)

ولعل هذا الجزء الأخير وهو قوله " وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فُويق ذلك " وهو المراد بالانحراف حيث ينحرف الصوت تاركا ظهر اللسان ليخرج مع النفس من ناحيتي مستدقه. والذي يؤكد هذا القول عبارة ابن جني في وصف انحراف اللام حيث قال: "وتتجافى ناحيتا مستدق اللسان عن اعتراضهما على الصوت فيخرج الصوت من تينك الناحيتين ومما فويقهما ". (٢)

١٠)- صفة الذلاقة:

نسب الخليل هذه الصفة إلى الراء واللام والنون وإلى الفاء والباء والميم حيث قال: " اعلم أن الحروف الذلق والشفوية ستة، وهي: ر ل ن، ف ب م، وإنما سميت هذه الحروف ذلقا لأن الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مَدْرَجَتَا هذه الأحرف الستة ". (٣)

وقد جاء في العين: " حدُّ كل شيء ذَلْقه، وتقول كأنه ذَلْق سنان. وذلقته وأذلقته: حدَّدته ". (٤)

---

(١) انظر الكتاب لسيبويه ٤/ ٤٣٥.

(٢) سر صناعة الإعراب لابن جني، تحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم دمشق ١/ ١٣.

(٣) انظر العين، تحقيق د. عبدالله درويش ١/ ٥٧.

(٤) انظر العين، تحقيق د. المخزومي، د. السامرائي، (ذلق) ٥/ ١٣٤ - ١٣٥.

ويؤخذ من هذا أن ذلق اللسان يقصد به حدّا طرفه حيث يرقان ويتحركان بخفة ومرونة عند نطق الراء واللام والنون . فهذه الأصوات ذلقية لاشتراك ذَلْق اللسان في إخراجهن ،ولخفتهن على اللسان . وقد قرن الخليل بهن الفاء والباء والميم في صفة الذلاقة - مع أن هذه الثلاثة الأخيرة ليس لذلق اللسان فيهن عمل - لخفة نطقهن ،فاشتركن مع أصوات ذَلْق اللسان في الخفة فوصفهن جميعا بالذلاقة . قال الخليل : "فلما ذلقت الحروف الستة ،ومذل بهن اللسان ،وسهلت عليه في المنطق . كثرت في أبنية الكلام . ."(١)

١١) - الإطباق :

لقد تعرض الخليل لهذه الصفة في أثناء حديثه عن صوت (الميم) إذ كان يسمى الميم مطبقة لأنها تطبق الفم إذا نطق بها .(٢)

١٢) - الحروف الصتم :

ذكر الخليل هذه الصفة في أثناء حديثه عن دور حروف الذلاقة في إساغة الأبنية الرباعية فما فوقها حيث قال : " فمهما جاء من بناء

---

(١) انظر العين ،د . درويش ١/ ٥٩ ، وقد ذكرنا أن اللسان لا عمل له في الفاء والباء والميم . والمذل : القلق والضجر . (انظر:لسان العرب مادة (مذل) ١١/ ٦٢١ ، والقلق الحركة وعدم الاستقرار. فالمقصود بالمذل هنا خفة الحركة.

(٢) انظر العين تح د . درويش ١/ ٦٥.

اسم رباعي منبسط معرّى من الحروف الذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما ومن السين والدال أو أحدهما ، ولا يضر ما خالفه من سائر الحروف الصتم" (١) .

وأيضا جاء في مقدمة العين قوله : "والمضاعف في البيان ما كان حرفا عجزه مثل حرفي صدره ... فيجوز فيه من تأليف الحروف جميع ما جاء من الصحيح والمعتل ومن الذلق والشفوية والصتم" أ.هـ .

والسياق يقضي في العبارة الأخيرة بأن الصتم هي ما عدا حروف الذلاقة والشفوية حيث ذكرها مقابلة لها ، وبهذا يفهم ما جاء في العبارة الأولى أيضا .

ولقد صرح في لسان العرب بقول الجوهرى : " الحروف الصتم ما عدا الذُّلْق "،(٢) وهذا يلتقي تماما مع مقتضى عبارتي الخليل الثانية والأولى .

وتركيب (صتم) يدل على العظمة مع الشدة والثِقل "الصتم بالفتح والتحريك من كل شيء ما عظُم واشتد ،ورجل صتم وجمل صتم ضخم شديد ... عبدٌ صتم بالتحريك أى غليظ شديد". (٣)

فهذا كله يرجع إلى الثِقَل لأنّ العظم والضخامة يلزمهما الثقل .
وسميت الحروف الصتم بذلك لثِقَلها (نسبيا) في مقابل حروف الذلاقة المعروفة بخفتها .

---

(١) انظر العين ت،د. درويش ١/ ٦٠.

(٢) انظر لسان العرب مادة (صتم)١٢/ ٣٣٣ . وانظر الصحاح مادة صتم ٥/ ١٩٦٤.

(٣) انظر لسان العرب ١٢/ ٣٣٢.

صفات الأصوات اللغوية عند سيبويه :

صفات الأصوات اللغوية عند سيبويه مشهورة جرى عليها كل من بعده وهي باختصار كما يلي :

١) - الجهر والهمس : ويقصد بالجهر الزمير الذى يصحب الصوت اللغوى عند نطقه ،وبالهمس عدم اصطحاب الصوت اللغوى ذلك الزمير .

والأصوات المهموسة هي : الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والفاء والثاء . وتعريف سيبويه للجهر والهمس كان مثار نقاش ليس هنا موضع تفصيله (١) ،كما أن اعتداده الهمزة مجهورة كان مثار نقاش آخر. (٢)

٢) - الشدة والرخاوة : ويقصد بالشدة حبس النفس عند نطق الصوت ، وبالرخاوة جريان النفس مع نطق الصوت وهناك صفة ثالثة هي التوسط بين الشدة والرخاوة . والأصوات الشديدة هي الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والتاء والدال والباء .

---

(١) قال : " المجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه ،ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجرى الصوت " .
انظر (الكتاب) ،تحقيق عبد السلام هارون ٤ / ٤٣٤ ، وقد عرف الهمس في نفس الموضع . وانظر في الكلام عن هذا التعريف : الأصوات اللغوية ،د. ابراهيم أنيس ط ٦ ص ١١٩ - ١٢٥ .

(٢) انظر مثلا الأصوات اللغوية د. ابراهيم أنيس ص ٩٠ .

والأصوات المتوسطة بين الشِّدة والرخاوة هي : العين واللام والنون والميم والراء .(١)

وقد كان تعريفه للشدة والرخاوة محل دراسة أيضا.(٢)

٣) - الاطباق والانفتاح : ذكر سيبويه الإطباق في أثناء وصفه لنطق الصاد والضاد والطاء والظاء ،ويقصد به ارتفاع ظهر اللسان إلى الحنك حتى يصير الحنك كالطبق له .(٣) والانفتاح ضد الإطباق .

٤) - اللين : وهو صفة خاصة بالواو والياء "لأنّ مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما . . . وإن شئت أجريت الصوت ومددت ".(٤)

٥) - الهوائية : وهي صفة خاصة بالألف لأن هذا الصوت " يتسع مخرجه لهوائه أشد من اتساع مخرج الياء والواو . لأنك تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قِبَل الحنك ".(٥)

٦) - الانحراف : ويقصد به سيبويه انحراف اللسان عن طريق الصوت ،أي عدم اعتراضه اياه بحيث يمر الصوت من جانبي اللسان وذلك في نطق اللام. كما ذكر هذه الصفة في نطق الراء .(٦)

---

(١) انظر الكتاب لسيبويه ٤/ ٤٣٤- ٤٣٥ .

(٢) انظر الأصوات اللغوية ،د . ابراهيم أنيس ص ١٢٥- ١٢٧.

(٣) انظر سر صناعة الاعراب ١/ ٦١ .

(٤) انظر نفس المرجع ٤/ ٤٣٥.

(٥) انظر نفس المرجع ٤/ ٤٣٥ - ٤٣٦ بتصرف يسير .

(٦) انظر الكتاب (هارون) ٤/ ٤٣٥.

٧) - التكرار : ويقصد به ارتعاد اللسان حتى يلمس طرف أعلى اللثة أكثر من مرة وذلك في نطق الراء (١) .

٨) - الخفاء : قال سيبويه عن الألف والواو والياء : " وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها ، وأخفاهن وأوسعهن مخرجا : الألف ، ثم الياء ، ثم الواو " (٢) .

---

(١) عبارته " ومنها المكرر وهو حرف شديد يجرى فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام فتجافى للصوت كالرخوة ، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء " الكتاب ٤ / ٤٣٥ .

(٢) نفس المرجع ٤ / ٤٣٦ .

رابعا : الحروف الفرعية :

ذكر سيبويه مجموعتين من الحروف الفرعية منها ما قال :

" إنه يُستحسن في قراءة القرآن والأشعار ، وهي : (النون الخفيفة، (الخفية)، والهمزة التي بين بين ، والألف التي تُمال إمالة شديدة ، والشين التي كالجيم ، والصاد التي تكون كالزاى ، وألف التفخيم - يعني بلغة أهل الحجاز ، في قولهم : الصَّلاة ، والزَّكاة ، والحياة .

ومنها ما قال انه لا يستحسن ولا يُقرأ به القرآن ولا الشعر وهي : (الكاف التي بين الجيم والكاف ، والجيم التي كالكاف ، والجيم التي كالشين ، والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين ، والطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء ، والباء التي كالفاء).(١)

---

(١) انظر الكتاب ٤/٤٣٢ .

خامسا : ما ذكر من اختصاص العربية ببعض الأصوات اللغوية :

لقد لاحظ الخليل أن اللغة العربية تختص بحروف لا توجد في اللغات الأخرى ، والمقصود باللغات الأخرى هي اللغات التي كان يعرفها علماء العربية في ذلك الوقت مثل الرّومية والفارسية والسّريانية وغيرها .

حيث ذكر الخليل بأن اللغة العربية تختص بحرف (الظاء) وذلك في قوله : " وليس في شيء من الألسن ظاءٌ غير العربية ". (١) فهنا تصريح واضح على أن الظاء من الحروف التي لا توجد في أي لغة من اللغات إلا العربية .

ومما يؤيد هذا في جانب منه ما ذكره ابن جني في كتابه (سر صناعة الإعراب) من أن الظاء لا توجد في كلام النبط حيث قال: (٢) " واعلم أن الظاء لا توجد في كلام النبط ، وإذا وقعت فيه قلبوها طاء ".

ومن الملاحظ أن الخليل لم يتكلم إلا عن اختصاص العربية بالظاء ،بالرغم من أن هناك حروفا أخرى اختصت بها العربية لم يذكرها هو ،وذكرها من جاء بعده من الأئمة . وسيرد هذا الأمر بالتفصيل في باب إضافات الجاحظ .

---

(١) انظر العين ،د. درويش ١/ ٩ ،٥ .

(٢) انظر كتاب (سر صناعة الإعراب) لأبي الفتح عثمان بن جني ٢٣٢/١ .

سادسا : الدراسة التركيبية (الفونولوجية) للأصوات قبل الجاحظ :

ويقصد بها دراسة الأصوات اللغوية وهي منتظمة ومركبة في كلمات ، حيث إن القدماء قد عالجوا أبجدية الحروف وهي مفردة ،كما في المخارج والصفات ، وما تختص به العربية من الأصوات .

كما عالجوها في تركيبها مع بعضها البعض مكونة الكلمات أو الألفاظ ،وما نتج عنه في تركبها من سلاسة وجمال أو تنافر وتباعد في الحروف .

كما أنهم نظروا أيضا إلى ما أحدثه تركب هذه الحروف في كلمات من إدغام وإبدال وإعلال وقلب . حيث إنهم قد عالجوها معالجة تفصيلية شاملة وذلك نتيجة لاهتمامهم بكتاب الله الكريم ، حيث جمع أكثر الأئمة بين العلم باللغة ،والعلم بالقراءات كابن أبي اسحاق (١) ، وأبي عمرو بن العلاء (٢) ،وسيبويه ،والكسائي (٣) ،والفراء .. وغيرهم كثير.

---

(١) هو عبدالله بن أبي اسحاق مولى آل الحضرمي ،قال عنه ابن سلام : كان أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل" وله كتاب في الهمز توفى سنة ١١٧ هـ. (انظر ترجمته في بغية الوعاة ٢/٤٢ .

(٢) أحد القراء السبعة المشهورين ،كان امام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة ، أخذ عن جماعة من التابعين توفي سنة ١٥٤ ، وقيل ١٥٩ هـ (انظر الفهرست ٤٢ ، وبغية الوعاة ٢/٢٣١) .

(٣) هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان ، إمام الكوفيين في النحو واللغة ،وأحد القراء السبعة المشهورين ،وهو أستاذ الفراء . أختلف في تاريخ وفاته ،فمنهم من قال ١٨٢هـ أو ١٨٣ ، أو ١٨٩ وقيل : ١٩٢ . انظر الفهرست ٩٧ ،وبغية الوعاة ٢/١٦٢ .

والذى يتطلبه البحث أن نُجمل أو نشير إلى الأبواب التي لم يثبت أن للجاحظ جهودا فيها. حيث أن هدف التفصيل هو الموازنة لبيان ما أضافه الجاحظ أى أتى به زائدا عما ذكره الأئمة قبله. أما ما للجاحظ فيه جهد، فواجبنا أن نعرض أهم جوانبه ليتبين ما أضافه الجاحظ وما سبق به.

فالدراسات الصوتية التركيبية

التي تناولها سيبويه ومن قبله ولم يتناولها الجاحظ كثيرة منها الإبدال، والإعلال (١)، والقلب، والإدغام، والإخفاء، والإظهار، والوقف، والمعاقبة.

أما بعد سيبويه، فإن الفراء قد عقد في كتابه الحدود حدا للإدغام، وللإبتداء والقطع (وهي تدخل في الدراسة التركيبية) وللهمز (وبعضه يدخل فيها) (٢).

كما أن كتاب معاني القرآن فيه الكثير من المسائل المندرجة تحت الأبواب التركيبية التي ذكرنا أن سيبويه تناولها (٣).

----

(١) ينظر الفهرس التفصيلي لكتاب سيبويه (نشره هارون) جزء ٥/ ص ٢٤٤، ٢٥٧، ٣٤٠، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٥، ٢٥٧، ٣٩١، ٣٦٦ على التوالي.

(٢) من كتاب أبو زكريا الفراء، د. أحمد مكي الأنصاري ص ١٨٢.

(٣) أنظر مثلا ٣/ ٢٤١ عن المعاقبة، ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ عن قلب الواو همزة في مثل أقتت (= وقتت)، ٣/ ١٠٦ (الإبدال)، ٢/ ١٢ (استثقال توالي بعض الحركات)، ٣/ ١٠٧ (الإدغام) وهكذا.

ولقطرب كتاب في معاني القرآن [١] يتصور أنه يتناول مثل تلك المباحث .

ومعاني القرآن للأخفش مشحون بمعالجة الظواهر الصوتية التركيبية. [٢]

كما أن هناك معالجات تطبيقية لظواهر الإسكان ،والإتباع والإشمام ، والإمالة ،والتقاء الساكنين ، التثقيل ،التخفيف ،الحركة المركبة ،الروم ، المد. [٣]

هذا ولم يتناول الجاحظ في كتبه أيا من تلك الظواهر الصوتية التركيبية في ما وصل إليه علمنا ، ولذا لم نفصل القول فيها .

----

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ٧٨ ،ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣١٢/٤ .

(٢) انظر مثلا ١٦/٢ (الإبدال) ، ٢٦/١ (الإدغام) ، ٥٢/١ (الإعلال) ، ٢٥٢/١ ، (الإظهار) ، ١٥٠/١ (الإخفاء) .

(٣) انظر فهرس الأصوات من كتاب (معاني القرآن للأخفش) - تحقيق د. فائز فارس ، ٦٠٤/٢ - ٦٠٦ .

تنافر الحروف :

من الدراسات التي سبق إليها العلماء قبل الجاحظ تنافر الحروف (الأصوات) في تكوين الكلمة .

وقد تناول الخليل هذا الموضوع في أكثر من موضع من كتاب العين . ويمكن إيجاز ما تناوله في ما يلي :

أولا : بالنسبة للجذور الثلاثية : حيث ذكر الخليل التنافر فيها على عدّة مستويات :

١) - حروف تتنافر ولا تأتلف في كلمة ما ، كالعين مع الحاء - إلا في تأليف كلمة من كلمتين نحتا مثل حيعل (١) . وكذلك العين مع الخاء (٢) ، والهاء مع الغين (٣) ، والهاء والحاء (٤) ، والقاف مع الكاف . (٥)

٢) - حروف لا تجتمع في كلمة إلا بفاصل لازم (٦) : كالعين مع الهمزة ، والعين بعد الهاء (٧) ، والكاف بعد الضاد (٨) ، والجيم مع

---

(١) انظر العين ، تحقيق د. درويش ١/٦٨ .
(٢) نفس المرجع ١/١١٠ .
(٣) نفس المرجع ١/١٢٨ .
(٤) نفس المرجع ٣/٥ (تحقيق د. المخزومي ، د. السامرائي) .
(٥) نفس المرجع ٥/٦ (تحقيق د. المخزومي ، د. السامرائي) .
(٦) نفس المرجع ٢/١٥ (تحقيق د. المخزومي ، د. السامرائي) .
(٧) نفس المرجع ١/١٢١ (تحقيق د. درويش) .
(٨) نفس المرجع ١/٦٣ (تحقيق د. درويش) .

القاف إلا في المعربات[١] ، والسين بعد القاف[٢] ،والشين بعد اللام[٣] ،والراء بعد النون في صدر كلمة.[٤]

ثانيا : بالنسبة للجذور الرباعية فما فوق ذكر الخليل أنها لا تأتلف في العربية إلا إذا كان فيها حرف أو أكثر من حروف الذلاقة ، وذلك باستثناء الحكاية المؤلفة مثل دهدق وزهزق ،والحكاية المضاعفة (كالضكضاكة من النساء).[٥]

---

(١) انظر العين ٥/٦ (تحقيق د. المخزومي ،د. السامرائي).

(٢) نفس المرجع ١/١٤٧ (تحقيق د. درويش).

(٣) نفس المرجع ١/٢٩٩.

(٤) نفس المرجع ١/٥٩.

(٥) نفس المرجع ١/٦٢.

الفصل الثاني : الكلام عن الأصوات اللغوية عند الجاحظ.

الفصل الثاني

الكلام عن الأصوات اللغوية عند الجاحظ

تتبعنا في الفصل الأول الجهود الصوتية قبل الجاحظ من المنهج إلى الكلام عن المخارج والصفات والحروف الفرعية إلى ما قيل إن العربية تختص به من الأصوات اللغوية، ثم إلى الدراسات الصوتية التركيبية، وذلك ليتسنى لنا تبين ما أضافه الجاحظ في مجال الدراسات الصوتية بمقابلة ما جاء به الجاحظ بما سبقه إليه من قبله. ولذا فسنتتبع أولا ما جاء به الجاحظ في تلك المجالات الست، ثم نبرز ما أضافه فيها، وما أضافه من غيرها.

أولا - منهج الجاحظ للوصول إلى الحقائق والمعلومات في مجال الأصوات:

الناظر في حياة الجاحظ وفي مؤلفاته يستطيع بيسر أن يستشف أن هذا الرجل كان طُلَعَة دقيق الملاحظة، وأنه كان يبلغ في الأمرين: حب الاطلاع ودقة الملاحظة غايتهما فهو يتناول بالملاحظة أدق الأمور كما يتناول عظائمها وهو مع ذلك يكاد يخترق ظواهر الأشياء إلى بواطنها ليقارن ويربط ويستخرج ما هو خاص وما هو عام.(١)

---

(١) انظر مثلا ما قاله عن ذكاء الفيل في كتابه (الحيوان)٧/١٨٣، وعن بعض صفاته ٧/ ١٩٢-١٩٣ ، وانظر أيضا ما قاله في الخاصيات والمقابلات والغرائز، وكيف أن جوف الكلب والذيب يذيبان العظام ولا يذيبان نوى التمر ، ونوى التمر أرخى وألين وأضعف من العظام المصمتة . وكيف ينفذ خرطوم البعوضة في جلد الفيل والجاموس، وخرطوم الذباب في جلد الحمار . وسخر الصخر الصلب لأذناب الجراد وكيف أنها تصدعه إذا أرادت أن تلقى بيضها .. وهكذا. (انظر الحيوان للجاحظ . تحقيق د. هارون ٤/من ٣١٣ الى ٣١٨).

ثم إنه مع ذلك كان شغوفا بالقراءة شغفا بالغا حتى إنه كان يكترى حوانيت الوراقين ليشبع هذه الرغبة ،وكان مع هذا وذاك قديرا في التقاط خبرات الآخرين ممثلة في روايتهم لما خبروه أو مروا به في حياتهم .

وعندما بدأ السير في دروب التأليف ،بدأ يعتمد على ما كان مخزنا في الذاكرة الفذّة ،إلى جانب ملاحظاته الدقيقة المتتابعة لماحوله ، مع اعتماده أيضا على ملاحظات غيره ورواياتهم له ، ليؤكد بذلك ملاحظاته ونظرياته . كما اعتمد على ما قرأه من كلام صاحب المنطق ويعنى به أرسطو الذى كان يشير إليه كثيرا.

ونجد أن ما قرأه الجاحظ لأرسطو يدخل في باب الملاحظة ، أى ملاحظة أرسطو لما يخص مجالنا هذا. ونقل الجاحظ له.

إذا فمنهج الجاحظ في دراساته الصوتية وعيوب النطق يعتمد على ثلاثة روافد وهي :

أ) ملاحظاته هوفي مجال الأصوات والعيوب .

ب) ما رواه وُروى له من ملاحظات .

جـ) ما قرأه من ملاحظات لأرسطو وغيره .

وقيمة هذه الملاحظات أنها منهج سليم ،وهو المنهج المناسب في هذا الموضوع والذى يوثقها هو تكرار الملاحظة من عدد كبير من الباحثين في المجال نفسه ، ثم اتفاق نتائج ملاحظاتهم . ولا يخفى أن الملاحظة في مجال الأصوات وعيوب النطق هي المنهج الأمثل المتاح في مثل عصر الجاحظ ،وبخاصة إذا تكررت وأخذت حقها الكافي من التأمل والتدبر لأنها حينئذ تقوم مقام التجربة العلمية العملية التي لا يمكن تطبيقها

في هذا المجال ،إذ لا يمكن مثلا أن ننزع ثنايا إنسان لنرى أثر ذلك في كلامه . كما أن البدائل التجريبية الصناعية لم تكن متاحة .

وبالطبع فلا يطالب الجاحظ ولا غيره بالبدائل التجريبية المستحدثة ،وأعني بها الوسائل الآلية المستحدثة في هذه الأيام ، لأن هذه التجارب التي تعتمد على الأجهزة لمعرفة صفات الأصوات اللغوية ، من جهر وهمس وشدة ورخاوة ... الخ ، لم تكن موجودة آن ذاك كما لم توجد أيضا الوسائل الصناعية في ذلك العصر .

لذلك فإن اعتماد الجاحظ على ملاحظاته المتكررة وملاحظات غيره المتمثلة في الروايات كانت هي المنهج الأمثل المتاح .

ولا شك أن الجاحظ قد وظّف هذه الملاحظات بروافدها الثلاثة - وأعني بهذه الروافد ملاحظاته هو ، وما رُوى له من ملاحظات ،وما قرأه من ملاحظات أرسطو - وذلك في أثناء حديثه عن الأصوات اللغوية وعيوب النطق .

وسأورد في هذا المنهج مقتطفات من الأمثلة على ما لاحظه الجاحظ ، أو رُوى له ،أو قرأه لأرسطو حتى أوضح الفكرة العامة لطريقة الجاحظ ومنهجه الخاص بالأصوات والعيوب .

وأول هذه المقتطفات التي اعتمد عليها الجاحظ في منهجه هو :

١) - ملاحظاته المتتابعة في مجال الأصوات اللغوية وعيوب النطق :

أ - في مجال الأصوات :

فقد نقل الجاحظ هنا ملاحظة اليزيدى في أن الأصوات اللغوية (كالياء ، واللام ، والألف ، والراء) من أكثر الأصوات ترددا ودورانا على ألسنة الناس ، والحاجة إليها أشد .

ولقد تنبه لذلك عندما أنشده ديسمٌ قول أبي محمد اليزيدى :

وخَلّةُ اللفظ في الياءات إن ذُكرت
كخلّة اللفظ في اللامات والألف
وخَصْلة الراء فيها غيرُ خافيةٍ
فاعرف مواقعها في القول والصحف (١)

عند ذلك أخذ يفكر ويدبر في الأصوات اللغوية حتى تأكد أن هذه الأصوات أكثر استعمالا على ألسنة الناس ، حيث قال : " واعتبرْ ذلك بأن تأخذ عِدّة رسائل وعِدّة خطب . من جملة خطب الناس ورسائلهم ، فإنك متى حَصّلتَ جميع حروفها ، وعددْت كلَّ شكل على حِدَه ، علمت أن هذه الحروف الحاجة إليها أشد ". (٢)

فمن هنا نجد أن ملاحظاته المتتابعة لما يقرأ أو يسمع جعلته يكتشف كيفية التأكد من الأصوات اللغوية التي تدور كثيرا على ألسنة الناس .

كما لاحظ الجاحظ أيضا اختصاص كل لغةٍ بحروف تدور في أكثر كلامها وذلك في قوله : " ولكلّ لغة حروفٌ تدور في أكثر كلامها كنحو

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٢ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .

استعمال الرُّوم للسين ،واستعمال الجرامقة للعين ". (١)

وأيضا حديثه عن تنافر الكلمات أو الألفاظ كان من ملاحظاته هو في هذا المجال . وهذا الذى ذكرته الآن ما هي إلا أمثلة لملاحظاته المتتابعة ،وسيرد كل موضوع من المواضيع السابقة مفصلا في موضعه.

ب - في مجال العيوب النطقية :

حيث لاحظ الجاحظ أن اللُّثغة تكون في أربعة أحرف وهي : (القاف ،والسين ،واللام ،والراء) ،وقال إن اللُّثغة التي تعرض للسين تكون ثاءً ،كقولهم لأبي يكسوم : أبي يكثوم .

واللُّثغة التي تعرض للقاف تكون طاءً كقولهم بدل قلت لك : طلت لك.

واللُّثغة التي تعرض للام فإن منهم من يجعلها ياءً أو كافا مثل : اعتللت يقال فيها اعتييت ،وقول عمر أخي هلال مكعكة ،يريد ماالعلة.

واللُّثغة التي تعرض للراء فتكون (ياءً أو غينا ، أو ذالا ،أو ظاءً). (٢)

فمن هنا نجد أن الجاحظ قد لاحظ أن هذه الحروف الأربعة وهي : (القاف ،والسين ، واللام ،والراء) من أكثر الحروف التي تدخلها اللُّثغة ،ولقد تنبه لذلك بفضل ملاحظته المتتابعة للأصوات ،وللأشخاص الذين يلثغون كعمر أخي هلال وشوشو ... وغيرهم.

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٤.

(٢) انظر نفس المرجع ١/ ٣٤ ، وسيرد عن هذا الموضوع بالتفصيل في موضعه .

ومن ملاحظاته أيضا في مجال العيوب ما ذكره من أن " اللُّثغة التي في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهُنَّ وأوضعهُنَّ لذى المروءة ، ثم التي على الظاء ، ثم التي على الذال . فأما التي على الغين فهي أيسرهن ، ويقال إن صاحبها لو جَهَد نفسه جهده ، وأحدَّ لسانه ، وتكلف مخرج الراء على حقها والافصاح بها ، لم يكُ بعيدا من أن تجيبه الطبيعة ، ويؤثّر فيها ذلك التعهد أثرا حسنا ".(١)

٢) - ما روى له من ملاحظات :

أ - في مجال الأصوات اللغوية :

حيث أورد قول (محمد بن عمرو الرومي) ، مولى أمير المؤمنين الذى قال : لقد صحت التَّجربة وقامت العِبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف ، منه إذا سقط أكثرها ، وخالف أحد شطريها الشطر الآخر ".(٢)

كما أورد الجاحظ أيضا ملاحظات الآخرين التي رويت له ، وذلك في قوله : " وقال أهل التَّجربة : إذا كان في اللحم الذى فيه مغارز الأسنان تشميرٌ وقِصَر سَمْك ، ذهبت الحروف وفسد البيان . وإذا وَجَدَ اللسانُ من جميع جهاته شيئا يقرعهُ ويَصُكه ، ولم يمرَّ في هواءٍ واسع المجال ، وكان لسانهُ يملأ جَوْبَةَ فمه ، لم يضرَّه سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفر ، والجزء المحتمل ".(٣)

----

(١) انظر البيان والتبيين ١ / ٣٦ .

(٢) نفس المرجع ١ / ٦١ .

(٣) نفس المرجع ١ / ٦١ ، ٦٢ .

فمن هنا نجد أنه قد اعتمد في دراساته أيضا على ما رُوى له من ملاحظات غيره في مجال الأصوات اللغوية .

ب - في مجال العيوب النطقية :

حيث ذكر الجاحظ أن (يزيد بن جابر) قاضي الأزارقة ، يقال له الصَّمُوت ، لأنه لما طال صمته ثَقُل عليه الكلام ، فكان لسانه يلتوى ولا يكاد يُبيْن ، فقد أصابه لفف في لسانه . قال الجاحظ : " أخبرني (محمد بن الجهم) أن مثل ذلك اعتراه أيام محاربة الزُّطّ ، من طول التفكّر ولزوم الصمت ".(١)

فهذه الملاحظة خاصة بمحمد بن الجهم نفسه رواها الجاحظ عنه .

٣) - ما قرأه من ملاحظات أرسطو :

حيث ذكر الجاحظ أن هناك بعضا من الحيوانات عريضة اللسان وبين أن لعرض اللسان عند الحيوانات أثرا في البيان ، ولقد أيد هذا القول بما قرأه من ملاحظات أرسطو حيث قال : " زعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان أن الطائر والسبع والبهيمة كلما كان لسانُ الواحد منها أعرض كان أفصح وأَبْيَنَ ، وأحكى لما يلقن ولما يسمع ، كنحو الببغاء والغداف وغراب البيْن ".(٢)

فخلاصة الأمر أن كل هذه الأمثلة التي ذكرتُها آنفا ، ما هي إلا أمثلة لطريقة الجاحظ ومنهجه في الأصوات اللغوية وعيوب النطق ، وذلك حتى يستطيع القارئ أو الدارس أن يفهم النهج الذى سار عليه الجاحظ في هذين الموضوعين اللذين هما مجال دراستنا في هذا البحث.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٨ .

(٢) انظر الحيوان للجاحظ ٥/ ٢٨٨ ، والبيان والتبيين ١/ ٦٢ .

ثانيا وثالثا : حديثه عن بعض المخارج .

لم تكن وقفة الجاحظ في الأصوات اللغوية وقفة تعليمية ، بمعنى أنه لم يتناولها على المستوى التعليمي الذى يفصل فيه الكلام عن مخارج الحروف وصفاتها كما فعل الأئمة اللغويون قبله ، بل كان تناوله للأصوات تناولا عاما شاملا ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن المخارج والصفات كانت معروفة للناس في ذلك الوقت ، حيث تطرق لها أكثر من لغوى .

فالخليل مثلا تناول المخارج والصفات في خطة ترتيبه لمعجم العين حيث لا يقوم هذا العمل إلا بذكر هذه الأصوات اللغوية ومخارجها .

كما أن سيبويه قد ذكرها في بدء حديثه عن باب الإدغام، حيث لا يتضح الكلام عن الادغام إلا به ، لذلك كانت نظرتهما لهذا الموضوع نظرة خاصة تفصيلية .

كما أن هناك من تكلم عن أعضاء الجهاز الصوتي في نطاق كلامه عن خلق الإنسان .

أما الجاحظ فقد تناول الأصوات بنظرة أعم وأشمل فأطال الوقوف عند الصوت من حيث توظيفه في أهم ما يميز الإنسان عن الحيوان ، ألا وهي اللغة التي عبر عنها بالبيان.(١)

ولقد جعل الجاحظ البيان عنوانا لكتابه تخصيصا واهتماما ولقد وظف في بيان أهميته حشدا من المعلومات عن الصوت وأعضاء النطق من حيث سلامتها وعيوبها وأداء اللغة ومستويات هذا الأداء وآثارها بصورة لم تعرف قبله عند العرب فيما نعلم.

---

(١) قال الجاحظ : " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أى جنس كان الدليل .. وقال أيضا : فبأى شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع " .
البيان والتبيين ١/ ٧٦ .

وهو بهذه النظرة العامة وذلك التوظيف يُعدُّ سابقا ورائداً في هذين الجانبين من الدراسة الصوتية .

ولقد تجلى هذا التوظيف فيما ذكره الجاحظ بلسان حال واصل ابن عطاء عما يحتاجه مقامه كرئيس مذهب من اقتدار في البيان.

" وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ،وإلى ترتيب ورياضة ،وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ،وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة ، كحاجته إلى الجزالة والفخامة ،وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق ،وتزين به المعاني ".(١)

فالصوت من هذه الحيثية هو أداة البيان ووسيلته التي لا تقارن بها الوسائل الرمزية الأخرى كالإشارة والعَقْد (٢) والنِّصبه (٣) فلذلك يقول الجاحظ عن الصوت : " والصوت هو آلة اللفظ ،والجوهر الذى يقوم به التقطيع ،وبه يوجد التأليف . ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف ".(٤)

----

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٤.

(٢) المرجع السابق ١/ ٧٦. والعقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ،كذا ذكره محقق البيان.

(٣) النصبة :هي الحال الناطقة بغير اللفظ ،والمشيرة بغير اليد . انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٨١.

(٤) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٧٩.

وبالرغم من أن نظرة الجاحظ لمخارج الأصوات اللغوية كانت عامة وشاملة ، إلا أنه لم يغفلها نهائيا ،بل نجده قد تطرق إليهما في معرض حديثه عما يصيب الأسنان من الآفات ،وأثر سلامتها وتمامها في تمام الحروف وأثر عطبها ونقصها في نقص الحروف .

ومن الأصوات اللغوية التي تحدث الجاحظ عنها وعن بعض مخارجها : الباء ،والسين ،والضاد ،والفاء ، والميم ،وذلك في قوله : " والميم والباء أول ما يتهيّأ في أفواه الأطفال ،كقولهم : ماما ،وبابا لأنهما خارجان من عمل اللسان ،وإنما يظهران بالتقاء الشفتين . وليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم ، من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة .

فأما الضاد فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن ،إلا أن يكون المتكلم أعسَرَ يسَرا ، مثل عمر بن الخطاب رحمه الله ، فإنه كان يُخرج الضاد من أيّ شدقيه شاء . فأما الأيمن والأعسر والأضبط ،فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد ".(١)

يريد الجاحظ هنا بيان أن مخرج الميم والباء ناتج عن التقاء الشفتين ،وهذان الحرفان هما أول ما يتهيّأ من أفواه الأطفال ، وذلك لسهولة مخرجهما ، أما بالنسبة للفاء والسين فقد أشار الجاحظ إلى مخرجهما من خلال قوله : " وليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة."

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٢.

فإذا عرفنا أن الهتم هو : " كسر الثَّنيَّة أو الثنايا من الأصل "(١) وأن أطراف الثنايا تشترك في إخراج الفاء والسين حيث أن مخرج الفاء يكون : " من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا "(٢) ومخرج السين من بين طرف اللسان وفويق الثنايا "(٣) تبين لنا سبب تأثر خروج الفاء والسين بانكسار ثنايا الأهتم ، وهذا هو ما أراده الجاحظ .

وكون الفاء والسين في وسط الكلمة ، يزيد من الأمر تعقيدا في النطق بالنسبة للأهتم ، لأن انتقاله من مخرج حرف آخر - غير الفاء والسين - بنطقه المختلف إلى الفاء والسين الموجودة في وسط الكلمة ، فإن ذلك ولا شك يزيد من العجز والنقص .

أما (الضاد) فقد ذكر الجاحظ بأنها تخرج من الشدق الأيمن ، إلا أن يكون المتكلم أعسر يسرا ، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والأعسر اليسر هو الذى يعمل بكلتا يديه ، وهو يريد هنا أنه يخرج الضاد من أى شدقيه شاء .

فالذى ذكرناه آنفا عن مخارج الأصوات عند الجاحظ يدل دلالة واضحة على أن عدم تناوله للأصوات اللغوية بطريقة تفصيلية ، لم يكن عن تقصير ونقص ، وإنما كان من باب التجاوز عن موضوع قد طُرق قبل ذلك وأُشبع بحثا حيث استوفى فيه السابقون كل ما يمكن أن يقال .

---

(١) انظر العين ٤/٣٦ ت: المخزومي والسامرائي ، وانظر اللسان مادة (هتم) ١٢/٦٠٠ .

(٢) انظر (الكتاب) ٤/٤٣٣ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

رابعا : الأصوات الفرعية :

ذكر الجاحظ كثيرا من تلك الأصوات الفرعية في معرض حديثه عن اللُّثغة بأنواعها وعن اللُّكنة ، وعن اللهجات في نطق الأصوات ، وعن سائر عيوب النطق التي تعترى الناطقين لأسباب عضوية أو عرقية .

ولكن ذكر الجاحظ لهذه الأصوات لم يكن قائما على نفس الأساس الذى أقام عليه سيبويه ذكره للأصوات الفرعية ،وهو كونها تستحسن أو لا تستحسن في المستوى الفصيح للاستعمال اللغوى كما في قراءة القرآن الكريم والقاء الشعر - وقد ذكر سيبويه عددا من الحروف الفرعية يستحسن ،أى يقبل في المجالين المذكورين . وإنما ذكر الجاحظ ما ذكر من تلك الأصوات التي يَصدُق عليها اسم الأصوات الفرعية باعتدادها كلها صوراً للنطق دون المستوى الفصيح ،لأنها إما لُثغة أو لُكنة أو لهجة ضعيفة أو ناشئة عن عيب ما في جهاز النطق ، ثم هي لذلك عيب في الأداء اللغوى يهبط بمستوى تحقيق اللغة لوظيفتها التي هي التعبير عما بالنفوس ونقله إلى الآخرين أو تبليغهم ما يراد منهم ، ومن تلك الأصوات :

١) - الشين المعجمة ، لثغة لا يصورها الخط لأنها ليست من الحروف المعروفة ،وإنما هي مخرج من المخارج .(١)

٢) - الراء التي تنطق غينا أو ظاءً أو ياءً أو ذالا ،والقاف التي تنطق طاءً ،والسين التي تكون ثاء ، واللام التي تنطق ياء أو كافا . .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٤ .

وهكذا . وكل هذا يدخل ضمن اللُّثغة.(١)

٣) - الجيم التي تنطق زايا ،والزاى التي تنطق سينا ،والعين التي تنطق همزة ،والسين التي تنطق شينا ،والطاء تاءً .. الخ (٢)،

٤) - ومن الأصوات الفرعية أيضا بعض اللهجات الضعيفة التي تجعل بعد كاف الخطاب في المؤنث شينا ،وهي ما تعرف بالكشكشة ، أوأن يجعلوا بعد كاف المذكر أومكانها سينا وتسمى الكسكسة.(٣)

وهذا الذى ذكرناه آنفا هو من قبيل الأصوات الفرعية التي ذكرها الجاحظ ،وهي دون المستوى الفصيح .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣٤-٣٥.

(٢) نفس المرجع ١/٧٠-٧١.

(٣) نفس المرجع ٣/٢١٣. وفي هامشها ذكر المحقق د. هارون تفسير الكشكشة والكسكسة.

خامسا : ما تختص به العربية من الأصوات اللغوية :

لقد لاحظ الجاحظ مسألة اختصاص العربية بحروف لا توجد في اللغات الأخرى ،حيث نوه إلى ذلك من خلال ما أورده في كتابه البيان والتبيين من قول الأصمعي : " ليس للروم ضادٌ ،ولا للفرس ثاءٌ ، ولا للسُّرياني ذال ".(١)

فلو نظرنا إلى القول السابق لوجدنا أنه قد نفى وجود حرف الضاد في لغة الروم ، كما نفى وجود حرف الثاء في لغة الفرس ،وأيضا نفي وجود حرف الذال في لغة السُّريان. وبما أن هذه الأحرف الثلاثة موجودة في اللغة العربية ،إذا ، فهذا القول السابق يشتمل على نفي صريح واثبات ضمني ، حيث أثبت هذه الأحرف للغة العربية ،ونفى وجودها بالنسبة للغات الأخرى المذكورة.

ومن المتعارف عليه قديما وحديثا أن اللغة العربية تختص بحرف (الضَّاد) ،ولذلك سميت بلغة الضاد ،والمراد بالضاد هنا هي الضاد الفصيحة التي يجد الناطق بها صعوبة وكَلَفة لأعضاء النطق . فهي تخرج "من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ".(٢) . فالهواء مع نطق الضاد يخرج من جانبي اللسان أو من جانب واحد ،وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يخرجانها من الجانبين ،وذلك لشدة فصاحتهما .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٥.

(٢) انظر (الكتاب) لسيبويه ٤/ ٤٣٣.

والذى يؤيد أن المراد بالضاد هنا هي الضاد الفصيحة هو قول العالم المستشرق (برجستراسر) : " الضاد العتيقة حرف غريب جدا غير موجود حسبما أعرف في لغة من اللغات إلا العربية ، ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالناطقين بالضاد ".(١)

قال المتنبي :

وهمُ فخرُ كلِّ من نطق الضا
دَ ، وعَوذُ الجاني وغَوْثُ الطريد (٢)

كما أن هناك علماء كثيرين أتوا بعد الجاحظ إلى العصر الحديث ذكروا أن (الضاد) خاص بالعربية ، وذلك مثل ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب ، والصاحبي لابن فارس ، والمعرب للجواليقي ، وتاج العروس للزبيدى ، وفقه اللغة لعلي بن عبد الواحد وافي ، وأصوات اللغة العربية لمحمد حسن جبل ، وعلم اللغة المبرمج لكمال ابراهيم بدرى .

ونجد أن هناك حروفا أخرى اختصت بها اللغة العربية لم يذكرها السابقون ، وقد ذكرها من جاء بعدهم ، من ذلك حرف (العين ، والغين ، والحاء ، والصاد ، والطاء ، والقاف ، والهمزة) .

---

(١) انظر كتاب (التطور النحوى) لبرجستراسر ص ١٨ . تصحيح وتعليق د . رمضان عبد التواب .

(٢) انظر ديوان المتنبي ٢/٥٦ بشرح البرقوقي ، وانظر كتاب (سر صناعة الاعراب) لابن جني ص ٢٢٢ .

فقد قال الدكتور (علي عبد الواحد وافي): "أنها (ويقصد اللغة العربية) أكثر أخواتها احتفاظا بالأصوات السامية . فقد اشتملت على جميع الأصوات التي اشتملت عليها أخواتها السامية ، وزادت عليها بأصوات كثيرة لا وجود لها في واحدة منها : الثاء والذال والغين والضاد ".(١)

كما قال الدكتور (محمد حسن جبل) : " ولقد قيل بتفرد العربية بأصوات أخرى كالعين والحاء والظاء . ولكن العين والحاء مستعملتان في السُّريانية والعبرية ، وإذا صدق تفرد العربية بالظاء كان تفردها بالضاد أصدق ".(٢)

وقال الدكتور (كمال ابراهيم بدرى) : " هناك أصوات في اللغة العربية - بوصفها احدى اللغات السامية - ليست موجودة في كثير من اللغات الأخرى من ذلك أصوات الإطباق وهي : الصاد والضاد والطاء والظاء وكذلك بعض الأصوات الحلقية مثل الحاء والعين والغين والقاف والهمزة ".(٣)

وإلى هنا أكون قد عرضت لجميع الحروف التي اختصت بها اللغة العربية .

---

(١) انظر كتاب (فقه اللغة) د . علي عبد الواحد وافي ص ١٦٥ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ،الفجالة القاهرة.

(٢) انظر كتاب (أصوات اللغة العربية) د . محمد حسن جبل ص ١٣٢ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

(٣) انظر كتاب (علم اللغة المبرمج) د . كمال ابراهيم بدرى ص ٣ ، الناشر : عمادة شؤون المكتبات ،جامعة الملك سعود الرياض ١٤٠٢هـ.

سادسا : دراسة الأصوات منتظمة (الدراسة التركيبية للأصوات) :

سبق أن ذكرنا أن الجاحظ لم يقف عند الأبواب المشهورة للدراسة التركيبية من إبدال وإعلال وقلب وإدغام وإتباع وإمالة وما إلى ذلك[١] . بمعنى أنه لم يعمد إلى معالجة متكاملة لباب من هذه الأبواب وما إليها . ولو فعل ، لما حسب له من ذلك إلا ما كان جديدا مبتكرا . لكنه وقف عند مسألة تنافر الأصوات وأتى فيها بجديد . وأول ما ذكره :

(أ) : تنافر الحروف :

حيث تعرض الجاحظ لتنافر الحروف كما تعرض لتنافر الكلمات إلا أنه لم يُفَصِّل القول في تنافر الحروف كما فصَّله في تنافر الكلمات ، فقد اكتفى في تنافر الحروف بذكر عدة أحرف لا تجتمع مع بعضها البعض فقال : " الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين ، بتقديم ولا بتأخير . والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال ، بتقديم ولا بتأخير ".[٢] فهو هنا لم يتعرض إلا لحرفين وهما (الجيم ، والزاى) ، وعدم تعرضه لسائر الحروف لم يكن عن جهل بها ، وإنما من باب الاختصار ، فقد قال : " وهذا باب كبير . وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يُجرى ".[٣]

وإذا نظرنا إلى الحرفين السابقين نجد أن (الجيم) لا تجتمع مع الظاء ، والقاف ، والطاء ، والغين ، في الكلمة الواحدة ، سواء جاءت

---

(١) انظر ما سبق ص ٨٣ من هذه الرسالة.
(٢) انظر البيان والتبيين ٦٩/١ .
(٣) نفس المرجع والصفحة.

هذه الحروف قبلها أم جاءت بعدها ،وهذا هو المراد بقوله (بتقديم أو بتأخير) وكذلك بالنسبة لحرف (الزاى) ، فقد ذكر الجاحظ أنها لا تجتمع مع الظاء أو السين أو الضاد أو الذال في الكلمة الواحدة ،سواء أتت هذه الحروف قبل (الزاى) أو أتت بعدها .

ولا بد من التنويه إلى أن هناك دراسات حديثة قام بها بعض العلماء المحدثين أيدت بعض ما ذكره الجاحظ والسابقون ،وهذه الدراسات هي عبارة عن إحصائيات لجذور بعض المعاجم اللغوية كالصحاح للجوهرى ولسان العرب لابن منظور والتاج للزبيدى . والذى قام بهذه الإحصائيات هو الدكتور (على حلمي موسى) .

وقد لوحظ أن بعض موضوعات هذه الإحصائيات أيدت كلام المتقدمين من ناحية تنافر الحروف ،وذلك بالنسبة لموضوع التتابع الذى تمثل تتابع الحروف في الكلمات الثلاثية . فنجد أن هناك إحصائية لتتابع الحرفين الأول والثاني في الكلمات الثلاثية ، وأيضا الثاني والثالث، فمثلا إذا كان الحرف الأول (ب) والحرف الثاني (ت) ننظر إلى المربع الذى يلتقي عنده حرف (ب) مع حرف (ت) ثانيا فنجد الرقم (٦) . أى أنه يوجد ستة جذور تبدأ بالحرفين (بت) .

ومثال ثان : الحرفان (تز) لا يوجد أى جذر ثلاثي يبدأ بهما ،ولذلك نجد أن المربع الذى يلتقي عنده (ت) أول مع (ز) ثان به الرقم (صفر) .

وهناك أيضا إحصائية لتتابع الحرفين الثاني والثالث ، وعند جمع حاصل إحصائية تتابع الحرفين الأول والثاني ،والثاني

والثالث ،يعطينا إحصائية لتتابع الحروف بوجه عام ، سواء أكان الحرفان في الموقعين الأولين أو الأخيرين.

وفيما يلي عرض لهذا الجدول الذى يمثل إحصائية تتابع الحروف بوجه عام ،حتى يتضح المراد .

عدد مرات تتابع أى حرفين فى الكلمات الثلاثية

الحرف التالى

الحرف الأول

	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	وى
أ	٠	٢٩	١٢	٨	١٣	٣	٣	١٦	٢	٢٧	١٤	١٨	٧	٦	٤	٦	١	٠	٠	١٤	٦	٧	٢٢	٢٣	١٧	٥	٣٨
ب	١٧	٢٦	١٥	١٧	١٧	١٥	١٨	١٩	١٣	٤١	١٦	٢٢	١٢	١١	٧	٢٧	٢	٢٤	١٨	٠	٢٢	١٥	٣٦	٣	٢١	٢١	٥٢
ت	١٢	١٢	١٦	٠	٣	٨	٥	٥	٠	٢٦	١	١	٣				٠	١٠	٤	١٠	٧	٨	٢٠	١٨	١٩	٥	٣٣
ث	١٣	٩	٣	١٧	٧		١	٦	٠	١٨	٠	٠	٠	٠	٠	٤	٠	١١	٧	٧	٧	٣	١٩	٢٠	١٠	٢	١٨
ج	١٧	١٨	٠	٥	١٨	١٨	٥	٢٠	١٢	٣٥	١٥	١٥	٨	٢	٠	٠	١	٢٠	٠	١٧		٠	٣١	٢٣	٢٥	١٢	٣٨
ح	٠	٢٠	١٣	٧	١٤	١٨	٠	١٦	٩	٢٩	١٢	١٤	١٤	١٧	١١	٩	٧	٠	٠	٢٤	١٩	١١	٢٩	٢١	٢٦	٠	٤٤
خ	٠	٢٠	١١	٤	٦	٠	١٤	١٦	٩	٢٩	١٤	١٢	١٠	١٢	١١	١٢	١	٣	٠	١٧	٢	٠	١٩	٢٢	١٨	٠	٢٨
د	١٥	٢١	٠	٥	١١	٢١	٧	٢٢	٠	٣١	٠	١٦	٤		٠		٠	٢٢	١٢	١٩	١٣	٩	٢٥	٢٨	٢٧	١٧	٤٤
ذ	١٣	١٠	٠	٠	١	٤	٢	٠	١١	١٨	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	١١	٠	٩	٦	٢	١٥	١٦	٤	٣	٢٩
ر	١٨	٤٢	٢١	١٩	٢٩	٢٢	١٣	٢٢	٥	٢٤	٢٥	٣٠	٢٣	١٤	٢٠	٢٠	١	٢٢	١٣	٢٣	٢٢	٢٣	٥	٢٧	٢٢	٢٢	٤٩
ز	١٤	١٨	١	٠	٩	١٣	٣	٣	٠	٢٢	١٨		٠	٠	٠	١	٠	١٨	٩	١٣	١٦	١١	١٨	٢٢	٢١	٩	٢٨
س	١٦	٢٦	٨	٠	١٦	١٧	١٦	٢٠	١	٢٧	٠	١٦		٠	٠	١٢	٠	١٩	٥	٢٢	١٧	١٢	٢٩	٢٩	٢٣	٩	٤٠
ش	١٤	٢٠	٥	٤	١١	١٦	٧	١٢	٥	٢٩	٧	٣	١٠٥	٥		٩	٦	١٦	١١	١٤	١٥	١٣	٨	٢٥	١٨	٧	٢٩
ص	٠	١٧	٦	٠	٠	١١	٦	١٩	٠	٢٢			٠	١٨	٠		٠	١٥	٢	١٨	٦	٢	٢٣	٢١	١٢	٦	٣١
ض	٦	١٩	٠	١	٨	٩	٦	٤	٠	١٧	٢	٠		٠	١٣	١	٠	٨	٩	١١	٠	٣	٨	١٤	٨	٧	٢٦
ط	١٠	١٥	٠	٤	١	١٢	٨	٢	٠	٢٦	٠	١٣	٦		٠	١٥	٠	٩	٣	١٥	٤	٠	٢١	٢٠	١٥	٥	٢٩
ظ	٣	٤	٠	٠	٠	٠				٧				٠	٠		٨	٣		٤		٠	٦	٧	٢	١	٩
ع	٠	٢٧	١٣	١٤	١٧		٠	٢٠	٨	٢٢	١٨	٢١	١٢	١٤	١١	١٨	٩	١٨	٠	٢٣	١٧	١٩	٢١	٢٣	٢٧	٨	٤٤
غ	٠	١٩	٢	٨	٠	٠		١١	٣	٢٣	٧	٧	٤	٦	٩	١٠		٠	١١	١١	١		٢١	٢٦	٨	١	٢٢
ف	١٧	٠	٢٢	٩	١٢	١٥	١٠	١٨	٢	٤٣	٨	١٧	١١	١٣	١١	١٢	٥	١٥	٤	٢٠	٢٣	٨	٢٩	١	٢٣	١٣	٤٢
ق	٤	٢٥	١٣	٦	٠	١٦	١	١٥	١٠	٣٢	٦	١٢	١١	١٤	٨	١٧	١	٢٧	٠	١٩	١٨	٠	٢٦	٢٦	٢٣	١٢	٤٢
ك	١١	١٨	١٦	١٢	٠	٥	٠	١٨	٣	٢١	٨	١٩	١٢	٣	١	٠	٧	١٧	٠	١٣		١٨	٢٦	٢٥	٢٠	١٢	٣٤
ل	٧	٣٠	١٦	١١	٢٥	٢٧	١٥	١٦	٧	١	١٤	٢٢		١١	١	١٩	٥	٢٨	١٣	٢٨	٢٦	١٦	٢٤	٢٣	٥	٢٠	٤٤
م	١٦	٠	١٧	٧	٢٠	١٩	١٤	٢٤	٨	٣٩	١٧	٢٥	٢٠	١٦	٩	١٣	٣	٢٨	١٢	٠	٢١	١٨	٣٦	٢٤	٢٣	١٤	٤٢
ن	١٩	٢٧	١٧	١٠	٢٤	٢٢	١٦	٢٣	٥	١٠	١٩	٢٢	٢٠	١٤	١١	١٥	٨	٢٧	١٠	٢٦	٢٢	٢٤	٠	٢٢	٢٤	٢١	٤٨
و	١٦	٢٩	١٥	١٧	٢٩	٢١	١٩	٢٦	١٥	٢٩	٢٢	٢٧	٢٠	١٨	١٤	٢١	٤	٢٩	١١	٢٤	٣٥	٢٥	٢٢	٢٣	١٨	٢٥	٣٠
ه	٣	٢٩	١٢	٥	٢١	٠	٠	٢٦	٧	٢٣	١٨	٦	٩	٥	٦	٦	١	٣	٠	٩	١٩	٩	٣٠	٣٥	١٨	٥	٥١
ى	٩	١٥	٨	٨	٢	٩	٤	١٥	٠	٢١	٥	١٧	١١	١٠	٨	٩	٣	١٢	٢	١٩	١٤	٥	٢٣	١٧	٢٠	٨	١٢

وبعد النظر إلى الجدول الذى يمثل تتابع الحروف في الجذور الثلاثية في اللغة العربيـــة طبقا لما ورد في الصحاح للجوهـــــــرى - باعتباره أول معجم أُجرى عليه مثل هذا الإحصاء - فسنجد أن الدراسات الإحصائية الحديثة صَدَّقت الجاحظ في بعض ما قرره من أن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين ، بتقديم ولا بتأخير .

وأن الزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال ، بتقديم ولا بتأخير ،وذلك في قولهم : " حرف (ج) لا تتبعه الأحرف (ت - ض - ط - غ - ق - ك) ولا تسبقه (ص - ظ - غ - ق - ك) ، أى أنه لا يشترك تتابعا مع أى من الأحرف (غ - ق - ك) ، ومن المعروف عن القدماء أنهم قالوا : ان حرفي (ج ،ق) لا يشتركان في أى كلمة من أصل عربي ،ويتضح الآن أنهما لا يتتابعان في أى كلمة (مع العلم بأن الكلمة الثلاثية الوحيدة التي يشتركان فيها هي (قبج) وهي من أصل فارسي) ، كما يتضح أن حرف (ك) له نفس الظاهرة ، وذلك لأن نطق (ك) قريب من نطق (ق) ".(١)

وقالوا أيضا : " حرف (ز) لا تتبعه الأحرف (ت - ذ - س - ش - ص - ض - ظ) ولا تسبقه الأحرف (ت - د - ذ - س - ص - ط - ظ) ،أى أن (ز) لا يشترك تتابعا مع (ت - ذ - س - ص - ظ) . ونلاحظ هنا أن (ز) هو صوت مجهور ،نظيــــره المهموس هو (س) ،كما أن (ز) قريب في النطق من حرف (ذ) ..

---

(١) انظر كتاب إحصاء جذور معجم الصحاح ص ٣٠ .

وأيضا حرف (ذ) هو صوت مجهور ونظيره المهموس هو (ث) وحرف (ظ) قريب في النطق من (ز) ، وحرف (ص) قريب في النطق من (س) ".(١)

ومن الملاحظ أن هناك حروفا أخرى متنافرة ذكرتها الإحصاءات الحديثة ، ولم ترد عند الجاحظ ،والسبب في ذلك يعود إلى أن عمل الجاحظ كان ملاحظات جزئية تتعلق بتتابع عدة أصوات معينة من بين أصوات الأبجدية يحسب لسه صدقها ، ولا يطالب بإحصاء استقرائي كامل كالذى أجراه العلماء المحدثون مستعينين بالحاسب الآلي .

وخلاصة الأمر هو بيان صدق الجاحظ في بعض ما قرره من ملاحظات هامة ودقيقة.

(ثانيا) : تنافر الكلمات :

لقد اهتم الجاحظ بتنافر الكلمات اهتماما كبيرا ،حيث وقف عنده وقفةمطولة وهو يعتبر بذلك سابقاً في هذا المجال وذلك من ناحية توضيحه وتبيينه ،إذ لم يتوسع في تنافر الكلمات) أحدٌ قبله في ما أعلم . حيث ذكر أن هناك من ألفاظ العرب ما تتنافر ،فإذا كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها إلا ببعض الإستكراه . وقد أتى ببيت شعر قال فيه الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفـر وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ (٢)

---

(١) انظر إحصاء جذور معجم الصحاح ص ٣١ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٥ .

فهذا البيت اجتمعت فيه ألفاظ متنافرة جعلت نطقه صعبا فيه بعض الاستكراه فلو أننا نظرنا إلى كل كلمة على حِدة ،لوجدنا أنها في الأصل كلمات سليمة البناء مستعملة وحروفها غير متنافرة ،ولكن حينما تجاورت هذه الكلمات مكوّنة هذا البيت من الشعر ،حصل التنافر، وذلك لاختلاف الأنساق المتوالية في حروفها وهذه الأنساق هي القاف والباء والراء ،والاختلاف فيها واحد ، بمجيء الفاء في قفر بدل الباء في قبر .

وأيضا اختلاف النسق بين الباء والراء بتقدم أحدهما تارة ، وتقدم الآخر تارة أخرى،ف (قبر ،حرب ،قفر ، قرب ، قبر ،حرب ،قبر) كلها تنتهي إما بالباء ثم الراء ،أو الراء ثم الباء ما عدا (قفر) حيث جاء بالفاء بدل الباء المتقاربتين في المخرج .

فهنا تجاورت كلمات فيها أنساق مختلفة الترتيب ،فاختلاف النسق هو الذى أوجد التنافر .

ولقد ذكر الجاحظ أن بعضهم قد زعم أن هذا الشعر من أشعار الجن ، لأنّ الشخص لا يستطيع أن ينشده ثلاث مرات متوالية في نسق واحد دون أن يتلجلج أو يتتعتع.

كما أورد الجاحظ قول ابن يسير في أحمد بن يوسف حين استبطأه فقال :

هل مُعينٌ على البكا والعويلِ
أم مُعَزٍّ على المصاب الجليلِ
ميّتٌ مات وهو في وَرَق العيش
مقيمٌ به وظلٍ ظليلِ

إلى قولـه :

لـم يَضِرْهـا ،والحمد لله ،شيءٌ

وانثنت نحو عَزْف نفسٍ ذهولِ

قال الجاحظ : " فتفقد النصف الأخير من هذا البيت ، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض ".(١)

يريد أن الألفاظ الموجودة في الشطر الأخير فيها من التنافر والتباعد ما يجعل نطقها صعبا مستكرها ، ليس فيه سلاسة ، كما أنها ليست خفيفة على اللسان ،إلى جانب وقعها الثقيل على السمع . فالإنسان لا يجد في سماعها لذّة وانسجاما.

وكثيرا ما عاب الشعراء وأهل اللغة هذا التنافر وعدوه من العيوب. ومن ذلك ما أورده الجاحظ في البيان والتبيين من ذم خلف الأحمر لهذا التنافر ،حيث قال :

وبعض قريض القوم أولادُ علـةٍ

يُكِدُّ لسان الناطق المتحفِّظ (٢)

وقد وضح الجاحظ هذا البيت بقوله : " إذا كان الشعر مستكرها ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض ،كان بينهما من التنافر ما بين أولاد العلات ".(٣) وأولاد العَلّة هم : بنو رجل

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٥.

(٢) نفس المرجع ١/ ٦٦.

(٣) نفس المرجع ١/ ٦٦.

واحد من أمهات شتى ، والتنافر والتباعد الذى يكون بين أولاد العَلاّت هو نفسه التنافر الذى يكون بين الألفاظ في بعض السياقات .

كما أنشد أبو البيداء الرِّياحي في هذا المعنى قوله :

وشِعرٍ كبعر الكبش فرق بينه
لسان دعيٍّ في القريض دخيلِ (١)

ففي تفسير هذا البيت ذكر الجاحظ أن المراد بقوله (بعر الكبش) يعني : " أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور . وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر ،تراها متفقة مُلسا ولينة المعاطف سهلة ،وتراها مختلفة متباينة ،ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكُدّه والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية سلسة النظام ،خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحده ،وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد ." (٢)

فنلاحظ من الكلام السابق أن الجاحظ قد فسر ووضح كيف يكون الكلام متنافرا مستكرها لا يجد الإنسان فيه جمالا ورونقاً ،وكيف أنه وصف الألفاظ المتلاحمة بالسلاسة واللِّيونة لدرجة أن الإنسان يشعر بأن الأبيات الشعرية كأنها كلمة واحدة إلى جانب خفتها على اللسان ، حيث قال : " أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ،سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أُفرغ إفراغا واحدا وسُبك سبكا واحدا ، فهو

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٦.
(٢) نفس المرجع ١/ ٦٧.

يجرى على اللسان كما يجرى الدِهان ". (١)

نخلص مما سبق إلى أن الجاحظ قد وضع لنا أُسسا مميزة وعلامات واضحة نستطيع بها أن نفرق بين التركيب الجيد والتركيب الردىء وأثر كل منها على النفس .

ولم يَغِب عن ذهن هذا العالم الفَذّ أن يأتينا بأبيات من الشعر الجيد الذى لا تتباين ألفاظه ولا تتنافر أجزاؤه ، ومن ذلك قول الأجرد الثقفي :

من كانَ ذا عَضُدٍ يدرِكْ ظُلامته
إن الذليلَ الذى ليست له عضدُ
تنبو يداه إذا ما قلَّ ناصره
ويأنفَ الضَّيمَ إن أثرى له عددُ (٢)

وقول أبي حيَّة النميرى :

رمتني وسِترُ الله بيني وبينها
عشية آرامِ الكناسِ رميمُ
رميم التي قالت لجاراتِ بيتها
ضمنتُ لكم ألا يزالُ يهيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتني رميتها
ولكن عهدى بالنضال قديمُ (٣)

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/٦٧ .
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٣) نفس المرجع ١/٦٨ .
رمتني : أى بطرفها . ستر الله : الاسلام أو الشيب .
وآرام الكناس : اسم موضع . ورميم : خليلته .

فهذه الأبيات ،هي بعض ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين عن الأشعار التي لا تتباين ألفاظها ولا تتنافر اجزاؤها .

وبهذا يكون الجاحظ قد انفرد عمن سبقه بذكره لتنافر الكلمات والألفاظ . حيث إن الخليل بن أحمد قد تحدث وفصّل في تنافر الحروف بعضها مع بعض ولم يتعرض للألفاظ أو الكلمات . أما الجاحظ فقد تحدث عن الاثنين ،إلا أنه لم يتوسع في الحديث عن تنافر الحروف كما فعل الخليل ، وذلك لاكتفائه بما قاله الأوائل .

الفصل الثالث : إضافات الجاحظ في مجال دراسة الأصوات اللغوية .

الفصل الثالث

إضافات الجاحظ في مجال دراسة الأصوات اللغوية

عقدنا هذا الفصل لنميز فيه إضافات الجاحظ في مجال دراسة الأصوات اللغوية .

وسنتناول هذه الإضافات واحدة واحدة بادئين بما كانت الإضافة فيه متمثلة في جانب من جوانب موضوع تناوله السابقون على الجاحظ ، ثم نستمر في عرض الإضافات التي تتمثل في مسائل أو موضوعات لم يُسبق الجاحظ إليها .

١) - كلمته عن الضاد : (١)

أسلفنا أن الجاحظ قال : " أما الضاد فليست تخرج الا من الشِّدق الأيمن إلا أن يكون المتكلم أعسَرَ يَسَرا مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإنه كان يُخرج الضَّاد من أيِّ شدّقيه شاء . فأما الأيمن والأعسر والأضْبَط ، فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد " .

فهذه الكلمة لها أكثر من قيمة نفيسة :

أ - ولعل أهم ما فيها هو الارتفاع بوصف نطق الضاد إلى نطق الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولا بد أن لهذا الرفع سنده وإن لم يذكره الجاحظ ، ودواعي الوضع في هذا المجال أقل ، وقيمة هذا أنه يرتفع بالملاحظات الصوتيه إلى عهد عمر ، أى في العقد الثاني أو الثالث الهجري .

---

(١) هذا من كلامه عن المخارج والصفات أنظر ما سبق ص ٩٧ .

والملاحظات مبادئ العلم وأوائله . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذا الرفع يدفع تصورا عاما مؤداه أن الضوابط الصوتية أو التجويدية ربما ترجع إلى اجتهادات العلماء وتصورهم للنطق الفصيح أكثر من رجوعها إلى نطق فصحاء العرب أنفسهم . فهذه الرواية تثبت رجوع تلك الضوابط إلى فصحاء العرب بل وفي عصر الصحابة خاصة .

ب - ومن المهم في هذه الكلمة ذلك الوصف الدقيق لطريق خروج الضاد ، وذلك الربط بين حالة الناطق العامة من حيث كونه أعسَرَ يَسَرا ، أو أيمن أو أعسر فحسب ، وبين طريقة إخراج الضاد .

وهذه المعلومات القيمة تستحق أن تحسب من إضافات الجاحظ.

٢) - ما تختص به العربية من الأصوات :(١)

مما يمكن أن يُعد إضافة للجاحظ روايته قول الأصمعي : " وليس للروم ضَّاد ، ولا للفرس ثاء ، ولا للسُّرياني ذال ".(٢)

وقد أسلفنا أن الخليل ذكر ما تتميز به العربية من الأصوات وهي الظاء فقط . ورواية الأصمعي هذه تنفي وجود الضَّاد في الرومية (اللاتينية) والثاء في الفارسية ، والذال في السُّريانية . وبذا كثُر

---

(١) تجاوزنا الحديث عن الحروف الفرعية ، لأن تناول الجاحظ لها لا يمثل إضافات ذات بال .

(٢) انظر البيان والتبيين ١ / ٦٥ .

عدد الأصوات التي تتميز بها العربية (ربما مع لغات أخرى) ولكن درجة الاختصاص قلت ، لأنه تخصيص للعربية مقابل لغة بعينها في كل صوت - لا مقابل كل اللغات . فنقل هذه الرواية فائدة إضافية عن مقررات العلماء في ذلك العصر تحسب له.

٣) - تنافر الكلمات :

أسلفنا أن الخليل تناول تنافر الأصوات في الكلم ،وأن الجاحظ تناول تنافر الأصوات في الكلم (وهو المعروف بتنافر الحروف) وأنه تناول تنافر الكلمات أيضا .

وقد فصّلنا في ما سبق كلامه في تنافر الكلمات ،وحللنا ما يمكن أن يكون سر التنافر .

ولكن المهم هنا أن ننوه بأن الكلام عن تنافر الكلمات إضافة قيمة سُبق إليها الجاحظ ، ومثل لها بشاهد واضح ،وآخر يخفى التنافر فيه إلا على من له حس صوتي مرهف . وقد فصّل الجاحظ في الموازنة بين الكلام الخالي من التنافر ،والكلام الذى يكون بين ألفاظه المتجاورة ما بين أولاد العَلّات من التنافر .

٤) - إمكانات الجهاز الصوتي الإنساني :

لقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان جهازا صوتيا يستطيع بواسطة أعضائه السليمة أن يُكيف اللغة والأصوات على أشكال متعددة حسب إرادته . وهذه مِنَّةٌ لله على الإنسان لم يعطها الله لغيره. كما يستطيع أيضا بجهازه الصوتي السليم المُدَرَّب أن يكيف جوارحه

على حسب الأصوات التي ينطقها أو يقلدها . ومعروف أن مخارج الأصوات اللغوية كثيرة ، بل هي أكثر مما يظن أكثرنا .

فالجاحظ لم يخف عليه وهو العبقري الفَذّ أن يتبين ما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين من حيث إخراج أصوات لا تحصى . قال الجاحظ في أثناء حديثه عن الحروف التي تدخلها اللُّثغة : " فأما التي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخَط ، لأنه ليس من الحروف المعروفة وإنما هو مخرج من المخارج ، والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها . وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم ، وليس ذلك في شيء أكثر منه في لغة الخوز وفي سواحل البحر من أسياف فارسَ ناسٌ كثير ، كلامهم يشبه الصفير . فمن يستطيع أن يصور كثيرا من حروف الزمزمة والحروف التي تظهر من فم المجوسي إذا ترك الافصاح عن معانيه وأخذ في باب الكناية وهو على الطعام " (١) ؟!

فقول الجاحظ بأن المخارج لا تحصى ولا يوقف عليها ، كلام سَبق به عصره ، حيث إن هناك حقائق علمية ظهرت بعد الجاحظ أكدت صدق قوله . من ذلك الإحصاءات التي وردت في دائرتي المعارف : تشمبرز ، والبريطانية والتي دلت على أن الحروف الأبجدية التي وردت في اللغات تصل إلى نحو المئة . وفي نفس الوقت فإن أية لغة في العالم لا تستعمل ما يصل إلى (٤٠) صوتا أصليا .

فدائرتا المعارف قد أجرتا دراسة على بعض اللغات في العالم ، فوصلتا منها إلى أن الأصوات الصامتة في اللغات التي درستاها بلغت (٥٦) صوتا ، كل منها له مخرج خاص .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١ / ٣٤ .

وكذلك وجدت هناك نحو ٣٠ صوتا صائتا كل منها كذلك يخرج بطريقة خاصة ، فإذا نظرنا إلى هذا وأخذنا في الاعتبار أن هناك لغات كثيرة جدا لم تدخل في تلك الدراسة ولم يشملها الإحصاء ،وأنه ثبت علميا أن أداء الأشخاص للصوت الواحد لا يتفق تماما ،أمكن تصور أن عدد المخارج الصوتية يزيد على المئة.(١) وهذا الإحصاء ليس حاصرا لعدد الأصوات اللغوية كلها ،وإنما هي مثل لكثرة هذه الأصوات وتعددها.

كما أن هناك أصواتا لا تستطيع الكتابة أن تصورها إلى الآن. فالمعروف أن الخط أو الكتابة قد صاحبت اللغة والكلام في كثير من الأمور فدائما ما يصور الخط اللغة . إلا أنه في بعض الأحيان نجد أن القلم قد عجز عن تصوير مخرج من المخارج أو لغة من اللغات غير المكتوبة ، والتي لم يتفق أهلها على طريقة في كتابتها حيث لاحظ الجاحظ أن هناك أصواتا لغوية لا يصورها الخط لأنها ليست من الحروف المعروفة وذلك مثل (اللثغة التي على الشين المعجمة) فهي مخرج من المخارج ،والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها. وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم كالخوز ، والذين في سواحل البحر من أسياف فارس .

لذلك قال الجاحظ : إنه لا أحد" يستطيع أن يصور كثيرا من حروف الزمزمة والحروف التي تظهر من فم المجوسي ، إذا ترك الافصاح عن معانيه وأخذ في باب الكناية وهو على الطعام".(٢) بمعنى أنه يقول مثلا : نعم أو لا بصوت غامض (زمزمة).

---

(١) أصوات اللغة العربية د. محمد حسن جبل ص/٦٢ وهو عن دائرتي المعارف البريطانية وتشمبرز.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٤.

وفي الحياة الواقعية التي نعيشها ما يصدق قول الجاحظ إنّ "المخارج لاتحصى " وإنّ هناك من الأصوات التي يتفاهم بها ما لا يُكتب.(١)

---

(١) من الأصوات التي تُنطق ولا يصورها الخط ما جاء به أبو نواس من أبيات تتضمن إشارات تنطق ولا تكتب، وذلك أن الأمين ابن هارون الرشيد قد طلب منه أنْ يضع شعرا لا قافية له، فارتجل هذه الأبيات :

ولقد قُلت للمليحة قولي من بعيدٍ لمن يُحبك :

(إشارة قبله).

فأشارت بمعصمٍ ثم قالت من بعيد خلافَ قولك :

(إشارة لا لا).

فتنفستُ ساعةً ثم إني قلت للبغل عند ذلك :

(إشارة أمشي).

فتعجب جميع من حضر من اهتدائه وحسن تأتّيه، وأعطاه الأمين صلة شريفة ". (انظر كتاب العمدة لابن رشيق ١/١٠٣).

كما ورد في لسان العرب أن هناك أصواتا كثيرة تستعمل في التعامل مع بعض الحيوانات، مثل حكاية المتهته، أى أنّ (ته ته) زجر للبعير ودعاء للكلب، ومنه قوله :

عجبت لهذه نفرت بعيرى
وأصبح كلبنا فَرِحا يجولُ
يحاذر شرَّها جملي، وكلبي
يُرَجّي خيرها، ماذا تقولُ؟

(انظر اللسان مادة (تهته) ١٣/٤٨٢).

===

....

=== ف (تـه تـه) زجر للبعير ينفر منه ،وهي دعاء للكلب .

كما ورد في اللسان أن النقر : "صوت اللسان ،وهو إلزاق طرفه بمخرج النون ثم يصوت به ،فينقر بالدَّابَّة لتسير" . أى أنه يضع طرف لسانه فوق ثناياه مما يلي الحنك ثم ينقر . (انظر اللسان مادة (نقر) ٥/٢٣٠).

وقيل : " هو صوت اضطراب اللسان في الفم إلى فوق وإلى أسفل ، وقد نقر بالدَّابَّة نقرا . وهو صويت يزعجه ". (انظر اللسان مادة (نقر) ٥/٢٣٠).

هذا هو ما ورد في اللسان عن الأصوات التي تستعمل في التعامل مع بعض الحيوانات .

فهناك أصوات كثيرة تستعمل في التفاهم بين الناس بعضهم مع بعض ، أو في تعاملهم مع بعض الحيوانات ،وهي وإن كانت أشبه بالإشارات أو الرموز ،إلا أنَّها - نظرا لأنَّها صوتيه ،وتخرج من الفم ،وتستعمل في التفاهم أحيانا بين الناس - تستحق أن تُدرج بين الأصوات اللغوية التي لم تُذكر مخارجها ،كما أنَّها يصعب تدوينها بالأبجدية المعروفة .

فالمخارج التي لا تحصى ،والأصوات التي لا تستطيع الخطوط المعروفة أن تصورها موجودة في لغات كثيرة كالزمزمة والنقر . وذلك ما ينبه إليه كلام الجاحظ .

٥)- الحروف الأكثر دورانا في اللغة ومنهج إحصاء هذه الحروف :

كانت أصوات اللغة العربية مناط اهتمام كثير من الأئمة وتعددت اتجاهاتهم في هذا الاهتمام ،فمنهم من بحث في تحقيق مخارج الحروف وصفاتها .(١)

ومنهم من بحث في ما يأتلف وما يتنافر منها(٢) ، ومنهم من اهتم بإحصاء حروف القرآن الكريم(٣) ،ومنهم من اهتم بتعريف الحروف الأكثر دورانا في اللغة.(٤)

ولعل أقدم اهتمام (رسمي) بإحصاء الحروف هو طلب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى القراء أن يحصوا حروف القرآن الكريم ففعلوا ذلك .(٥)

ومن الطبيعي أن يستمر الاهتمام بأصوات اللغة العربية في أكثر تلك الاتجاهات إلى اليوم ، لأن اللغة هي صورة حياتنا الفكرية ، ثم إن العربية بصفة خاصة جديرة بمزيد الاهتمام لأنها وعاء القرآن الكريم

---

(١) انظر مقدمة معجم العين ٥٢/١ . تحقيق د . عبدالله درويش ،

(٢) انظر العين ٥٨/١ ، ٦٠ ، ٦٨ ... تحقيق عبدالله درويش.

(٣) انظر كتاب (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) للفيروزأبادى ٥٦٢/١ إلى ٥٦٦ .وكتاب الفتوحات الإلاهية لسليمان الجمل ٤/١ ، ٥ .

(٤) انظر البيان والتبيين ٢٢/١ .

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي (تفسير القرطبي) ٦٤/١ الطبعة الثالثة عن طبعة دار الكتب المصرية - دار الكاتب العربي ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

والحديث الشريف وهما يمثلان الدستور الخالد للأمة الاسلامية . والذى يعنينا الآن هو أن الجاحظ اهتم بتبيين الحروف الأكثر دورانا في اللغة والكلام ، وأنّه اختار لذلك منهجا خاصا غير منهج إحصاءات الجذور التي أُجريتْ على معاجمنا العربية .

أولا : المنهج الذى اتبعه الجاحظ :

لقد شرّع الجاحظ منهجا قويما في بيان أكثر الحروف دورانا في اللغة ، وذلك بأن نأخذ عدة رسائل أو خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم ، ثم نحصي حروفها كل شكل على حدة ، وذلك لمعرفة عدد مرات ورود كل حرف بعينه في كلمات تلك الخطب والرسائل بحيث يتبين لنا أى الحروف أكثر دورانا في الكلام وفي الكتابة .

ولقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين شعراً بيَّن فيه قائله أى الحروف أكثر دورانا في اللغة والمنهج الذى أُتبِع في إحصاء هذه الحروف ، حيث قال الجاحظ : أنشدني ديسم ، قال : أنشدني أبو محمد اليزيدىّ :

وخَلّةُ اللفظ في الياءات إن ذُكرت
كخلّة اللفظ في اللاماتِ والألفِ
وخَصْلَةُ الراء فيها غيرُ خافيةٍ
فاعرِفْ مواقعَها في القَول والصُّحفِ (١)

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٢ .

فعندما سمع الجاحظ هذه الأبيات استيقظ في داخله روح العالم المفكر ،فأخذ يفكر ويدبر في الأصوات اللغوية حتى تأكد أَنَّ الراء والياء واللام والألف من أكثر الأصوات ترددا ودورانا على ألسنة الناس والحاجة إليها أشد . ويعتبر هذا الأمر من ملاحظات الجاحظ في مجال الأصوات اللغوية ،لأنه بعد التفكر والتدبر في الأصوات استطاع أن يستخلص المنهج القويم لمعرفة أكثر الحروف دورانا على ألسنة الناس حيث قال : " واعتَبِر ذلك بأن تأخذَ عدَّة رسائل وعدَّة خطب . من جملة خطب الناس ورسائلهم ،فإنَّك متى حصَّلتَ جميع حروفها ،وعددتَ كل شكل على حده ، عَلِمْتَ أَنَّ هذه الحروف الحاجة إليها أشد ."(١)

ومن هنا نجد أن ملاحظات الجاحظ المتتابعة لما يقرأ أو يسمع ،جعلته يكتشف المنهج الذى بواسطته يستطيع المرء أَنْ يعرف أى الحروف أكثر دورانا على الألسنة .

فالمنهج الذى اتبعه الجاحظ لدوران الحرف يعتمد على الاستعمال . وأكثر صور الاستعمال وأثبتها للبحث والدراسة هي الخطب والرسائل وما هو من بابيهما .

----

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٢ .

ثانيا : المنهج الذى اتبعه المحدثون :

لقد أحصى المحدثون عدد مرات اشتراك كل صوت أبجدى في جذور العربية التي في معجم تاج العروس ،سواء أكانت هذه الأصوات ثلاثية أو رباعية أو خماسية . وكان هذا الإحصاء بواسطة الحاسوب (الكمبيوتر) فكانت كالتالي :

الحرف	مرات الورود
ر	٣٢٨٦
ن	٢٥٤٧
ب	٢٥٤٠
ل	٢٤٥٦
م	٢٢٧٨
ع	١٨٨٩
د	١٨٦٢
ق	١٧٨١
س	١٦٩٧
ف	١٦٣٥
ج	١٥٩٥
ش	١٤٠٥
ح	١٣٦٣
هـ	١٣٥٨
ك	١٣١٨

الحرف	مرات الورود
ط	١١٩٩
ز	١١٣٧
خ	١١١١
ت	١٠١٣
ص	٩٣١
أ	٨٧٤
غ	٧٩١
ث	٧٧٧
ذ	٦٥٨
ض	٥٧٠
ظ	٢٥١

ثالثا : المقارنة بين المنهجين لمعرفة المنهج الأفضل والأدق لمعنى الدوران :

ذكرنا أنّ منهج الجاحظ قائم على أساس إحصاء الحروف الواردة في الخطب والرسائل ، حيث قال : " واعتَبِر ذلك بأن تأخذ عِدّة رسائل وعِدّة خطب . من جملة خطب الناس ورسائلهم ، فإنك متى حصّلت جميع حروفها ، وعدّدت كل شكل على حِدة علمت أنّ هذه الحروف الحاجة إليها أشد ".(١) ويقصد بهذه الحروف هي : (اللام ، والياء ، والألف والراء) .

أما منهج المحدثين فقائم على أساس إحصاءات الحروف الواردة في جذور المعاجم . ومن هنا يبدأ الاختلاف ، لأنّ إحصاءات المحدثين للحرف تعتمد على شيء ثابت وهي الحروف الموجودة في جذور المعاجم . أما الجاحظ فيعتمد على إحصاءات الحروف في النصوص المستعملة بين الناس .

فلو أمعنا النظر قليلا في المنهجين لوجدنا أنّ معنى الدوران والتردد للحرف يكون في الاستعمال ، لأننا لو أحصينا مثلا عدد مرات ورود (الراء) في أقوال الخطباء وما في الكتب الموجودة ، لوجدنا أنّ (الراء) تَرِدُ هنا في هذه النصوص المستعملة أكثر مما تَرِدُ في المعاجم ، لأنّ الكلمات الموجودة في المعاجم محدودة ، فهي قاصرة على أصول الكلمات ، بالإضافة إلى أنّ هذه الكلمات قد أُحصيت بعد تجريدها من الزوائد ، حيث اعتمد فقط على أصل الكلمة .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٢ .

أما بالنسبة للنصوص المستعملة في الخطب والرسائل فإنها تحصى دون تجريدها من الزوائد إضافة إلى أنَّ الإحصاء يشمل مشتقات الكلمة لو ذُكرت معها في السياق ، لذلك نجد أَنَّ عدد مرات ورود الحرف في هذه النصوص أكثر من عدد مرات ورودها في المعاجم . وإليكم الآن الجدول الذى يوضح الفرق بين المنهجين :

	إحصاء تردد الحروف في الجذور المعجمية	إحصاء تردد الحروف في مستعمل الكلام
١ -	جذور مجردة	جذور مجردة ومزيدة
٢ -	جذور فقط	جذور و مشتقاتها
٣ -	الجذر تحسب حروفه مرة واحدة	الجذر تحسب حروفه بعدد مرات استعماله واستعمال مشتقاته في النص
٤ -	إحصاء لمادة ثابتة	احصاء لمادة جارية
٥ -	نتيجة الإحصاء ثابته	نتيجة الإحصاء يمكن أَنْ تتغير تفاصيلها و معدل الصورة الإجمالية قد يظل ثابتا

ومن هنا يظهر الفرق بين منهج الجاحظ و منهج المحدثين وذلك من ناحية الدوران للحرف .

فمنهج الجاحظ مع سبقه الذى لا يخفى منهج صحيح متكامل ، فهو أشمل وأدق في التعبير عن كثرة الدوران ، لأَنَّ دوران الحرف على

ألسنة الناس تظهر من خلال إحصاء ما في خطبهم ورسائلهم ، وعلى هذا يكون الأخذ من الاستعمال أدق وأشمل من الأخذ من إحصائيات المعاجم الجامدة .

ولا شك أنّني في تفضيلي لمنهج الجاحظ في إظهار أكثر الحروف دورانا في اللغة عن منهج المحدثين إنّما هو ناتج عن شمول منهج الجاحظ ودقته في الإحصاء . وهذا الأمر لا يُنْقِصُ من جهود هؤلاء العلماء الأجلاء ، لأنّ عملهم هذا قيم ومفيد للغة العربية من نواحي أخرى غير الدوران ،والدليل على ذلك أنّني قد اعتمدت على إحصائياتهم للمعاجم في معرفة الحروف المتنافرة التي لا تجتمع في الكلمة الواحدة ، وذلك في مَعْرِضِ حديثهم عن تتابع الحروف .

رابعا : ذكر بعض الإحصاءات القديمة التي أحصت ما في القرآن الكريم من حروف :

بعد الاستيفاء من عرض المنهجين والمقارنة بينهما يطيب لي الآن أن أقوم بعرض بعض النماذج التي أحصت ما في القرآن الكريم من حروف . ويكون هذا الإحصاء بمثابة مَثَلٍ واستشهاد لما يريده الجاحظ عن كيفية إحصاء الحروف في النصوص المستعملة وذلك لبيان أكثر الحروف ترددا في اللغة .

ومن النصوص التي اعتمدت عليها هنا ،نص في كتاب (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) للفيروزآبادى حيث وردت فيه رواية لعبد الواحد الضرير ، ورواية لأبي الفضائل المعيني ، وكلا الروايتين كانت تحصي حروف القرآن الكريم.(١)

وهناك أيضا نص للإمام النسفي في كتابه (مجموع العلوم ومطلع النجوم) وفيه تحدث من تفصيل حروف القرآن .(٢)

وعندما رتبت الحروف في النصوص الثلاثة ترتيبا تنازليا ونظرت إلى العشرة الحروف الأولى ، اتضح لي صدق ما قاله الجاحظ من أنّ الأحرف الأربعة وهي (الياء ،واللام ،والألف ،والراء) من أكثر الحروف ترددا في اللغة ، والحاجة إليها أشد .

وفيما يلي عرضٌ شاملٌ للاحصاءات الثلاثة التي أحصت ما في القرآن الكريم من حروف :

---

(١) انظر بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ١/ ٥٦٢ إلى ٥٦٦ .

(٢) لقد ورد نص الإمام النسفي في كتاب (الفتوحات الإلاهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية) تأليف سليمان الجمل ١/ ٤ ، ٥ .

١) - الترتيب التنازلي لحروف القرآن الكريم في رواية عبد الواحد الضرير:

الحرف	عدد مرات وروده في القرآن الكريم
أ	٤٨٨٠٠
ل	٣٣٥٢٢
و	٢٦٥٦٥
ن	٢٦٥٢٥
م	٢٦١٣٥
ى	٢٥٩٠٩
هـ	١٩٠٧٠
ر	١١٧٩٣
ب	١١٢٠٢
ك	١٠٣٥٤
ت	١٠١٩٩
ع	٩٠٢٠
ف	٨٤٩٩
ق	٦٨١٣
س	٥٨٩١
د	٥٦٤٢
ذ	٤٦٩٩
لا	٤٠٩٩
ح	٣٩٩٠

الحرف	عدد مرات وروده في القرآن الكريم
ج	٣٢٧٣
خ	٢٤١٦
ط	٢٢٧٤
ش	٢٢٥٣
ض	٢٢٠٩
غ	٢٢٠٨
ز	١٥٧٠
ث	١٢٧٦
ص	١٠٨١
ظ	٨٤٢

٢) - الترتيب التنازلي لحروف القرآن الكريم في رواية أبي الفضائل المعيني :

الحرف	عدد مرات وروده في القرآن الكريم
أ	٤٨٠٩٢
ن	٤٥١٠٩
ل	٣٣٥١٢
م	٢٦٧٥٥
ى	٢٥٩١٩
و	٢٥٥٨٦
هـ	١٦٠٧٠

الحرف	عدد مرات وروده في القرآن الكريم
ب	١٢٤٢٨
ر	١٢٢٤٦
ك	١٠٥٢٨
ع	٩٤١٧
ف	٨٤١٩
ق	٦٢١٣
س	٥٩٩٦
د	٥٩٧٨
ذ	٤٩٣٩
لا	٤٩٠٩
ج	٤٣٢٢
ح	٤١٣٠
ز	٣٠٣٦
خ	٢٥٠٥
ت	٢٤٠٤
ط	٢٢٧٤
ش	٢١١١
ض	٢٠٣٧
ص	١٦٧٢
غ	١٢١٧
ث	١١٠٥
ظ	٨٤٢

٣) - الترتيب التنازلي لحروف القرآن الكريم في نص الإمام النسفي :

الحرف	عدد مرات وروده في القرآن الكريم
أ	٤٨٧٤٠
ل	٣٣٩٢٢
م	٢٨٩٢٢
هـ	٢٦٩٣٥
ى	٢٥٧١٧
و	٢٥٥٠٦
ن	١٧٠٠٠
لا	١٤٧٠٧
ب	١١٤٢٠
ت	١٠٤٨٠
ف	٩٨١٣
ع	٩٤٧٠
ق	٨٠٩٩
ك	٨٠٢٢
د	٥٩٩٨
س	٥٧٩٩
ذ	٤٩٣٤
ح	٤١٣٨
ج	٣٣٢٢

الحـرف	عدد مرات وروده في القرآن الكريم
ص	٢٧٨٠
خ	٢٥٠٣
ر	٢٢٠٦
ش	٢١١٥
ض	١٨٨٢
ز	١٦٨٠
ت	١٤٠٤
غ	١٢٢٩
ط	١٢٠٤
ظ	٨٤٢

لو تأملنا العشرة الحروف الأولى في النصوص الثلاثة ،لوجدنا أنّ الألف قد تصدرت قائمة هذه الجداول الثلاثة لأنّها من أكثر الحروف ترددا في هذا النص الكريم.

كما وردت (اللام ،والياء ،والراء) من ضمن العشرة الحروف كثيرة التردد ، مع اختلاف ترتيبها وأعداد ترددها ،إلا أنّ هناك اختلافا في نص الإمام النسفي بالنسبة للراء ،حيث وردت متأخرة عن العشرة الحروف الأولى باحد عشر حرفا ،وهي بذلك مخالفة لما في رواية عبد الواحد الضرير وأبي الفضائل المعيني ،فقد وردت عندهما من ضمن العشرة الحروف الأولى .

كما أجمعت جميع الإحصاءات القديمة والحديثة على أنّ حرف (الظاء) من أقل الحروف ترددا في اللغة.

ونجد في مقدمة اللسان ما يؤيد إحصاءات العلماء للنص الكريم ، حيث قال ابن منظور : "إنّ من الحروف ما يتكرر ويكثر في الكلام استعماله ،وهو : أ ل م هـ و ى ن ، ومنها ما يكون تكراره دون ذلك ، وهو : ر ع ف ت ب ك د س ق ح ج ، ومنها ما يكون تكراره أقل من ذلك ،وهو : ظ غ ط ز ث خ ض ش ص ن "(١) ، فهذا الذى ذكره ابن منظور يؤيد إحصاءات الأئمة للقرآن الكريم ، وبالتالي يكون هذا تأييدا لما أراده الجاحظ من أنّ (الألف ، والياء ، واللام ، والراء) من أكثرالحروف دورانا في اللغة ،ومنهجه في ذلك مأخوذ من الاستعمال ،وأكثر الاستعمال يكون في الخطب والرسائل وما هو من بابيهما.

----

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ١/ ١٤.

٦) - الامتحانات الصوتية :

لقد تنبه الجاحظ ونبهنا إلى فكرة الامتحانات الصوتية وذلك من خلال دراساته لحروف الكلام وحكمها إذا تمكنت في الألسنة فهو يرى" أن السِّندِيَّ إذا جُلِبَ كبيرا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام في عليا تميم ، وفي سفلى قيس ، وبين عجز هوازن خمسين عاما ."(١)

وكذلك الأمر بالنسبة للنبطي القح الذى يجعل الزاى سينا ، والعين همزة . ولقد ذكر الجاحظ : " بأن النخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رُّومية وأهلها يزعمون أنها مولّدة بأن تقول ناعمة ، وتقول شمس ثلاث مرات متواليات ".(٢)

فالجاحظ يريد أن يبين هنا بأن الجارية الرُّومية لا تستطيع أنْ تنطق كلمة (ناعمة) و (شمس) ثلاث مرات متواليات ، دون أن تجعل العين همزة ، فتقول في ناعمة (نائمة) . وأن تجعل الشين في (شمس) سين ، فتقول : (سمس) . فلو زعم أهلها أنها مولّدة ، فإن هذا الامتحان الصوتي ممكن أن يكشف عن هويتها ، مهما حاولت أنْ تنطقه بطريقة صحيحة ، لأن عادة المنشأ لا بد وأنْ تظهر عليها ، بدليل ما ذكره الجاحظ من أنّ السنديَّ الذى يُجْلَبُ كبيرا لا يستطيع أنْ ينطق الحروف صحيحة حتى ولو مكث خمسين عاما بين القبائل العربية .

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٧٠ ،

(٢) نفس المرجع ١/٧١ .

فطريقة نطق السّنديّ لبعض الحروف دلّت على جنسه ، لأنّ كُلّ جنس له عاداته اللغوية تبعا للغته الأصلية . وكذلك الأمر بالنسبة للنبطيّ والروميّ .

وفكرة الامتحان الصوتي التي ذكرها الجاحظ فكرة موحية إذْ أنّ مثل هذا الامتحان الصوتي يمكن أنْ يُسْتَغَلّ الآن لكشف جنسية الشخص ولو بشكل عام قياسا على امتحان الجوارى الذى ذكره الجاحظ .

كما أنه يمكن أن يُجرى لمن يتقدمون لوظائف التدريس للأطفال تجنبا لتولي المصابين بعيوب نطقية فاحشة لهذه الوظيفة ،لأنّ الأطفال يتأثرون بمدرسهم وقد يقلدونه في نطقه فتفسد لغتهم.

٧) - بعض الدراسات المقارنة في الأصوات :

للجاحظ ملاحظات طيبة تدخل في مجال الدراسات المقارنة للأصوات ، فمنها ما لاحظه هو ، ومنها ما أورده من أقوال العلماء .

(أ) - فمن ملاحظاته قوله : " ولكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين ، واستعمال الجرامقة للعين ". (١)

أى أنه لاحظ أنّ الروم تكثر من استخدام حرف (السين) في كلامها واستعمالاتها اللغوية.

كما أنّ الجرامقة (وهم طائفة الكلدانيين ، أو الصابئة) يكثرون من استعمال حرف (العين) في كلامهم.

ولا شك أنّ هذه الملاحظة لا تصدر عن الجاحظ إلا بعد إنعام النظر إلى تلك اللغات ، يشبه المقارنة.

ثم إنّه يُستخلص من سياق ما ذكره الجاحظ أنّ هناك لغات أخرى لها حروف تدور في أكثر كلامها ، ولكنه لم يشر إليها ، واكتفى بما أورده كمثال بالنسبة للروم والجرامقة .

ولقد استخلصت هذا الرأى من خلال قوله : " لكل لغة ...) بمعنى كل اللغات أو معظمها . وأيضا من خلال قوله : (كنحو ...) أى كأنّه قد ذكر الروم والجرامقة على سبيل المثال لا الحصر .

(ب) - كما أورد الجاحظ قول الأصمعي : " وليس للروم ضادٌ ، ولا للفرس ثاءٌ ، ولا للسّرياني ذالٌ ". (٢)

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٦٤ .

(٢) المرجع نفسه ١/ ٦٥ .

فلو أنعمنا النظر قليلا فيما قاله وأورده ، لظهر لنا مدى اهتمامه الكبير باللغات الأخرى إلى جانب اللغة العربية . حيث نجده قد قارن بين اللغات المعروفة في ذلك الوقت ، فاستخلص بذلك أهم خصائصها وأصواتها اللغوية التي تستخدمها وتكثر في استعمالاتها ولغتها .

وهذا دليل آخر على مدى اهتمامه باللغات والأصوات ، حيث نجده قد أَلَمَّ بدراسات الأئمة السابقين في هذا المجال ، وقد أورده في كتابه كاستشهاد وتأييد لما قاله ووصل إليه من دراسات صوتية . فهو هنا قد بَيَّنَ من خلال ما أورده عن الأصمعي أَنَّ الروم لا تستخدم حرف (الضَّادِ) في لغتها نهائيا ، إلى جانب كونها تُكثر من استعمال حرف (السين) .

أَمَّا السريانيون فإنهم لا يستعملون حرف (الذال) في كلامهم ولغتهم ، وإنما يكثرون من استعمال حرف (العين) .

أَمَّا بالنسبة للفرس فإنهم لا يستعملون حرف (الثاء) في كلامهم نهائيا . مع العلم بأَنَّ كل هذه الحروف التي لم ترد عندهم ، قد وردت في اللغة العربية ، وهذا دليل على شمول هذه اللغة واتساعها .

وأخيرا ، أرجو أن يكون هذا الذى ذكرناه سابقا ، قد وضح بعض جهود الجاحظ في مجال الدراسات المقارنة للأصوات .

٨) - إيحاءات الأصوات :

إنَّ اهتمام الجاحظ بالأصوات اللغوية ودراسته لها دراسة عميقة ، جعله يهتم بكل خصائصها ودلالاتها وإيحاءاتها ، ويتقصى كل ما يقال عنها ، حيث اعتمد في دراسته للأصوات على ثلاثة روافد منها :

ما رواه غيره ووصل إليه من ملاحظات في مجال الدراسة الصوتية .
ولقد سبق أنْ أشرت إلى هذه الروافد الثلاث فيما سبق.(١)

ومن الدراسات الصوتية التي رواها عن غيره هو ما أورده في كتابه عن المحاورة التي جرت بينه وبين الشيخ الإباضي في مسألة كراهية هذا الشيخ للشِّيعة . حيث قال الجاحظ : "قلت : وما أنكرت من التشيُّع ومن ذكر الشِّيعة ؟ قال : أنكرتَ منه مكان (الشِّين) التي في أوّل الكلمة ، لأنِّي لم أجد الشِّين في أوّل كلمةٍ قطُّ إلا وهي مسخوطة مثل : شؤم ، وشرّ ، وشيطان ، وشغب (٢) ، وشحّ ، وشمال ، وشَجَن (٣) ، وشيب وشَيْن (٤) ، وشراسة ، وشَنَج (٥) ، وشَكّ ، وشوكة ، وشَبَث (٦) ، وشرك ، وشارب (٧) ، وشطير (٨) ، وشطور (٩) ، وشِعرة (١٠) ، وشانِي (١١) ،

---

(١) انظر ما قيل سابقا عن منهج الجاحظ في الوصول إلى الحقائق الصوتية ص ٨٩ .
(٢) تهييج الشر والفتنة والخصام (انظر اللسان مادة شغب) ١/ ٥٠٤
(٣) الهم والحزن (انظر اللسان شجن) ١٣/ ٢٣٢
(٤) وهو خلاف الزين أي العيب القبيح (انظر اللسان شين) ١٣/ ٢٤٤
(٥) الشنج : تقبض الجلد . وهذا المعنى ذكره محقق الحيوان (د . عبد السلام هارون) .
(٦) الشبث : العنكبوت أو دويبة كثيرة الأرجل . (انظر ما ذكره محقق الحيوان د . هارون) .
(٧) الشارب : مولع بالشراب ، كخمير (انظر اللسان مادة شرب) ١/ ٤٨٨
(٨) الشطير : الغريب . وأيضا البعد (انظر اللسان شطر) ٤/ ٤٠٨
(٩) الشطور : إذا نزح عنهم وتركهم مراغما أو مخالفا واعياهم خبثا . (انظر اللسان شطر) ٤/ ٤٠٨
(١٠) الشِعره : المراد بها شعر العانة (د . هارون) .
(١١) الشاني : المبغض العدو .

وشتْم ،وشتيم (١) ،وشِيطَرْج (٢) ،وشنعه (٣) ،وَشناعة (٤) ،وشأمة (٥)
وشوصة (٦) ، و شتر (٧) ،وشجوب (٨) ،و شَجَة (٩) ،شَطُون (١٠) ،
وشاطن (١١) ، و شَن (١٢) ، و شلل ،و شِيص (١٣) ،وشاطر (١٤) ،
وشاطره ،وشاحب .

قلت له : ما سمعتُ متكلّماً قطُّ يقول هذا ولا يبلُغه ،ولا يقومُ لهؤلاء القَوم قائمةٌ بعد هذا ". (١٥)

---

(١) الشتيم : الكريه الوجه .
(٢) الشيطرج : نبت يوجد بالقبور الخراب ،ورائحته ثقيلة وحادة ، وطعمه مر (د. هارون) .
(٣) الشّنعة : سَبّه ، وقيل استقبحه وسئمه (انظر اللسان شنع)٦/ ١٨٧
(٤) الشناعة :الفظاعة والقبح (انظر اللسان شنع)٨/ ١٨٦
(٥) الشأمة : من الشؤم ، ضد اليمنة والميمنة (د. هارون) .
(٦) الشوصة : وجع في البطن ،أو ريح في الأضلاع أو ورم في حجابها . (د.هارون) .
(٧) الشتر : القطع ، أو انقلاب الجفن من أعلى وأسفل وانشقاقه .
(٨) الشجوب : العطب والهلاك ،والحزن (انظر اللسان شجب)١/ ٤٨٣
(٩) الشجة : قِصاصَ شعره (انظر اللسان شجج)٢/ ٣٠٤
(١٠) الشطون : البعيدة (د. هارون) .
(١١) الشاطن : الخبيث .
(١٢) الشن القربة الخلق الصغيره (د. هارون) .
(١٣) الشيص : أردأ التمر ،ووجع الضرس أو البطن (د. هارون) .
(١٤) شاطر : الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثا ،أو اللص .
(١٥) انظر الحيوان للجاحظ ٣/ ٢٢ .

فهذه المحاورة التي جرت بين الجاحظ والشيخ الإباضي أبرزت فكرة استيحاء المعاني من جرس الصوت الأبجدى ،وذلك مثل الشيخ الإباضي الذى يكره الشيعة لكراهته لحرف الشين الموجودة في أول اسمهم ، لأنه يرى أَنَّ الكلمة التي تبدأ بها لا تدل على خير أبدا ،حيث إِنَّ معظم الكلمات التي أوردها وكانت تبدأ بحرف الشين تدل على معنى سيء وخبيث ،ومن أجل هذا الأمر كره الشيعة .

ولي على هذا الأمر تعليق يسير وهو أن هذا الاعتقاد غير صائب لأن هناك كلمات كثيرة تبدأ بحرف الشين وكلها في معنى الخير وذلك مثل الشوق ،والشبع ،والشهامة ،والشمم ،والشباب ،والشحم والشهاب والشهداء، والشدة ضد الضعف ... وغيرها واعتقد أن هذا الاعتقاد الخاطيء للشيخ الاباضي ناتج عن كراهته للشيعة وقد صادف ذلك هوى في نفس الجاحظ.

٩) تعليل تنوع الأصوات اللغوية وكثرة الألفاظ :

لقد أورد الجاحظ رأى الهند في سبب اختلاف كلام الناس من حيث اللِّينُ والشِّدَّةُ والمدّ والقَطْعُ حيث قال : " وتزعم الهندُ أَنَّ سببَ ماله كثُرَ كلامُ الناس واختلفَتْ صُوَرُ ألفاظِهم ،ومخارِجُ كلامِهم ، ومقاديرُ أصواتهم في اللِّينِ والشِّدَّةِ وفي المدِّ والقَطْعِ - كثرةُ حاجاتهم.

ولكثرةِ حاجاتهم كثرتْ خواطرُهم وتصاريفُ ألفاظِهم ،واتَّسعتْ على قدرِ اتّساع معرفتهم ".(١)

أى أَنَّ حاجة الإنسان هي السبب في تولُّدِ هذه المخارج والصور من الألفاظ ،فاتساعها يكون على قدر اتساع معرفتهم وحاجاتهم . ولقد وضح الجاحظ هذا الرأى ،بما أورده من قول أحدهم عن السنانير ،حيث قال : " قالوا : فحوائج السَّنانير لا تعدُو خمسةَ أوجه : منها صياحُها إذا ضُربت ،ولذلك صورة . وصياحُها إذا دعت أخَواتها وآلافَها ،ولذلك

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٤/٢١،٢٢ .

صورة . وصياحها إذا دعت أولادها للطعم ،ولذلك صورة . وصياحها إذا جاعت ،ولذلك صورة . فلما قلّت وجوه المعرفة ووجوه الحاجات ، قلّت: وجوه مخارج الأصوات . وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها". (١)

إنّ تفسير تنوع أصوات اللغة وصور ألفاظها ،وكثرة تلك الألفاظ بكثرة حاجات الناس فكرة طريفة وصادقة معا ، لأنّ اللغة إنّما وُجدت للتعبير عن أغراض الناس وحاجاتهم (٢). فكلما اتسعت الأغراض والحاجات وتنوعت اقتضى ذلك تنوع التعبير واتساعه. وهذه الفكرة تُحسب للجاحظ بالرغم من نسبته إياها للهند ، لأنّ استحضارها واستثمارها في مجالها يعني قبوله إياها وأنّه جعلها ضمن مخزون ثقافته.

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٤/ ٢٢.

(٢) عَرّف ابن جني اللغة بأنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. انظر الخصائص تأليف أبي الفتح عثمان بن جني تحقيق محمد علي النجار ١/ ٣٣.

١٠) - العلة في صعوبة بعض اللغات وسهولتها:

لقد ذكر الجاحظ أنّ صعوبة اللغة أو سهولتها راجع إلى ائتلاف أصواتها وألفاظها، لأنّ سلاسة اللغة وخفة ألفاظها لها أكبر الأثر في سهولة هذه اللغة على الألسن. حيث قال الجاحظ:

"واللغات إنّما تشتدّ وتعسُرُ علَى المتكلم بها علَى قدْر جهله بأماكنها التي وُضعت فيها، وعلَى قدْر كثرةِ العدد وقِلّته، وعلى قدْرِ مخارجها، وخفّتها وسَلَسها، وثِقلها وتعقّدِها في أنفسها، كفرق ما بين الزّنجي والخُوزى، فإن الرجلَ يتنخّس في بيع الزّنج وابتياعهم شهرا واحدا، فيتكلّمُ بعامّة كلامهم، ويبايع الخُوزَ، ويجاورُهم زمانا فلا يتعلّق منهم بطائل".(١)

يريد الجاحظ أنْ يبيّن أنّ العلة في صعوبة بعض اللغات وتعسرها على المتكلم راجع إلى عدّة أمور منها: جهله بأماكن هذه اللغات ومواطنها التي نشأت فيها، ولعله يقصد بهذا جانب الدلالة حيث إنّ اللغة تصور بيئتها، فإذا لم يعرف المرء تلك البيئة صعب عليه الاهتداء إلى حقيقة المراد بهذا اللفظ وهذا التعبير أو ذاك.

ومنها تعقد هذه اللغات وثقلها على الألسن نتيجة لصعوبة مخارجها وألفاظها وذلك من تركبها من حروف متنافرة أو متقاربة الأجراس بحيث تلتبس على غير أهلها، وأيضا قد ترجع الصعوبة إلى كثرة العدد وقلته، والمقصود كثرة عدد الألفاظ والمترادفات وتشعب معانيها.

----

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٥/٢٨٩.

أمّا بالنسبة لسهولة اللغة وسلاستها ،فإنّه راجع إلى خفة ألفاظها وذلك من حيث تركبها من حروف غير متنافرة ،أو معرفة أماكن هذه اللغات ومواطنها ،أو لسهولة مخارجها وألفاظها ،وأيضا معرفة كل ما يطرأ عليها من تغيرات ،فاللغة العربية مثلا لو عرف الإنسان بيئتها الأصيلة وألفاظها المعبّرة عن تلك البيئة ، كما عرف مرادفاتها والمعاني التي تندرج تحت كل لفظ ،لسهل عليه الأمر واستطاع أنْ يستوعب هذه اللغة وينطقها بسهولة . والدليل على سلاسة اللغة العربية وخفة ألفاظها هو سرعة تعلم الناس الداخلين في الاسلام لها من الفرس والروم وغيرهم.

كما نجد أنّ كثيرين من الأئمة الذين برزوا في هذه اللغة وأصبحوا من أَجَلّ علمائها وباحثيها كانوا من غير العرب .

ومع ذلك نجدهم قد فاقوا بعض العرب في معرفتهم بهذه اللغة وخصائصها .

ولقد أتى الجاحظ بمثالين يؤكد بهما رأيه في صعوبة بعض اللغات وسهولتها ،فذكر أنّ لغة الخوز صعبة وعسيرة لدرجة أنّ من يجاورهم زمنا طويلا لا يتعلق منهم بطائل.

كما ذكر بأن لغة الزّنج سهلة وخفيفة يستطيع المرء أنْ يتكلم بعامة كلامهم لو مكث معهم شهرا واحدا .

(١)- أثر التدريب في تعلّم اللغة :

لقد ذكر الجاحظ بأنّ اللغة وسيلةٌ يُمكن للمرءِ اكتسابُها وتعلّمها عن طريق التدريب والمثابرة .

ولقد نوّه بذلك في قوله : " وعلى أنّك قد تُعلّم الطّيرَ ، الأصواتَ فتتعلّم ،وكذلك يُعلّم الإنسانَ الكلامَ فيتكلم ، كتعليم الصبيّ والأعجميّ ".(١)

وقال : " وقد علّم اللهُ اسماعيلَ منطِق العرَب بعد أنْ كان ابنَ أربعَ عشرةَ سنة ،فلما كان ذلك على غير التلقين والتأديب والاعتياد والترتيب والمنشأ ، صار ذلك برهانا ودلالةً وأُعجوبةً وآيةً ".(٢)

كما أورد قول الله عز وجل مخبرا عن سليمان : ﴿ ياأيُّها النّاسُ عُلّمنا مَنْطِقَ الطّيْرِ ﴾(٣) إلى جانب قوله : " إذا ترك الإنسان القولَ ماتت خواطِرُه ،وتبلّدت نفسه ،وفسد حسه ، وكانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ،ويعلّمونهم المُناقَلات ،ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب، لأنّ ذلك يفتق اللّهاة ويفتح الجِرْم ".(٤)

كما ذكر أثر التدريب في اللّثغة التي على الغين ، حيث قال: " فأمّا التي على الغين فهي أيسرهُنّ ،ويقال إنّ صاحبَها لو جَهَد نفسه

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٧/٥٧، ٥٨.

(٢) نفس المرجع ٧/٥٨.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) البيان والتبيين ١/٢٧٢.

جَهْدَه ،وأحدّ لسانه ،وتكلّف مخرج الراء على حقها والإفصاح بهـــا ، لم يكُ بعيدا من أَنْ تجيبه الطبيعة ويؤثر فيها ذلك التعهُّد أثـرا حسنا."(١)

وقال : " كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلمْ ،بالغيـــن ، فإذا حُمَل على نفسه وَقوَّم لسانه أخرج الراء على الصحة فتأتي له ذلك ، وكان يدع ذلك استثقالا . أنا سمعت ذلك منه ."(٢)

نخلُصُ من هذا كله إلى أَنَّ اللغة كغيرها من الأمور التي تُعرَّف وُتكتسب بالتعلُّم والتدريب ،لأَنَّ المثابرة على التلقين والتأديب والاعتياد ، لا بد وأَنْ يعطينا نتيجة حســـنة وجيدة .

ولا يقتصر التدريب والتعلّم على الإنسان فقط ، بل يتعداه إلى الطير أيضا حيث ذكر الجاحظ بأَنَّ الطيرَ قادرٌ على تعلّم الأصوات وحكايتها إذا ما درَّبه الإنسان على ذلك ولقَّنه .

والذى يؤكد أثر التدريب في تعلّم اللغة هو ما ذكره الجاحظ عن تعلّم اسماعيل لمنطق العرب وذلك في قوله : (فلما كان ذلك على غير التلقين والتأديب والاعتياد والترتيب والمنشأ ، صار ذلك برهانـــا ودلالة وأُعجوبةً وآية). يريد أَنَّ الذى يتعلم اللغة من غير تدريـــب وتلقين واعتياد ،يكون ذلك من المعجزات والأعاجيب التي تكون مـن

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٦.
(٢) نفس المرجع ١/ ٣٧.

صنع الله سبحانه وتعالى ، لتكون آية للناس . حيث علّم الله سبحانه وتعالى سليمان عليه السلام منطق الطير ، وعلّم إسماعيل عليه السلام منطق العرب ، وذلك من غير تدريب وتلقين . وهذه آية من آياته سبحانه .

ولذلك نجد أَنَّ العرب قد فَطِنوا لأثر التدريب في التعلُّم لذلك كانوا يروُّون صبيانهم الأرجاز ويدربونهم عليها ، كما يُعلِّمونهم المُناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب حتى تتعود حلوقهم على النطق الصحيح .

كما أَنَّ علاج بعض العيوب النطقية يكون بالتدريب والمثابرة والجهد ، حيث إِنَّ التدريب ولا شك ، سوف يعطينا نتيجة مرضية في إزالة العيوب النطقية وتعلُّم اللغة .

١٢) - اهتمام الجاحظ بأصوات الحيوانات :

لم تقتصر جهود الجاحظ على دراسة الأصوات اللغوية عند البشر فقط ، بل تعدتها إلى دراسة الأصوات عند الحيوانات ،وذلك لمعرفة ما يتأتّى في أصواتها من الحروف ،ومدى مقدرتها على تقليد الأصوات ، وفهمها للكلام وتأثُرها بها إلى جانب تسمية بعض الناس لهذه الحيوانات بأصواتها ،وغير ذلك من الاهتمامات الأخرى التي تَطَرّقَ لها الجاحظ . وأكبر دليل على جهوده في هذاالمجال، ما ذكره في كتابه (الحيوان) من دراسات وملاحظات له أو لغيره ،أَظهرتْ مدى اهتمامه بهذا النوع من الدراسة.

وسيكون الحديث في هذا الموضوع من عِدَّةِ نواحي :

أ - ما يتأتى في أصوات الحيوانات من الحروف :

لقد تعرض الجاحظ كثيرا لمسألة الحروف التي تتأتّى من أفواه بعض الحيوانات والطيور وذلك في كتابيه (الحيوان) و (البيان والتبيين) وبيّن أن لِعِرَضِ اللسان تأثيرا في ذلك حيث قال : " زعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان أنّ الطائرَ والسبُع والبهيمةَ كلّما كان لسانُ الواحد منها أعرضَ كان أفصحَ وأبْيَنَ ،وأحكى لما يُلَقَّن ولما يَسْمَع، كنحو الببغاء والقُداف وغراب البَيْن "(١) . وذكر أرسطو أنّ

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٦٢/١.

"الطائرُ العريض اللّسان يُنغِم ببعض حروف الكتاب أكثر من الطائرِ الضيق اللسان ".(١)

كما ذكر الجاحظ أنّ الهنود يزعمون أنّ الفيلَ لولا أنّه مقلوبُ اللسان لكان أنطقَ من كلِّ طائرٍ يتهيّأُ في لسانه كثيرٌ من الحروف المقطّعة المعروفة .(٢)

ومن الحيوانات والطيور التي يتهيّأُ منها الأصوات اللغوية:
الببغاء ، والسّنّور ،والشاة ،والعندليب ،والغراب ،والقطا ،والكلب.
ونجد أنّ الجاحظ قد حدّد الأصوات اللغوية التي تتهيّأُ من أفواه هذه الحيوانات والطيور ، ولم يحدّد البعض الآخر حيث اكتفى بالتنويه الى أنّه يتأتى منها أصوات لغوية ، دون التعرض لهذه الأصوات .

وسوف أعرض الآن لما ذكره الجاحظ عن هذه الحروف التى تتأتّى من أصوات بعض الحيوانات والطيور ،وأول هذه الأصوات اللغوية:

الألف :

لقد ذكر الجاحظ أنّ الألف من الأصوات اللغوية التي تتهيّأُ من أصوات بعض الحيوانات والطيور ،حيث ذكرها ضمن صوت

---

(١) انظر كتاب (أجزاء الحيوان) لأرسطوطاليس ص ١٧٠ ترجمة يوحنا بن البطريق . تحقيق د. عبدالرحمن بدوى الطبعة الأولى ١٩٧٨م ،الكويت .
(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٦٤/١.

(القطا) و (الشّياه) ،فقال : " فلما تهيّأ للقَطاةِ ثلاثة أحرف : قاف ،وطاء ،وألف ،وكان ذلك هو صوتها ، سمّوها بصوتها ،ثم زعموا أنها صادقةٌ في تسميتها نفسها قَطا".(١)

وقال عن الشاة : "والذى تَهيّأ للشاةِ قولها : ما ،ولذلك قال ذو الرُّمة :

لا يرفعُ الصَّوْتَ إلا ما تخوّنه

داعٍ يناديه باسم (الماء) مُبْغُومُ (٢)

الطاء :

ذكر الجاحظ أنّ حرف (الطاء) من الحروف التي تتأتّى من طائر القطا . وقد سبق أنّ أشرنا إلى ذلك في حرف الألف .

العين غير المعجمة :

ذكر الجاحظ في كتابيه : الحيوان ،والبيان والتبيين ،أنّ حرف (العين) من الحروف التي تتأتّى من أفواه الكلاب ، حيث قال : " وقد تهيّأ للكلب مثل : عَفْ عَفْ ،ووَوْ وَوْ ،وأشباه ذلك ".(٣)

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٥/٢٨٧.

(٢) نفس المرجع ٥/٢٨٧ .
تخونه : تعهده ،أى تتعهده بالنظر إليه.
ميغوم : يعني صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها .

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ٥/٢٨٨.

وقال أيضا : " ويتهيأ من أفواه الكلاب العينات والفاءات والواوات ،كنحو قولها : وَوْ وَوْ ،وكنحو قولها : عَفْ عَفْ ". (١)

يتضح من ذلك أنَّ حرف (العين) من الحروف التي ذكر الجاحظ بأنها تصدر من أفواه الكلاب.

الفاء :

ذكر الجاحظ أنَّ (الفاء) من الحروف التي تتأتَّى من أفواه الكلاب أيضا ،وذلك كنحو قولها : عَفْ عَفْ.

وهذا قد سبق ذكره في حرف العين.

القاف :

ذكر الجاحظ أنَّ (القاف) من الحروف التي تتهيَّأ من فم القطاة والغراب . ولقد سبق أنَّ أشرنا إلى القطاة . أما الغراب فهو من الطيور التي ذكر الجاحظ بأنه يتهيَّأ منه أصوات لغوية كثيرة وذلك في قوله : " يتهيَّأ لبعض الغِرْبان من الحروف والحكاية ما لا يَعْشِرُهُ الببغاء ". (٢)

وقال : " وتهيَّأ للغرابِ القاف ". (٣)

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٦٤.

(٢) انظر الحيوان للجاحظ ٥/٢٩٠.

(٣) نفس المرجع ٥/٢٨٩.

فلو نظرنا إلى هذين القولين لوجدنا أنّه قد ذكر بأنّ الغراب تصدر منه حرف القاف إلى جانب حروف كثيرة حتى إنّ الببغاء لا يأتي عُشْرَ الغراب من ناحية إصدار الحروف . وبالرغم من ذلك لم يذكر الجاحظ من الحروف التي تتهيّأُ من الغراب إلا القاف ،ولعل السبب في ذلك راجع إلى مدى وضوح هذا الحرف في صوت الغراب ،وذلك عندما يصيح (غاق غاق) (١) ،الأمر الذى جعله يأتي بهذا الحرف كمثال لهذه الحروف الكثيرة .

الميم :

ذكر الجاحظ أنّ (الميم) من الحروف التي تتهيّأُ من أفواه الحيوانات ،فقد تأتّى هذا الحرف من فم الشاة في قولها : (ما ، أو ماء ،أو ماه) . وقد ذكرت هذا في أثناء ذكري لحرف الألف . مع ذكرى الشاهد الشعرى الذى ذكره الجاحظ في معرض حديثه عن الشّاةِ وما يتهيّأُ منها .

الهاء :

ذكر الجاحظ أنّ (الهاء) من الحروف التي تتهيّأُ من فم الشاة في قولها : (ماه) ،وقد سبق ذكر هذا الموضوع في حرف (الألف) و (الميم) .

---

(١) لقد ذكر في بعض نسخ الحيوان للجاحظ أن صوت الغراب (غاق غاق) وهو مختوم بالقاف كما نرى ،ولعل هذا ما يقصده الجاحظ.

الــواو :

ذكر الجاحظ أنّ (الواو) من الحروف التي تتأتّى من أفـــواه الكلاب ،وقد سبق أنْ أشرنا إلى ذلك.

وقال أيضا : " قيل لصبي يلعب على بابهم : مَنْ أبـــوكَ يا غُلام ؟ وكان اسم أبيه كلباً - فقال : وَوْ وَوْ ". (١)

يتضح مما سبق أنّ الحروف التي ذكر الجاحظ أنها تتأتّـــى من أفواه الكلاب هي : (العين ، والفاء ، والواو) ، فالابن سمـــع الواوات من الكلب ويعرف أنّ اسم أبيه كلبا فقرن بين الشيئين وجعـــل اسم أبيه وَوْ وَوْ ،الذى هو صوت الكلب.

وقبل الانتهاء من هذا الموضوع لا بد من الإشارة إلى أنّ الجاحظ قد ذكر أنّ هناك عِدّة حيوانات وطيور تتأتّى منها أصـــوات لغوية ،إلا أنّه لم يُحدّد هذه الأصوات.

ومن هذه الحيوانات والطيور : السّنّور ،والبَبْغاء ،والعندليب، والغُداف.

قال الجاحظ : " وقد تهيّأ للهزارَدْستان - وهو العندليب - ألوانٌ أُخر ، وقد تهيّأ للببغاء من الحروف أكثرُ . فإذا صرت إلى السنانير وجدتها قد تهيّأ لها من الحروفِ العددُ الكثير ، ومتى أحْبَبْتَ أنْ تعرِفَ ذلك فتسَمّعْ تجاوُبَ السنانيرِ ، وتوعُّدَ بعضها لبعض في جوف الليل ،

--------- - ---------

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٥/٢٨٨، ٢/١٦٨.

ثم أحصِ ما تسمعه وتتبّعه ،وتوقّف عنده ،فإنّك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجاتِ والعقولِ والاستطاعات ،ثم ألّفتَها لكانت لغة صالحة الموضِع ،متوسّطة الحال."(١)

فهو لم يحدد هنا هذه الحروف كما فعل في الحيوانات والطيور الأخرى ولعل السبب في ذلك راجع إلى كثرة هذه الحروف وتعددها ، فاكتفى بذكر القليل كمثال حتى يوضح به المراد .

ونجد أنّ الجاحظ لم يقتصر على ذكر الحروف التي تتهيّأ من بعض الحيوانات والطيور ، بل تعرض أيضا لمسألة ما يتهيّأ من صياح بعض الحيوانات وشبه صوتها بصوت الصبيان كابن آوى والخنزير .(٢)

ب - تسمية الحيوانات بأصواتها :

لقد ذكر الجاحظ أنّ هناك حيوانات وطيورا تُسمّى بنفس الصوت الذى يصدر منها ،على الرغم من وجود أسماء حقيقية لبعض هذه الحيوانات فمن الحيوانات التي تُسمّى بأصواتها : الشاة ،والكلب .

ومن الطيور : السمارو ،وقرب ،والقطا ،والببغاء .

فالشاة مثلا : تصدر صوتا متكررا عبارة عن (ماه ،ماه) أو (ماء ،ماء) فسميت بهذا الصوت . قال ذو الرُّمة:

---

(١) انظر كتاب الحيوان للجاحظ ٥/٢٨٩ .

(٢) نفس المرجع ٥/٢٨٨ . وابن آوى من فصيلة الكلاب .

لا يرفعُ الصَّوتَ إلا ما تخوَّنــــه

داعٍ يناديه باسم (الماء) مَبْغُومُ(١)

وقال أبو عبَّاد النميريّ لخربَق العُمَيرى . وكان يتعشَّقه ورآه قـــد اشترى أُضْحِيَة ، فقال :

يا ذابحَ الماء ماء   فَعَلْتَ فعل الجفاه

أما رَحِمْتَ مِنَ المو   تِ يا خُرَيبق شاه (٢)

قال الجاحظ : " الصبيان هم الذين يسمون الشاة : ماء ، كأنّهم سمّوهـا بالذى سمعوه منها ، حين جهلوا اسمها ". (٣)

هذا بالنسبة للشاة وما يصدر منها .

أمّا بالنسبة للكلب : فقد أورد الجاحظ قول هيثم بن عَدِىّ :

" أنّ رجلا كان يُسمّى كلبا ، وكان له بُنيٌّ يلعب في الطريق ، فقال لـــه رجلٌ : ابن مَنْ ؟ فقال : ابن وَوْ وَوْ وَوْ ! ". (٤)

فالصبي هنا يعرف أنّ اسم أبيه كلب ، كما يعرف الصوت الذى يصدر من الكلب ، فلذلك سمى الكلب بالذى سمعه منه .

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٥/٢٨٧ .

(٢) نفس المرجع ٥/٢٨٨ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) نفس المرجع ٢/١٦٨ .

كما تعرض الجاحظ للطيور التي تسمى بأصواتها ، وذلك مثل: السمارو وقرب . وهما طائران يكونان ببلاد السُّفالة (وهي مدينة تُعرَف بأرض الزَّنج) ، قال الجاحظ : " ويزعمُ البحْريُّونَ أنَّ طائرين يكونان ببلاد السُّفالة ، أحدُهما يَظْهَرُ قَبْلَ قُدوم السفن إليهم ،وقبل أنْ يُمكِنَ البحرَ من نفسه ، لخروجهم في متاجِرِهم فيقول الطائر : قرب آمَدْ ، فيعلمون بذلك أنَّ الوقت قَدْ دَنا وأنَّ الإمكان قد قرب.

قالوا : ويجيء بهِ طائرٌ آخر ، وشكل آخر ،فيقول : سمارو . وذلك في وقت رجوع من قد غابَ منهم ، فيسمُّون هذين الجنسين من الطَّير : قرب ،وسمارو ،كأنَّهم سَمَّوهما بقولهما ،وتقطيع أصواتهما ".(١)

كما نجد أيضا نوعا آخر من الطيور سمته العرب بالقطا ،وكان ذلك هو صوتها ،لأنَّها حينما تصيح تقول (قطا قطا) فسموها بصوتها . قال الجاحظ : " كما سمَّت العرَبُ ضربا من الطَّير القطا ، لأنَّ القَطَا كذلك تصيح ،وتقطيع أصواتها قَطَا ".(٢) قال الجاحظ : " والقطاة لم تُرِدْ اسمَ نفسها ،ولكنَّ النَّاس سَمَّوها بالحروف التي تخرج من فِيها ، وزادَ في ذلك أنها على أبنيةِ كلام العرب ، فجعلوها صادقةً ومُخبرة ومُريدة (وقاصدة)".(٣)

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٣/٥١٥ ، ٥١٦.

(٢) نفس المرجع ٣/٥١٦.

(٣) نفس المرجع ٥/٥٧٩.

قال الكميت :

لا تكذبُ القوْلَ إنْ قالت قطَا صَدَقَتْ
إذ كلُّ ذى نِسْبَة لا بدَّ ينتحل (١)

وقال آخر :

وصادقةٍ قد خَبَّرتْ ،ما بَعثْتَها
طُروقا ،وباقي الليل في الأرض مُسْدِف (٢)

وإذا نظرنا إلى أسماء هذه الطيور الثلاثة نجد أنّها لا تُعرف إلا بهذه الأسماء التي هي أساسا أصواتها التي تصدر منها .

كما ذكر الجاحظ نوعا آخر من الطيور تُسمَّى بأصواتها وهي : البيغاء ،حيث قال : "كما سمَّوا البيغاء بتقطيع الصوت الذى ظهر منه" (٣).

ولي على هذا القول الذى أورده الجاحظ تعليق يسير ،وقد استخلصته من خلال معايشتي لهذا النوع من الطيور ،فالمعروف أن البيغاء من الطيور الأليفة المقلدة للأصوات ،فهي تصيح دائما بأصوات عِدَّة ، إلا أنَّني لم أسمع يوما أنها تصيح بصوت يطابق اسمها ، أى أنها لا تصيح بصوت يُفهم منه أنها تقول (ببغاء ببغاء) ، لذلك أرى أنَّ ما قاله عن البيغاء خلاف للواقع .

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٥/٥٧٨.
(٢) نفس المرجع ٥/٢٨٧.
(٣) نفس المرجع

كما أنَّ هناك نوعا آخر من الحيوانات تُسَمَّى بصوتها ،ولم يذكرها الجاحظ وهي السنور أو الهِرَّة ،فقد ذكر الجاحظ أنه يتهيَّأ منها حروف كثيرة ، ولكنه لم يذكر أنَّها تُسمَّى بصوتها.

فالصبيان هم الذين يسمون الهرة (ناو) ،لأنها حينما تصيح تقول : (ناو ناو) فيسمونها بقولها وتقطيع صوتها وذلك حين جهلوا اسمها . والله أعلم.

ج - تقليد الحيوانات للأصوات :

هناك بعض الحيوانات والطيور منحها الله سبحانه وتعالى القدرة على تقليد الأصوات ومحاكاتها . ولقد تَعَرَّضَ الجاحظ لذلك في كتابه (الحيوان) و (البيان والتبيين).

ومن الحيوانات والطيور المقلدة للأصوات : الإنسان ،والببغاء، والغراب. وأول هذه الحيوانات هي :

البببغـــاء :

لقد ذكر الجاحظ أَنَّ الببغاء من الطيور المقلدة للأصـوات حيث قال : "وإنَّما الحكايةُ من جميع الحيوان في الكلب والقِرد والـدُّبِّ والشَّاة المكِّيَّة . وليس عند البَبْغاء إلا حكايةُ صورِ الأصوات ."(١)

وقال : "وكذلك ربَّما رأيتَه (ويقصد الإنسان) يُلقِّن البَبْغاء ضروباً من الكلام ،والبَبْغاء تحكيه."(٢)

ولعلَّ ذلك راجع إلى عِرَضِ لسان الببغاء ،كما زعم صاحب المنطق . فهو يريد أَنَّ هذه الحيوانات لا تقلد وتحكي إلا الأفعال والحركات ،أَمَّا تقليد الأصوات ،فلا قدرة لها على ذلك ،خلافا للببغاء.

الغـــراب :

وهو من الطيور المقلدة للأصوات . قال الجاحظ : "ومنهـا غِربانٌ تحكي كلَّ شيء سمعته ،حتى إنَّها في ذلك أعجب من الببغاء."(٣)

فالجاحظ هنا يذكر أَنَّ بعض الغربان أقدر على المحاكاة والتقليـد من الببغاء . فهو يحاكي كل ما يسمعه من الأصوات ،ولعل ذلك راجع إلى عرض لسانه.(٤)

---

(١) انظر كتاب (الحيوان) للجاحظ ٧/١٠٤ .

(٢) نفس المرجع ٧/٢١٨.

(٣) نفس المرجع ٣/٤٦٢ و ٧/٢١٨.

(٤) انظر كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ١/٦٢.

فالغداف وغراب البين من أنواع الغربان ،وهي تحاكي الأصوات وتقلدها .

د - أثر الأصوات في الحيوانات وفهمها لها:

لقد تَعَرَّضَ الجاحظ لأنواع من الحيوانات والطيور التي تختلف فيما بينها ،فمنها ما هي قابلة للفهم والتعلُّم ،ومنها ما تتأثر بالأصوات سواءأ كانت هذه الأصوات عزفا أو صفيرا أو نقرا أو صوتا شديدا ، فالدَّوابُّ مثلا تَصُرُّ آذانها وتنصبها للسماع إذا غنَّى المُكارِي . كما أَنَّ الصَّفير وسيلة من الوسائل التي يستخدمها الإنسان لكي تُسْقى به الدوابُّ الماء .(١)

ومن الحيوانات التي تتأثر بالأصوات وتفهمها :

الإبـــل :

لقد ذكر الجاحظ أَنَّ الإبل من الحيوانات التي تتأثر بالأصوات حيث قال : " والإبل تَصُرُّ آذانَها إذا حدا في آثارها الحادي ،وتزداد نشاطا ،وتزيد في مشيها ".(٢)

يريد أَنَّ الإبل تتأثر بصوت الحادي عندما يقصد حثها على السير ، فيزجرها تارةً ،ويغني لها تارة أخرى ، مما يجعلها تزداد نشاطا وتُسرع في مشيها ، وهذا النشاط والإسراع دليل على تأثُرِها بالصوت.

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ١٩٣/٤.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

الأســـد :

وهو من الحيوانات التي تتأثر بالأصوات أيضا ، قال الجاحظ :
" ويُضْرَبُ بالطِّساس للأُسْدِ وقد أقبلَتْ ،فتروعُها تلك الأصوات ".(١)

وقال : " والأُسْد إذا رأت النار أحجمت عن الإقدام ، وإذا اشتدت الأصواتُ ". (٢) يريد الجاحظ هنا أنْ يبيِّن أنَّ الأســـد يتأثر بالأصوات الشَّديدة العالية ويخاف منها . ولقد أيَّد قوله هذا بما أورده عن قصة أبي ثعلب الأعرج الذى عرض له سبع عند مروره على وادى السباع .(٣)

فخوف الأسد من الأصوات الشديدة وتأثره به ،جعل النـاس يستخدمون الطِّساس لابعاده.

الأيِّلُ :

وهو حيوان ذو أظلاف وقرون تشبه الزرافة ،كما أنَّه يأكـل الحيات ويشعر بالظمأ عند أكلها.(٤)

ولقد أورد الجاحظ قول صاحب المنطق : " والأيائِلُ تُصَادُ بالصَّفيرِ والغناء . وهي لا تنامُ ما دامت تسمَعُ ذلك من حاذقِ الصوت .

----

(١) انظر الحيـــوان ١٩٣/٤ ، ١٣٧/٧.
(٢) نفس المرجع ٤١/٥.
(٣) نفس المرجع ٤٨٥/٤.
(٤) نفس المرجع ٢٤٢/٧ : ٢٩ ، ١٦٦/٤.

فيشغلونها بذلك ويأتون من خَلفِها فإنْ رأوها مسترخيةَ الآذانِ وثبُوا عليها ،وإنْ كانت قائمة الأذنين فليس إليها سَبيل ." (١)

وهذا الذى أورده الجاحظ يدل على مدى تأثر الأيائل بالأصوات لدرجة أنّها لا تشعر بما يدور حولها ، مِمّا يجعل الصياد يتغلب عليها ويصطادها .

الــدُّبّ :

وهو من الحيوانات القابلة للفهم والتعلم ،ولقد وضح الجاحظ ذلك بقوله : " والدُّبّ والقِرد إذا عُلِّما والفيل والكَلْبَةُ واليَعْر" فإنّ الحيوان الذى يُلقّن ويَحْكِي ويَكِيسُ ويُعلَّم فيزداد بالتَّعليم في هذه التي ذكرنا ،وهي الدُّبّ ،والقِرد ،والفِيل ،والكلب". (٢)

فالدُّبّ قادرٌ على فهم الكلام والأصوات التي تصدر من الإنسان الذى يسيطر عليه ويدرِّبه . فهو يحكي ويقلد كل ما يُلقَّن ، لذلك نجد بعض الناس يستخدمونه في (السيرك) للقيام بحركات بهلوانية ،وهذا راجعٌ لفهمه لكلام معلمه ومدربه .

السمك :

لقد ذكر الجاحظ أنّ الأسماك تتأثر بالأصوات وتتنبه لها حيث قال : " ويَجمع بها (أى الأصوات) الصَّيّادُونَ السَّمك في

----

(١) انظر الحيوان ٤/١٩٣ .

(٢) نفس المرجع ٦/٣١٦ .

حظائرهم التي يتّخذونها له. وذلك أنّهم يضربون بِعُصِيٍّ معهم ، ويُطَطِطُونَ ، فتُقْبِل أجناسُ السَّمكِ شاخصةَ الأبصار مصغيةً إلى تلك الأصوات ، حَتَّى تدخُلَ في الحظيرة ". (١)

كما أورد الجاحظ زعم صاحب المنطق : " في أنّ الرَّعدَ الشَّديدَ إذا وافق سِبَاحَةَ السَّمك في أعلى الماء ، رَمَتْ ببيضها قبلَ انتهاء الأجل ، وربّما تمّ الأجل فتَسمعُ الرَّعدَ الشّديدَ فيَتَعَضَّلُ عليها أياما بعدَ الوقت". (٢)
وهذا دليل على تأثرها بالأصوات وفزعها منه ، مما جعل الصيادين يستخدمون الأصوات في التأثير عليها وجمعها في المكان الذى يريدون.

الطير :

ذكر الجاحظ أنّ الطيور تتأثر بالأصوات وتفهمها من ذلك قوله : " ويُضْرَب بالطّساس للطير ، وتُصاد بها". (٣)

وقال : " إنّ الفُهودَ وهي وحشيّةٌ تقبل كلها (يقصد تقبل التأديب) كما تقبَلُ البوازى والشّواهين ، والصقورة ، والزُّرّق ، واليُؤيُؤ ، والعُقاب". (٤)

---

(١) انظر الحيوان ٤/١٩٣. والطططة : تتابع الأصوات واختلاطها ، (ذكر هذا المعنى محقق الحيوان) .
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) انظر نفس المرجع والصفحة . وفيها ذكر أيضا (أن الطيور تنفر عن البذور بالصفير) .
(٤) انظر الحيوان ٤/٤٧.

وقال أيضا : "والبِرذَونُ يُراضُ فيعرِفُ مايراد منه ،فيعين على نفسه . ورُبَّما استأجروا للطَّيرِ رجُلاً يُعَلِّمها . فأمّا الذى رأيتُه أنا في البلابل ،فقد رأيتُ رجُلاً يُدْعَى لها فيطارِحُها من شكل أصواتها".(١)

نَخلُصُ مما سبق إلى أنَّ الجاحظ أراد أنْ يبيِّن أنَّ الطيور قابلة للفهم والتعلُّم ،لذلك كانوا يستأجرون من يُعلِّمها ويلقنها إلى جانب أنَّها تتأثر بالأصوات ،الأمر الذى جعل الناس يلجأون للطَّساس والصفير لاصطياد الطيور ،وإبعادها عن البذور والمحاصيل .

أمّا الببغاء فهي من أكثر هذه الطيور فهما وقدرة على المحاكاة وتقليد الأصوات . وقد سبق الحديث عن ذلك.(٢)

عَنَاقُ الأرض :

قال الجاحظ في وصفها : " و هي التي يقال لها التُّفَة ،وهي دابَّة نحو الكلْب الصغير ،تصيد صَيداً حسنا ،وربما واثبَ الإنسانَ فعقَره وهو أحسن صيدا من الكلْب".(٣) هذا ما قاله الجاحظ عن وصفه لها ،أمّا عن فهمه للإنسان وقبوله التعلم والآداب فقال فيه الجاحظ: " إنَّ الفُهودَ وهي وحشيَّةٌ تقبل كلها (الأدب) كما تقبَلُ البوازى ، والشَّواهين ،والصقورة ،والزُّرّق ،واليُؤيؤ ، والعُقاب ،وعَناق الأرض ،

------- ----------

(١) انظر الحيوان ٣/٣٣٩ .

(٢) انظر ما قيل سابقا عن الببغاء ،ص ١٦٢ .

(٣) انظر الحيوان ٦/٣٥٢ .

وجميع الجوارح الوحشيات ". (١)

فهنا ذكر الجاحظ بأنّ عَنَاق الأرض من الحيوانات التي تقبل الفهم والإنسان يؤدّبها ويعلّمها ويدرّبها حتى يستطيع أنْ يستفيد بها في الصيد ، لأنّها أحسن صيدا من الكلاب .

الفرّوج :

وهو فرخ الدجاج ، قال الجاحظ فيه : " ويَخرجُ سريعَ الحركةِ شديدَ الصّوت حديده ، يُدْعَى بالنّقْر فيُجيب ، ولا يقال له : قَرْقَرْ ، ثلاثَ مرات - حتى يَلْقنَه . فإنْ استدبره مستدبرٌ ودعاه عطفَ عليه ويتبع الذى يطعمه ويلاعبه ، وإنْ تباعد من مكانه الأوّل ". (٢)

يريد الجاحظ هنا أنْ يُبيّن بأنّ الفروج قادر على الفهم ، فهو يُدْعى بالنقر فيجيب ، واجابته دليل على فهمه لما يريده الإنسان منه .

الفهد :

وهو من الحيوانات التي ذكر الجاحظ أنها قابلة للتعلم والتوجيه حيث قال : " إنَّ الفهود وهي وحشيّةٌ تقبل كلها (الأدب) ، كما تقبل البوازى والشّواهين والصقور ... ثُمَّ يفضلُها الفهدُ بخَصْلةٍ غريبه ، وذلك أنّ كبارَها ومَسانّها أقبلُ للآدابِ ، وإنْ تقادَمتْ في الوحْشِ مِنْ

----

(١) انظر الحيوان ٤٧/٤ .

(٢) نفس المرجع ٣٣٣/٢ .

أولادِها الصغار ،وإنْ كانت تقبل الآداب ،لأنّ الصغير إذا أُدّبَ فبلغ ، خرج جبينا مُواكِلا ."(١)

يريد الجاحظ هنا أنْ يبيِّن أفضلية الفهد المُسنّ عن الفهد الصغير رغم تقبلهما للآداب . والفهود بالرغم من وحشيتها إلّا أنّها أقدر على التوجيه والتعلُّم وفهم ما يريده الإنسان منها ،لذلك نجد بعض الناس يقومون بتدريب الفهود على حركات وأفعال معينة يقومون بعرضها في السيرك ،وذلك لتسلية الناس ومرحهم.

الفيـــل :

ذكر الجاحظ أنّه قابل للفهم والتعليم والتدريب حيث قال : " ذكر رسولٌ لي إلى سائسها أنّه قد اتّبعها إلى دجلة ،وأنّ بعض الغَوغاء صاح بها يا حجّام بابَك ! وهذا الكلام اليومَ ظاهرٌ على ألسنة الجُهّال وأنّ فيلاً منها ركلَه برجله رَكْلةً صكّ بها الحائط حتّى خيف عليه منها وأنّه رأى منها الإنكارَ لذلك القول ، وأنّ الفيّال كان يحثّها على الانتقام لَمّا صاحَ بها . وإذا عرفَ الكلب اسمه وكذلك السنّور وكذلك الشاة والفرس ... فجائزٌ أنْ يكون الفيلُ بفضْل فِطنته أنْ يفهم أضعافَ ذلك. فإذا أمروه بضرب إنسانٍ عندضربٍ من الكلام استعاد ذلك وأدامَه ،لم ينكر أنْ يعرفَه على طول التّرداد".(٢)

---

(١) انظر الحيوان ٤/٤٧ ، ٦/٤٧١.
جبينا : الهيوب للأشياء لا يقدم عليها.ومواكِلا : يعني عاجزا.

(٢) نفس المرجع ٧/٨٧، ٦/٣١٦.

وقال : " والفيل أضخم الحيوان وهو مع ضِخَمه أملَحُ وأظْـرَف وأحْكَى وهو يفوق في ذلك كلَّ خفيف الجسم ، رشيق الطبيعة ". (١)

نَخْلُصُ من الأقوال السابقة الى أنَّ الفيل من أكثر الحيوانات فهما وإدراكا لما يُلقَّن ويُعلَّم ،فبالرغم من حجمه الكبير وضخمه إلَّا أنَّه قادرٌ على تقليد وعمل كل ما يأمره به مُدَرِّبُهُ ، حتى إنَّه يفوق في محاكاته الحيوانات الخفيفة الجسم.

ونتيجة لفهمه وإدراكه للكلام ،نجد أنَّ أوَّلَ شيءٍ يُؤدِّبونَه به هو السجُودُ للملك. قال الجاحظ : " قالوا : خرج كِسرى أبرويز ذات يوم لبعض الأعياد ،وقد صَفّوا له ألفَ فيلٍ ، وقد أحدق به وبها ثلاثـــونَ ألفَ فارِس ،فلما بَصُرَتْ به الفِيَلَةُ سجدتْ له ،فما رفعتْ رؤوسَها حتى جُذِبـــت بالمحاجن وراطَنَها الفَيَّالون ،وقد شهد ذلك المشهدِ جميعُ أصنـــاف الدَّوابِّ : الخيلُ فما دونها وليس فيها شيءٌ يَفْصِلُ بين الملوكِ والرعيَّـة ، فلما رأى ذلك كسرى قال : ليتَ أنَّ الفيلَ كان فارسيًّا ،ولم يكن هنديًّا ، انظُروا إليها وإلى سائر الدَّوابِّ ،وَفَضِّلوها بقدر ما تَرَوْنَ من فَهْمِهـــا وأدبها ". (٢)

القـرد :

وهو من الحيوانات المُقَلِّدَةِ التي تحاكي تصرفات الإنسان قال الجاحظ : " وإنَّما الحكاية من جميع الحيوان في الكلب والقـــرد

----

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٧/١٠٤.

(٢) نفس المرجع ٧/٢٠٥ ، ٢٠٦.

والدُّب والشَّاة المكِّيّة."(١)

وقال : "وربَّما رأيتَ القرَّادَ يُكلم القِرْدَ بكلِّ ضربٍ من الكلام ، ويُطيعه القرد في جميع ذلك".(٢)

فالجاحظ هنا يريد أن يبيّن أن القرد قادرٌ على فهم الكلام الذى يصدر عن الإنسان وذلك من خلال طاعته للقراد في كل ما يأمره به ، ولقد ذكر الجاحظ أن القرد بطبيعته وفطرته يقلد الإنسان في الحركات ،فإذا ما تعلَّم وتدرَّب فإنه يزداد فهما واستيعابا لكل ما يطلب منه.

الكلب :

وهو من أكثر الحيوانات فهما للأصوات والتوجيه والتعليم بالكلام قال الجاحظ : "وقد صار اليومَ عندَ الكلب من الحكايات وقَبول التلقين ،وحُسْنِ التصرف في أصناف اللَّعِب ،وفي فِطَن الحكايات ما ليس في الجوارح المذَلَّلةِ لذاك ، المصرَّفةِ فيه ،وما ليس عند الدبِّ ،والقرد ، والفيل ،والغَنَم المكّيَّة ،والبَبْغاء".(٣)

وقال الجاحظ في أدب الكلب : "زعم لي غِلماني وغيرُهم من أهل الدَّرب ،أنَّه كان ينبح على كلِّ راكبٍ يدخل الدَّرب إلى عراقيب برذونه سائسا كان أو صاحبَ دابَّة إلا أنه كان إذا رأى (محمدَ بن عبدِالملكِ) داخلاً إلى باب الدَّربِ أو خارجا منه ، لم يَنْبَحْ البتَّةَ.

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٧/١٠٤.
(٢) نفس المرجع ٧/٢١٨.
(٣) نفس المرجع ٢/١٧٨،١٧٩.

لا عليه ولا على دابّته ،بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق...
فسألتُ عن ذلك فبلغني أنه/كان إذا أقبل صاحَ به الخادم وأهوَى له بالضَّرب،
فيدخل الدّهليز وأنه ما فعل ذلك به إلا ثلاث مِرار ، حتى صار إذا رأى
محمد بن عبد الملك دخل الدَّهليزَ من تلقاء نفسه ". (١)

وقد ذكر الجاحظ بأن الكلاب من الحيوانات القابلة للتلقين
والتعلُّم والمحاكاة وخصوصا إذا ما دُرِّبَتْ وعُلِّمت ،فإنها تزداد فهما ومعرفة
بالتعليم. (٢)

وذكر بأن الكلب الزِّينيّ الصِّينيّ يُسرَج على رأسه ساعاتٍ
كثيرةً من اللَّيْل فلا يتحَّرك حتى ولو ألقوا إليه بِبضْعَةٍ من اللحم أو دعوه
باسمه ،فإذا ما أخذوا المصباح من رأسه ، فإنه يثب على اللحم فيأكله.
وقد يعلقون الزنبيل في رقبته وتوضع فيها رُقعة بالمطلوب ،فيمضي إلى
البقّال ويجيء بالحوائج . (٣)

وهذا دليل على حسن تلقيه وقبوله وفهمه للتأديب والتدريب.

اليَعْر :

لقد ذكر الجاحظ بأن اليعر هو صفار الغنم حيث قال: " اليَعْر
يعني صفارا لغنم . ولعمرى أن في المكّيّة والحبشية لعبا ". (٤)

----

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٢/ ١٣٠.
(٢) نفس المرجع ٢١٨/٧ ، ١٠٤ ، ٣١٦/٦.
(٣) نفس المرجع ١٧٩/٢.
(٤) نفس المرجع ٣١٦/٦.

حيث ذكر الجاحظ بأن اليَعْفُر من الحيوانات التي تلقن وتحكي فقال : " والدُّبّ والقِرْد إذا عُلِّما والفيل والكلبة واليَعْفُر . فإن الحيوان الذى يَلْقَن ويَحْكِي ويكيسُ ويُعَلَّم فيزداد بالتعليم ". (١)

وقال : " وإنما الحكايةُ من جميع الحيوان في الكلب والقِرد والدُّبّ والشّاة المكّيّة ". (٢)

نخلص من الأقوال السابقة إلى أن اليَعْفُر أو الشاة المكّيّة من الحيوانات التي تُحاكي تصرفات الإنسان ،وهي قابلة للتعلُّم والتلقين ، حيث أن التعلُّم يزيدها فهما للتوجيه والتلقين فتصبح بذلك من الحيوانات المحاكية كالقرد والكلب .

هذا بالنسبة للحيوانات التي تفهم الأصوات ويستطيع الإنسان أن يوجهها ويعلمها بالكلام فتحكي وتقلد ما تسمعه ويطلب منها .

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٧/ ١٠٤ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

١٣) - دراسة الجاحظ للصوت دراسة طبيعية :

لقد أصبحت الدراسة الطبيعية للصوت ركنا أساسيا يأخذ مكانه دائما ضمن دراسة الأصوات اللغوية.(١)

ونجد الجاحظ بنظرته الموسوعية قد تطرق إلى لمحات من هذا الجانب الطبيعي للصوت في أثناء دراسته للأصوات بجميع نواحيها سواء كانت أصواتا لغوية أو كانت من سائر أصوات الإنسان أو عن أصوات الحيوانات.

ومما تناوله في مجال دراسة الصوت دراسة طبيعية :

أ - حِدَّة الصَّوت وغِلَظه .

ب- قوة الصَّوت (أو شدته) وضعفه .

جـ - نوع الصوت (وبه يتميز جمالا وقبحا) .

د - سرعة الصوت .

وقد تناول الجاحظ هذه الجوانب وهو يتحدث عن أصوات الناس والحيوانات على السواء . وسنقف عند كل منها وقفة يسيرة بقدر ما يُبرز تناول الجاحظ لها .

----

(١) انظر كتاب (الأصوات اللغوية) د. ابراهيم أنيس ص ٦.
و (دراسة الصوت اللغوى) د. أحمد مختار عمر ٣ - ١٦.

أ - حِدة الصوت وغِلظه :

والمقصود بحدَّةِ الصوت أن يكون دقيقا غير غليظ ولا أجش .

وقد ذكر الجاحظ بأن هناك طيورا تتسم بحدَّة الصوت ، من ذلك العصفور والفروج ،حيث قال الجاحظ : " والعصفورُ لا يستقرُّ ما كان خارجا من وكرِهِ حتى كأنه في دوام الحركة صبيٌّ . له صوت حديدٌ مؤذ ".(١)

وقال : " خبَّرني من يصيد العصافير قال : ربما كان العصفور ساقطا على حائطِ سطح بحذائي ،فيغمُّني صِياحُهُ وَحِدَّةُ صوتِه ."(٢)

وقال أيضا : " ويخرجَ (ويقصد الفروج) سريعَ الحركة شديدَ الصوت حديده يُدْعى بالنَّقْر فيُجيب ."(٣)

فهذا الذى ذكره الجاحظ يدل دلالة واضحة على مدى حِـدَّةِ صوت الفروج والعصفور وشدته لدرجة مزعجة ومؤذيه.

أما بالنسبة لغِلَظ الصوت فقد ذكر الجاحظ أن الكلب من الحيوانات ذات الصوت الغليظ ، وذلك عندما يسن ويكبر ، حيث قال : " والكلْبُ كلما كان أسنَّ كانَ صوتُه أجهرَ وأغلظ ."(٤)

أى أن كِبرَسن الكلب هو السبب في جهارة صوته وغلظه.

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٥/ ٢٢٤.

(٢) نفس المرجع ٢/ ٣٢٩.

(٣) نفس المرجع ٢/ ٣٣٣.

(٤) نفس المرجع ٢/ ٢١٨.

ب - قوة الصَّوت (أو شدته) وضعفه : والمقصود بقوة الصَّوت أو شدَّته ، صدوره بقوة وضغط يجعله صياحا بالنسبة لصاحبه.

وقد ذكر الجاحظ بأن هناك حيوانات وطيورا تتسم بقوة الصَّوت وبُعْدِ مداه ،حيث يصل الصوت ويسمع من مسافات بعيدة ،ومن هذه الحيوانات : الجمل ، والحمار . ومن الطيور : الدِّيك ،والكُرْكِيّ .

فقد ذكر الجاحظ "أن (أبا عتَّاب) دخل على (عمرو بن هدَّاب) وقد كُفَّ بَصَرُه والناس يُعَزُّونهُ ،فمثَلَ بينَ يديه ،وكان كالجمل المحجُوم ،وله صوتٌ جهير ،فقال : يا أبا أسيد ،لا يسوءنَّك ذهابُهما ..." (١)

فإذا عرفنا أن الجمل المحجوم - وهو الذى يوضع الحجام على فمه لئلا يعض - له صوت ضخم جدا ،تأكد لنا حقيقة ما أراده الجاحظ من أن الجمل من الحيوانات ذات الصوت القوى والشديد .

أما الحمار فقد ذكر الجاحظ أن له صوتا قويا وشديدا حيث قال : "إنَّ الحمار أبْعَدُ صوتاً ،وقد بلغ من شدَّة صوتِه ما إن حلَفَ أحمدُ بن عبد العزيز : إنَّ الحمار ما ينام ! قيل له : وما ذاك ؟ قال : لأَنِّي أجدُ صياحَه ليس بصياح شيءٍ انتبه تلك الساعة ،ولا هو صياحُ من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه". (٢)

يريد الجاحظ هنا أن يبيِّن أن الحمار من الحيوانات التي لها صوت قوى وشديد يصل الى مسافات بعيدة لدرجة أن (أحمد بن عبد العزيز) قد أقسم أن الحمار لا ينام ، لأن صياحه القوى والشديد لا يدل على أنه كان نائما ،أو أنه سوف ينام بعد الصياح . لأنه من

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٣/ ٣٥.

(٢) نفس المرجع ٢/ ٢٥٥، ٢٥٨.

العادة أن يكون صوت المستيقظ من النوم ضعيفا منخفضا .

أما الدِّيك فهو من الطيور التي ذكر الجاحظ بأنه قوى الصوت شديده ،حيث قال : وللحَمام أوقاتُ صياحٍ ودُعاءٍ مع الصُّبح وقبيلَ ذلك على نسَق واحد ،ولكنَّ النَّاس إنَّما ذكروا ذلك في الدِّيك والحمار ،لامتداد أصواتهما ". (١)

يريد أن السبب في ذكر الناس لصياح الديك والحمار عند الصباح ، وعدم ذكرهم للحمام ،بالرغم من أن الحمام يصيح مع الصبح أيضا ،وذلك لأن الناس تسمع صوت الدِّيك والحمار ،لقوة أصواتهما ووصولها إلى مسافات بعيدة ،أما الحمام فلا يصل صوته للناس لضعفه ، ولهذا ذكر الناس الدِّيك والحمار ولم يذكروا غيره من الحيوانات الأخرى التي تصيح عند الصبح .

أما الكركيّ فهو من الطيور التي ذكر الجاحظ أن له صوتاً قويا ، حيث قال : " قال كسرى : كيف يكون الجملُ أَبْعَدَ صوتا ونحن نسمَعُ صوتَ الكُرْكيّ من كذا وكذا ميلاً ؟ قال الأعرابي : ضَعِ الكُرْكيَّ في مكان الجمل ،وضَعِ الجمل في مكان الكُرْكيّ حتى يُعْرَفَ أيُّهما أبْعَدُ صوتاً ." (٢)

وكان هذا الأعرابي قد أُدخل على كسرى ليعجب من جفائه وجهله ، فسأله كسرى عِدَّة أسئلة .

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٢/٢٩٥.

(٢) نفس المرجع ٧/١٩٤.

نخلص من هذه القصة التي أوردها الجاحظ إلى أن الكُرْكَيَّ ذو صوت قوى وشديد يسمع من مسافات بعيدة قد تصل إلى عدّةِ أميال.

هذا بالنسبة لقوة الصوت وبُعْدِ مداه. أما بالنسبة لضعف الصوت وضآلته، فقد ذكر الجاحظ أن الفيل من الحيوانات الضعيفة الصوت حيث قال: "والفيلُ ضئيل الصَّوت، وذلك من أشدِّ عيوبه".(١)

وقال عن خرطوم الفيل: "وبه يقاتِل ويضرِب، ومنه يصيح، وليس صياحُه في مقدارِ جرْم بدنه".(٢)

يريد أن الفيل على الرغم من حجمه الضخم إلا أن له صوتا ضئيلا ضعيفا، لا يلائم حجمه الكبير. وهذا من أشد عيوبه في نظر الناس.

---

(١) انظر (الحيوان) للجاحظ ٧/١٩٣.
(٢) نفس المرجع ٧/١١٨.

جـ - جمال الصوت وقبحه :

وهو يدخل في ما يسمى حديثا (نوع الصوت) ، ولقد ذكر الجاحظ أن هناك أنواعا من الطيور تتصف بجمال الصوت وحسنه ، من ذلك : البلابلُ والدَّباسيُّ والشَّفانينُ ، والفراريجُ والفواختُ والقَماريُّ والوَراشِينُ . وذلك في قوله : " ولا ممَّا يطرِب بصوته ويُشجِي بلحنه (ويقصد بذلك الدِّيك) ، كالقَماريِّ والدَّباسيِّ والشَّفانين والوَراشِين والبلابل والفواخت ".(١)

وقال : " وهذا مع ما أعطي من محبة النساء (ويقصد الفروج) ورحمة الرجال وحُسْن الرَّأي من جميع الدار ، ثم اتِّباعه لمن دَعاه ، وإلفه لمن قَرَّبه . ثم ملاحةُ صوته وحُسْن قَدِّه ".(٢)

فهذه الأنواع من الطيور والحمام لها أصوات جميلة يُطرب لها السامع ويُشجى بها .

أما بالنسبة لقبح الصوت وسماجته ، فقد ذكر الجاحظ أن البغل والخنزير والدِّيك والطَّاووس والكلب ، من الحيوانات والطيور التي لها أصوات قبيحة سمجة ، حيث قال : " وأمَّا سماجة الصَّوت فالبغل أسمجُ صوتا منه (أي الكلب) ، وكذلك الطاووس على أنَّهم يتشاءَمون به ".(٣)

وقال : " وأما الدِّيك فمِن بهائم الطير وبغاثها ... ، وليس مِنْ أحرارها ولا مِنْ عِتاقِها وجوارحها ، ولا ممَّا يطرِب بصوته ويُشجِي بلحنه ".(٤)

وقال أيضا : " ولولا أنَّ في الخنزير معنىً مُتَقَدِّماً سوى المسخ ، وسِوى ما فيهِ من قبح المنظر وسَماجة التمثيل ، وقبح الصوت ، وأكل العَذِرة

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ١/ ١٩٤ ، ٢٨٨ .

(٢) نفس المرجع ٢/ ٢٤٣ .

(٣) نفس المرجع ٢٨٨ .

(٤) نفس المرجع ١/ ١٩٤ .

(١)
... ما ليس في القرد الذى هو شريكه في المسخ - لَمَا ذَكَرَه دونه."

فالجاحظ هنا ذكر أن هذه الحيوانات لها أصوات قبيحة سمجة مُنْكرة ،إلا أنه لم يذكر حيوانا آخر معروفًا ومشهوراً بقبح صوته ، حيث ورد ذكره في القرآن الكريم بهذه الصفة ، ألا وهو الحمار ، الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ (٢) . ولعل اغفال الجاحظ لذكره ناتج عن شهرته بذلك ،ومعرفة أكثر الناس لهذا الأمر .

د - سرعة الصوت :

لقد تنبه الجاحظ إلى سرعة الصوت ، حيث قارن بين سرعته وسرعة الضوء ، وهي لمحة من لمحاته العبقرية أدركها في ذلك الوقت المبكر واستنبطها مما في الحياة العملية . ولقد تجلى ذلك من خلال قوله : " ومتى رأيتَ البرقَ سَمِعْتَ الرَّعْدَ بَعْدُ . والرَّعدُ يكون في الأصل قبلَه ولكنَّ الصَّوتَ لا يصل إليك في سرعة البرق ،لأنَّ البارقَ والبصر أشدُّ تقاربا من الصَّوتِ والسَّمْع . وقد ترى الإنسانَ ،وبينك وبينه رحْلةُ فيضرب بعصاً إمَّا حَجراً ،وإمّا دَابَّةً ،وإمَّا ثوباً ،فترى الضَّرْب ثم تمكُثُ وقتا إلى أن يأتيَك الصَّوت". (٣)

يريد الجاحظ هنا أن يبين أن وصول الصوت إلى السمع ،أقل سرعة من وصول الضوء إلى البصر ، وقد أيَّد قوله هذا بظاهرة البرق

---

(١) انظر الحيوان ٤٠/٤ .
(٢) سورة (لقمان) آية ١٩ .
(٣) انظر (الحيوان) للجاحظ ٤٠٨/٤ .

والرعد ، حيث ذكر أن صوت الرَّعد يكون في الأصل قبل البرق ،إلا أننا نرى البرق أولا ثم نسمع الرَّعد بعدها ،ولقد علل هذا الأمر بقولـه: " إن البارق والبصر أشد تقاربا من الصوت والسمع ".

ونجد أن الدراسات الحديثة قد أثبتت هذا القول فيمابعد.

فرؤية الأشياء لا تستغرق وقتا ،فالإنسان يرى الشيء بمجرد وقوع بصره عليه.

أما سماع الصوت فيستغرق وقتا أطول بقليل من رؤية الشيء وذلك نتيجة لانتقال الصوت إلى السمع عن طريق الموجات الصوتية والذبذبات وهذا يستغرق وقتا أطول.

ولقد قام الجاحظ بشرح هذه الظاهرة وتوضيحها للعقول ، حيث ذكر بأن رؤية إنسان وهو يَضْرِبُ بعصاه حجرا ،أو دابة ، أو ثوبا ، أسرع من سماعنا لصوت الضرب.

١٤) - وضع الجاحظ لأسس علم الأداء الصوتي :

إن من أبرز ما قدمه الجاحظ من إضافات وضعه لأسس علم الأداء الصوتي ،وكان ذلك نتيجة لاهتمامه بالأصوات اللغوية وطرق أدائها .

وهذا العلم من أحدث العلوم الصوتيه ،وقد خصص له أستاذ عربي جليل وهو الدكتور (عبدالله ربيع محمود) كتاب (الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين) ،وفيه تحدث عن أهمية هذا الموضوع ومدى عناية العلماء به ، مع تعليله لأسباب اختياره للجاحظ ولكتابه البيان والتبيين بالذات . وبعد ذلك شرع -أخذا عن الجاحظ- في توضيح معنى البيان ومعنى الأداء وما هي العلاقة بينهما . إلى جانب ذكره لمجمل الملامح الأدائية في البيان والتبيين .

وفي الفصل الثالث تحدث عن مادة الأداء وهو (الصوت) وأن بتقطيعه تتكون الحروف (أصوات الكلام) ،وبتأليف الحروف تتكون الكلمات ثم الكلام . وفي هذا الفصل تحدث عن أعضاء النطق ، حيث يذكر ضمن كل عضو محاسن تمامه ،ومساوىء عيوبه.

وفي الفصل الرابع تحدث عن عناصر الأداء الجيد والتي تعتمد على :

١) - سهولة المخرج (وفيه تناول فكرة التنافر) .

٢) - وجهارة المنطق .

٣) - وتكميل الحروف (حيث مرّ على بعض عيوب النطق كاللُّثغة) .

٤) - إقامة الوزن والإيقاع (وفيه تكلم عن السجع والشعر وشيوع الاتزان في العربية).

٥) - الهدوء والتمهل (والمراد به التزمين وضبط سرعة الكلام) .

٦) - الصفات الجمالية العامة كالحلاوة والطلاوة والجزالة والفخامة والعذوبة وجودة اللهجة .

وفي الفصل الخامس تحدث عن عيوب النطق والأداء حيث قسمها إلى عيوب حركية ، وعيوب بيانية مثل العي والحصر والبكأ والفحم والسلاطة والهذر ، وعيوب صوتية مثل الجهورة ورقة الصوت ودقته ، وضآلة الصوت ، والتقعير ، وعيوب نطقية حيث قسمها تبعا لمظهرها الأدائي إلى استبدالية تشويهية ، إخفائية ، اضطرابية ، تزمينيه .

كما تحدث في الفصل السادس عن الأسباب التي تسهم اسهاما كبيرا في حسن الأداء وروعته ، من ذلك حديثه عن وحدة المنطوق وانسجامه من حيث التلاؤم والتناسب والانسجام الصوتي من ناحية ، وعدم التنافر والتباعد وعدم التوافق بين الأصوات من ناحية أخرى ، وذلك لبيان مدى العلاقة بين المنطوق والأداء . كما تحدث عن تنوع الأداء .

وفي الفصل السابع تحدث عن معينات الأداء من إشارة وغيرها . إلى جانب حديثه في الفصل الثامن والأخير عن اكتساب الأداء . وسيكون الحديث على النحو الآتي :

وحدة المنطوق وانسجامه :

لقد ذكر د . عبدالله ربيع أن العلاقة بين المنطوق والأداء

جِدُّ وثيقه ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يُحسن أداء كلام أو تجويد نطق ما لم يكن ذلك المُؤَدى محتملا لذلك التحسين والتجويد. لذلك شَرَع الأُدباء وعلماء البيان في الحديث عن التلاؤم والتناسب والانسجام الصوتي من ناحية، وعن التنافر والتباعد وعدم التوافق بين الأصوات من ناحية أخرى. وذلك لادراكهم بمدى العلاقة الوثيقة بين المنطوق والأداء.

وقد كان الكُتاب يلجأون إلى الأداء محتكمين إليه في تقويم ما كتبوا وتصويب ما دونوا. وقد أشار الجاحظ منذ وقت طويل إلى أن اللفظ إذا لم يكن رائعا والمعنى بارعا لم تُصّغ له الأسماع ولم تحفظه النفوس ولم تنطق به الأفواه ولم يخلد في الكتب. من أجل هذا كان تحذيره من تنافر الألفاظ وتنافر الحروف مما ينشأ عنه استكراه المتكلم وَتَتَعْتُعِه وَتَلَجْلُجِه، فضلا عما يصيب السامع من ضيق واستثقال.

ولقد أورد د. عبدالله ربيع قول الجاحظ موضحا هذه القضية بقوله: " ومن ألفاظ العرب الفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المُنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قَفْــر ولیس قُربَ قبر حرب قَبْرُ(١)

---

(١) انظر كتاب (الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين) د. عبدالله ربيع محمود ص ٢٩٠، ٢٩١. ط/١، عام ١٤٠٤هـ. وانظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٦٥.

كما يورد د. عبدالله ربيع أبياتا أخرى أوردها الجاحظ في كتابه موضحا كيف تكون الألفاظ مُتَبرِّئة بعضها من بعض، مما تكُدُّ لسان الناطق وتتعبه، وذلك لعدم الانسجام الصوتي والائتلاف الأدائي.

ثم يعود د. عبدالله ربيع فيؤكد ارتباط الأداء بالمنطوق مشيرا إلى دوره في وحدة ذلك المنطوق وتماسكه، فيورد قول الجاحظ: "إذا كانت الكلمةُ ليس موقِعُها إلى جنب اختها مَرْضِيًّا موافقا كان على اللِّسان عند إنشاد ذلك الشعر مَؤُونة، وأجودُ الشِّعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء ..." (١)

وبعد أن وضح الدكتور رأى الجاحظ في الكلام الجيد الذى انسجم تأليفا فسهل أداؤه، نجده يشير إلى ذكر الجاحظ لقضية الاقترانات الصوتية، واجتماع أصوات الكلام بعضها مع بعض مبيِّنا أن حديثه فيما سبق كان عن اقتران الألفاظ وعدم اقترانها، حيث يقول الجاحظ: "فهذا في افتراق الألفاظ فأما في افتراق الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ..." (٢) ولقد أشار الدكتور إلى أن ما ذكره الجاحظ هنا هو من نظام اللغة. حيث إن أداء أى لغة مرتبط بنظامها، بل إنه جزء من ذلك النظام، فإذا اختل النظام الصوتي للغة اختل أيضا نظام أدائها. ولقد أتى الدكتور بمثال على ارتباط النظام بالأداء وهو كتاب الله الكريم والحديث الشريف، وكلام فصحاء العرب.

----

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٢٩١. والبيان والتبيين ١/ ٦٧.

(٢) انظر الملامح الأدائية ص ٢٩٢. والبيان والتبيين ١/ ٦٩.

ثم يعود المؤلف فيبين أن العلاقة ليست مقصورة على نظام المنطوق وحسن الأداء ،لأن الجاحظ يرى أن هناك عوامل أخرى يمكن أن تحول بين الكلام الجيد والأداء الجميل ومن أهمها شخصية المتكلم وتكوينه الأدائي واللغوى حيث يضرب مثلا بنطق المغلاق الذى نشأ في سواد الكوفة ،بالعربية المعروفة بلفظ متخير فاخر ومعنى شريف كريم ،ومع ذلك فإن السامع لكلامه يعلم أنه نبطي . أى أن أداءه غير عربي وغير مرضي عند المستمعين العرب .

وبعد ذلك عرض المؤلف لبعض المظاهر اللَّهجية التي ذكرها الجاحظ في الجانب الصوتي ، مُبَيِّنا أنها غير مرضية ،وأن أداءها غير مقبول عند الذوق العربي العام.(١)

ولقد نوه المؤلف إلى أن تلك المظاهر اللهجية لم يقبلها أصحاب اللغة وأرباب أدائها ،" وعلى من يريد لكلامه نطقا صحيحا وأداء سليما وتأثيرا قويا أن يصوغ عباراته صياغة جيدة فعليه أن يراعي إمكانات الناطقين وقُدرات القارئين".(٢) وهذا شأن البيان والبلاغة التي أرادها الجاحظ وقدم لها من الصورة والأمثلة شعرا ونثرا وخطابة وقصصا ومواعظ وأحاديث وغير ذلك من سائر فنون القول .

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص٢٩٣ . والبيان والتبيين ٣/٢١٢، ٢١٣ .

(٢) انظر الملامح الأدائية ص ٢٩٤.

تنوع الأداء :

قال الدكتور عبدالله ربيع : إننا عندما نريد وصف حدث كلامي أو منطوق فإننا نستخدم تعبيرات مختلفة مثل : تكلم أو قرأ أو تلا أو أنشد أو غنى أو خطب أو حاضر أو قصّ أو وعظ أو حكى أو مثّل ... الخ . ذلك أن الحدث الكلامي يتنوع تبعا لأمور كثيرة من أهمها طبيعته وتكوينه ومصدره والغرض منه .

ومن ثم تتنوع طريقة إصداره ،وكيفية أدائه ، وتظهر آثار ذلك التنوع في نظام توزيع العناصر الأدائية وما يتصل بذلك من الصفات الصوتية العامة ونظم الإيقاع .

وذكر أن المستمع العادى يستطيع أن يفرق بين نوعيات الكلام ويدرك أن ما يسمعه هو من قبيل الشعر أو النثر .

كما أنه يستطيع التفريق بين ما يلقى ارتجالا وما يتلى من صحيفة أو كتاب . ومن هنا كانت عناية علماء الأداء والصوتيات بنوعية الأداء المتصلة بنوعية الكلام .

وقد أدرك علماء العربية أن لكل لون من ألوان الكلام أداءه الخاص ،فليس من المقبول مثلا أن تكون خطبة الجمعة بكيفية تلاوة القرآن الكريم وتسميعه . إلا أن العلماء لم يحاولوا تحديد النظم أو الصفات الخاصة بكل نوع من أنواع الأداء .

والجاحظ كغيره من علماء العربية الذين لم يعطوا هذا

الموضوع عناية كبيرة لكن اللّمحات التي ذكرها تكفي لإثبات أنه كان يدرك أن تنوع فنون الأداء واختلافها يكون تبعا لاختلاف أجناس القول ومجالاته ، ويظهر هذا :

١) - في تفريقه بين جودة الأداء وخلوه من العيوب في الكلام الطبعي والكلام الفني الذى يحتمل الصنعة وتكلف التجويد ، فالفضل في الأول أظهر والفخر به أكثر ،ولذلك نجده قد أعجب بجودة أداء شيخه واصل بن عطاء عند محاجّة الخصوم ومفاوضة الإخوان.(١) وهذا يوضح إدراك الجاحظ للفروق الأدائية بين الخطب والرسائل والكلام التلقائي الذى يصدر من الإنسان عند المحاجة والمفاوضة والذى يعتمد على جودة الطبع .

٢)- ويظهر أيضا في تفريقه بين الأداء الأصلى ،وبين المحاكاة والتقليد مشيرا إلى أن المقلد يؤدّى الكلام المحكي بصورة مشابهة في كثير من النواحي لأداء المتكلم الأصلي . وتظهر هذه المشابهة فيما سماه الجاحظ بمخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون .

٣) - كما يفرق الجاحظ بين أداء الأجنبي عن اللغة وأداء الحاكي والمقلد ، مشيرا إلى أن الحاكي والمقلد قد يحقق من الصور المطلوبة ما يساويها أو يكاد على حين أن الأجنبي لا يبلغ

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص٢٩٧ والبيان ١/ ١٤ ، ١٥ .

تلك الدرجة مهما كانت الظروف.[(١)]

ويواصل الحديث عن أداء الحكاية والتقليد ويربط بين المحاكاة الصوتيه والحركية فيقول : " فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جمعت كل طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد.. "[(٢)]

ولقد ذكر د. عبدالله ربيع أنه يفهم من كلام الجاحظ أن الحاكي أو المقلد لمزيد عنايته بما يؤدّى لا يكاد يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها في أدائه ، فهو يؤدّى عن وعي ويحاكي عن شعور. ثم يعلل الجاحظ تلك القدرة على المحاكاة بأمرين :

١) - ما منحه الله للإنسان من القدرة والاستطاعة والتمكن ، وما فضله به على سائر الحيوان من منطق وعقل .

٢) - ما يقوم به الإنسان من محاولات وتدريبات حتى تتذلل الجوارح لذلك وتتدرب .

ثم يعود د. عبدالله ربيع بعد ذلك فيبين لنا أن الجاحظ قد ذكر أن عادة المنشأ والجنس اللغوى في أداء المتكلم لا يمكن أن تمحوها القدرة على التقليد أو الموهبة والتدريب وخاصة في ما يتصل بأداء حروف الكلام "فإن حكمها إذا تمكنت في الألسنة خلاف هذا الحكم ".[(٣)]

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص٢٩٩ . وانظر قول الجاحظ في هذا المعنى في البيان ١/٦٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة. وانظر البيان ١/٦٩.

(٣) انظر الملامح الادائية ص٣٠١ ، وانظر البيان ١/٧٠.

وهو يشير هنا إلى ما يقرره علماء الصوتيات في العصر الحديث من أن جهاز النطق تتكيف تحركاته وتتحدد مع أصوات لغة الأم التي ينشأ عليها الإنسان مما يجعل نطق بعض أصوات اللغات الأخرى مستحيلا على من ينشأ بعيدا عنها.

ولقد وضح الجاحظ فكرته هذه بقوله : " ألا ترى أن السّندى إذا جُلب كبيرا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ، ولو أقام في عُليا تميم وفي سفلى قيس ، وبين عجز هوازن خمسين عاما ... (١)

ولقد أيد د. عبدالله ربيع فكرة الجاحظ هذه من خلال تجارب الذين يعملون في ميدان تعليم العربية لغير أبنائها.

٤) - ومن المواقف التي يظهر فيها إدراك الجاحظ وفهمه لتنوع الأداء إلى جانب وعيه بما لذلك الأداء من قيمة في حقيقة المؤدى ووجوده ما يظهر من حديثه عما يمكن أن نسمّيه بالأداء الروائي ، حيث إن من المعلوم عند أهل الفكر أن الأداء يمثل جزءا من حقيقة المؤدى .

والجاحظ وإن لم يُفَصِّل القول في هذا الموضوع إلا أنه قد التفت إلى أساس الفكرة ومجمل النظرية عند حديثه عن أداء النادرة وروايتها وبين أن جماليتها لا تتحقق إلا إذا نُقلت صوتيا بالصورة التي سمعت بها أو قيلت عليها .

---

(١) انظر الطلامح الأدائية ص ٣٠١ ، وانظر البيان ١ / ٧٠ .

ولو أردت التأكد من ذلك فارجع إلى قول الجاحظ : ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ..." (١) فالجاحظ هنا قد لفت أنظار المفكرين والأدباء إلى ذلك الأداء الروائي والفن التمثيلي منذ وقت مبكر . وهذا اللون من الأداء يتصل بأداء الحكاية والتقليد ، وهما يشتركان في وجوب المحافظة على الصورة الصوتية لما يُحَاكى أو يُروى .

٥) - كما أشار الجاحظ إلى ما يعيب الأداء من الوسطية أو ما سميه بالرَّتابة وذلك في قوله : " كما أن النادرة الباردة جدا قد تكون أطيب من النادرة الحارَّة جدا ، إنما الكرب الذى يختم على القلوب ويأخذ بالأنفاس ، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط ، وإنما الشأن في الحار جدا والبارد جدا ". (٢)

٦) - كما ذكر د. عبدالله ربيع أن الجاحظ كان على وعي بفنون أدائية أخرى كالخطابة ، والوعظ ، والقصص - وما يلزمهما من قراءة القرآن وتلاوته - إلا أن الجاحظ كان شديد الاهتمام بالخطابة ، وقد تجلَّى ذلك في كتبه . وترجع أهمية الخطابة إلى أنه كان سلاح المناضلين في عصر الجاحظ من أهل الفكر وأصحاب المبادىء والشيع المختلفة كالمعتزلة

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٠٤ . وانظر البيان ١/ ١٤٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٠٥ . وانظر البيان ١/ ١٤٥ .

وغيرهم . ونتيجة لأهمية الخطابة في ذلك الوقت نجد الجاحظ قد دعا إلى الجهر والجهارة وشدة الصوت وتجنب عيوب الأصوات والكلام.

٧) - كما اهتم الجاحظ أيضا بالقصص وذكر بأنه يتميز بلون خاص من الأداء ، ذلك أن القُصّاص كانوا يرون ان مهمتهم هي تذكير الناس بالآخرة وتزهيدهم بالدنيا . ولقد أطلق د.عبد الله ربيع على هذا اللون من الأداء صفة الباكي ،لأنه غالبا ما كان باكيا أو مبكيا .

ولقد ذكر الجاحظ عددا من أهل البيان وحسن الأداء من القُصّاص مشيرا إلى حُسْنِ قراءتهم وأدائهم للقرآن ، ومن هوءلاء جعفر بن الحسن ،وأبو بكر الهذلي ،وموسى الأسوارى . . . وغيرهم .(١)

٨) - كما ذكر د. عبدالله ربيع أن الجاحظ قد تعرض أيضا للشعر حيث كان على وعي بما يستلزمه الشعر من الإنشاد والترنم. ولقد كثر في ثنايا حديثه لفظ (أنشدني) أو (أنشدنا) ، وهذا يدل على أن معنى الإنشاد كان واضحا في عصره.

ولقد أشار الجاحظ إلى ما يَكُدُّ اللسان ويتعبه من الشعر ،ويحول بينه وبين الأداء الجيد.(٢)

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٠٨ . وانظر البيان ١/ ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٩ . وانظر البيان ١/ ٦٧ .

ولقد استخلص د. عبدالله ربيع من كل ما ذكره أن الجاحظ قد أدرك أن تنوع فنون الأداء يتبع تنوع فنون الكلام . كما عرف أن أداء الشعر يختلف عن أداء النثر ،وأن لكل فن من فنون القول طريقته وكيفية أدائه.

التزمين (١) وسرعة الكلام :

يعتبر التزمين عنصرا من عناصر الأداء (٢) ،وذلك لأنه من أهم العناصر التي يقوم عليها أداء الكلام . إذ لا تقتصر معرفة المستمع العادى على التفريق بين نوعيات الكلام وإدراكه أن ما يسمعه من قبيل الشعر أو النثر ، بل نجده عارفا بكل ما يتعلق بالنظام التزميني وسرعة الكلام ، فالمستمع يعرف متى يستحسن الإسراع في الكلام ، ومتى يجب الإبطاء ، ومتى يكون بين هذا وذاك في موقف يقتضي أحد الجانبين .

---

(١) توزيع زمن التكلم على أصوات المنطوق توزيعا يتفق مع نظام اللغة وقوانين الكلام فيها ،فينال كل صوت من أصوات المنطوق ما له من كم زمني ،وتتحدد السرعة المطلوبة للمنطوق تبعا لظروف الكلام والحالة النفسية للمتكلم . انظر الملامح الأدائية ص ١٥٢،١٥٣.

(٢) عناصر الأداء الأخرى هي : سهولة المخرج ،جهارة النطق ،تكميل الحروف ، اقامة الوزن ،الصفات الجمالية العامة . انظر الملامح الأدائية ص ١١٦ الى ص ١٧٨.

ولقد تعرض د. عبدالله ربيع إلى التزمين من خلال ما التقطه من كلام الجاحظ، إذ يرى أن المتكلم لا بد أن يراعي النظام التزميني وأن يعطى لكل وحدة من وحدات كلامه ما يناسبها من الزمن تبعا لنظام اللغة، وللسرعة التي يختارها لأدائه، والتي يحددها مقام القول وظروفه وما يتصل بذلك من عواطف القائل وانفعالاته. ولكن المتكلم قد يصاب أحيانا بما يشوه ذلك النظام التزميني، فتراه مسرعا حين يجب الابطاء، أو مبطئا حيث يلزم الإسراع أو بين هذا وذاك في موقف يقتضي أحد الجانبين، ومن ثم يأتي كلامه متراكب الأصوات، خفي الحدود، غامضا في سمع المخاطب فينفر منه السمع ويمجه الذوق السليم.

ولقد تنبه الجاحظ في تصوره الأدائي لذلك العنصر المهم، وأشار إلى العيوب التي تلحق الأداء من جهته. ومن العيوب التي ذكرها: اللَّفَف، والمَدّ والتمطيط، والرُّتَّة، والعَجَلة.(١)

---

(١) انظر الملامح الادائية من ص ٢٨١ الى ص ٢٨٦، وسيرد ذكر هذه العيوب في موضعها من عيوب النطق.

وبذلك يكون الجاحظ قد أسهم من قديم في معالجة العنصر الأدائي المعروف حاليا بالتزمين أو سرعة الكلام ، وقد وصف حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر .

ومع كل هذا فهو كعادته لم يضع لنا حدَّ العَجَلة أو الهدوء والتمهل تاركا ذلك للذوق العام والمشافهة والسماع .

وهكذا نرى الجاحظ على وعيٍ بكل أنواع العيوب التي تصيب المتكلم وتعترى الكلام والأداء ، وقد ضرب الأمثال لكل هذه الأنواع وروى من عيون الأدب ما يدفع إلى النفرة منها والابتعاد عنها ، ليتم حسن البيان ، وتتحقق روعة الأداء .

وإذا كان الجاحظ لم يُفَصِّل الحديث عن بعضها ، فإنه يكفيه هنا التنبيه إلى خطرها وسوء أثرها .

معينات الأداء :

لقد ذكر د. عبدالله ربيع أن هناك معينات للأداء ذات أثر كبير في قيامه بوظيفته من اجتذاب السامع والتأثير في المخاطبين وذكر أن الجاحظ عرفها ، ومنها :

١) - الإشارة أو الحركة الجسمية :

حيث ذكر أنها من أهم المعينات الأدائية ، بل إنها قد تنوب أحيانا عن الأداء الصوتي . وقد عدّها الجاحظ من أجل ذلك ضمن الخمس التي تحقق الدلالة وتُهيء التوصيل (١) وكان للجاحظ حديث عنها يرتبط في رأى بعض الباحثين بأكثر من مبدأ من مبادئ ذلك العلم الحديث الذى يسمونه بعلم الحركة الجسمية .

قال الجاحظ : " والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ". (٢)

---

(١) " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها . اللفظ ثم الاشارة ثم العقد ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة ". انظر البيان والتبيين ١/ ٧٦ .

(٢) انظر الملامح الأدائية ٣١٦ . والبيان والتبيين ١/ ٧٨ .

ويرى الدكتور عبدالله ربيع أن الإشارة ذات أهمية كبرى في الاداء بصورة عامة ،وتكون الأهمية أكثر بروزا ،وأوضح ظهورا بالنسبة للأداء الخطابي والإلقاء التشيلي . وقد أشار الجاحظ إلى هذا ،وذَكَّر به .

وهناك بعض الأعضاء التي ذكرها الجاحظ ولها ارتباط كبير بالعملية الكلامية والأدائية ،وهي بحق أعضاء للحركة والإشارة مثل الطرف والحاجب ،واليد ، والرأس ،والعين ،والمنكب(١) . قال الشاعر في دلالات الإشارة .

أشارتْ بِطَرْفِ العين خِيفةَ أهلِها إشارةَ مَذْعورٍ ولم تتكلَّم
فأيقنْتُ أن الطَّرْفَ قد قال مرحبا وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيَّم (٢)

قال الجاحظ : " هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت". (٣)

وقال أيضا : " والمغني قد يوقع بالقضيب على أوزان الأغاني ، والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه ،ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ ،وضروب المعاني ولو قبضت يده ومنع حركة رأسه لذهب ثلثا كلامه". (٤)

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٢٠ . والبيان والتبيين ١/٧٧.
(٢) نفس المرجع ص ٣٢١ . والبيان والتبيين ١/٧٨.
(٣) نفس المرجع ص ٣٢٢ . والبيان والتبيين ١/٧٩.
(٤) نفس المرجع والصفحة . والبيان والتبيين ٣/١١٩.

ولقد أورد د. عبدالله ربيع عدَّة أقوال للجاحظ وعدّها من أنفس ما تحدث به الجاحظ عن الإشارة والحركات الجسمية .

كما تحدث الجاحظ عن أهمية الإشارات والحركات والهيئات المختلفة للمتكلم في تصويره لحسن البيان والأداء . ولقد تجلّى هذا الأمر من خلال ما رواه عن أبي شمر الذى كان إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه / ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه ،حتى كلّمهُ ابراهيم بن سيار النظام ،فاضطره بالحجة حتى حرك يديه ، وحل حبوته ،وحبا إليه حتى أخذ بيديه.

ولقد علل الجاحظ سبب إعراض أبي شمر عن استخدام الإشارة والحركة بخفة مؤونه الكلام عليه ، وقلة حاجته إلى ما يدعم قوله ويقوى أداءه .(١)

كما أشار الدكتور إلى الأدوات التي تزيد من فعالية الحركات العضوية وتقوى تأثيرها عند المستمعين ، إلى جانب الأعضاء التي يستخدمها الإنسان المتكلم من اليد والحاجب والعين ... الخ

ومن أهم الأدوات التي تحدث عنها الجاحظ وبين أهميتها ، ورد أقوال الذين يعيبون استخدامها هي :

(العصا) وهي من أهم الأدوات عنده حيث قال : " ومن شأن المتكلمين أن يُشيروا بأيديهم ،وأعناقهم ، وحواجبهم ، فإذا أشاروا بالعُصيّ فكأنهم وصلوا بأيديهم أيديا أُخَر ".(٢) ثم يأخذ الدكتور من كلام الجاحظ أنه يرى أن حمل العصا والمخصرة دليل

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣١٩. انظر البيان والتبيين ١/ ٩١.

(٢) نفس المرجع ص ٣٢٣. انظر البيان والتبيين ٣/ ١١٦.

علـــى التهيوء للخطبة ، والاستعداد للإطالة فيها ،وأن ذلك صار من عادات العرب .(١)

ومن الأدوات الأخرى التي يحملها المتكلم في يده غير العصا : السيف ،والمصحف ،والكتاب ،والمسبحة ،والمخصره ،والقلم ، وأوضحوا أثر ذلك في معونة الأداء .

وإذا كانت هذه الأدوات تُغني أحيانا عن الكلام على نحو ما يروى الجاحظ عن العصا ،فإنها أيضا تُسهم في القاء المهابه والروعة على المتكلم في مواقف القول المختلفة .

ومن أجل هذا كان حرص العرب في خطابتهم على استخدام تلك الأدوات وحَمْلِها على حدِّ قول الجاحظ .

ولقد أشار الدكتور عبدالله ربيع إلى أن الجاحظ قد ساق أمثلة كثيرة من أشعار العرب وأقوالهم ،ما يدل على ارتباط القول عندهم بتلك الأدوات ومزيد عنايتهم بها .

كما أنهم لم ينسوا طبيعة المكان من علو وانخفاض ،وما لذلك من أثر في حسن التوصيل ،وجمال التبليغ ،ومن ثم كان حديثهم عن المنابر وخشبات المسارح .(٢)

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص٣٢٣ . والبيان والتبيين ٣/ ١١٧ .

(٢) انظر الملامح الأدائية ص ٣١٨ .

٢) - الهيئة العامة للمتكلم :

وتعني الصورة أو الكيفية التي يكون عليها المتكلم في أثناء حديثه، حيث يشمل حالته النفسية من ثبات أو خوف، كما يشمل زيّه ولباسه، وصفاته الخَلقية وسائر ما يتصل به. حيث ذكر د. عبدالله ربيع أنها ذات أهمية بالغة في الأداء والتوصيل، وخاصة في مجالات الخطابة والتمثيل. ذلك أن هيئة المتكلم وما يتصل بها من لباس وغيره تؤثر دون شك في السامع الرائي وتوحي إليه بكثير مما يجيش في صدر المتحدث من أفكار وانفعالات.

كما أن رؤية المتكلم للمستمعين واحساسه بوجودهم له أثر كبير في صنع أدائه وتلوين كلامه. ومن أجل ذلك كله كانت عناية علماء الأداء بهيئة المتكلم وحركاته وسكونه والتفاتاته وإشاراته، وتعبيرات وجهه، وكانت دعوتهم للخطيب أن يكون وسطا بين الجمود والتراخي، وأن تلائم أسارير وجهه حال كلامه وطريقة أدائه، فلا تنبسط في مواقف الحزن ولا تنقبض مع نغمات السرور.

فوقفة المتكلم أو جلوسه، وسيره أو توقفه، وثباته أو التفاته كل ذلك وغيره يؤثر دون شك في تصوير موقفه، ودعم أدائه.

ولقد أدرك الجاحظ في هذا المقام أهمية عامل الثقة بالنفس وما لها من آثار في دعم موقف المتكلم وتقوية قدرته على الأداء "فالثقة تنفي عن قلبه كل خاطر يورث اللَّجْلَجَة والنَّحْنَحة والانقطاع والبهر والعرق" (١)،

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٢٦. والبيان والتبيين ١/ ١٣٤.

فهو يدعو المتكلم إلى الثبات و رباطة الجأش ،ويرى أن من أعيب الأمور أن يعتريَ الخطيب الخوف والارتعاش والعرق ".[١] فرباطة الجأش والثبات تدل على قوة الشخصية ،التي هي من أهم ما يشترط لمواجهة الناس في مقامات الأداء .

أما حديثه عن الزّى واللباس فقد ذكر الجاحظ فيه ما يدل على أن فنون القول والأداء تقتضي تنوعا في صور اللباس والأزياء . فهيئة الشاعر المنشد لا يشترط أن تتفق مع هيئة الخطيب المُلقى ، فالصواب أن يكون لكل فن هيئة ،ولكل مقام كيفية . فهو يحدثنا مثلا عن زى الشعراء فيروى قصة العماني الراجز الذى نهاه الرشيد أن ينشده إلا وعليه عمامة عظيمة الكور ،وخفان دُمَالِقان .[٢]

و قد علق الدكتور ربيع بقوله : " وهكذا يشير الجاحظ إلى تأثير الزّى وكيف كانت أعرابيته مفتاحا إلى قلب الرشيد ،وسبيلا صالحا لتأثير الشعر في فؤاده .

كما أورد الدكتور تعليقا لأحد الباحثين المحدثين بيَّن فيه اهتمام الخلفاء بأن يقف المنشدون أمامهم بزى معين و هيئة حسنة .

أما بالنسبة للصفات الخَلقية وسائر ما يتصل به ،فقد تحدث الجاحظ عن الجمال وبيّن أنه إذا لم يشترط في الخِلقة فإنه يستحسن في اللباس وما يملكه الإنسان .

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٢٦ وانظر البيان والتبيين ١/١٣٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٢٧ . وانظر البيان والتبيين ١/٩٥ .

ونوه إلى ما يقتضيه أو تستحبه بعض فنون القول من صفات خاصة في المتكلم ، كأن يكون القاصّ أعمى ويكون شيخا بعيد مدى الصوت . . ، وأن يكون الشاعر أعرابيا ، ويكون الداعي إلى الله صوفيا . . . ". (١)

" ومن ثم نرى أن هناك ما يعزز الأداء الصوتي ، ويعينه على بلوغ هدفه وتحقيق غرضه ، وأن شيخنا كان على وعي بذلك قبل أن يلتفت إليه المحدثون اليوم ويضعوا فيه العلوم الخاصة والقوانين التي يلتزم بها العاملون في مجالات القول وفنون الأداء ". (٢)

اكتساب الأداء :

لقد ذكر د. عبدالله ربيع أن الأداء طبع وممارسة تتصل بالغريزة الكلامية عند الإنسان.

وذكر أن الظروف التي يمرّ بها الأداء وغيره من نظم اللغة وظهور الانحرافات والعيوب تجعل المرء يتساءل عن كيفية تحصيل هذا الأداء ، وعن امكانية تَعَلُّمه واكتسابه.

والواقع أن الجاحظ قد صور لنا محاسن الأداء وعرّفنا بعيوبه وأعطانا من النماذج البشرية والبيانية ما يمكن اعتباره أساسا للوصول إلى مقومات الأداء .

ومهما يكن فإن في بعض أوصاف الجاحظ ما يدل بوضوح ويهدى بدقة إلى كيفية الحصول على الصورة التي يرجوها من حسن البيان وجميل الأداء.

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٢٦ . والبيان والتبيين ١/ ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٢٧ .

قال الدكتور عبدالله ربيع : يرى المتأمل في كلام الجاحظ أن تحصيل الأداء الجيد يعتمد على أمور أهمها :

الطَّبع والفِطْرة والاستعداد وما يتصل بذلك من السلامة النفسية والعضوية . ويتجلى لنا ذلك في معالجة الجاحظ للمحاسن والعيوب .

ولقد ذكر الجاحظ أن حسن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة .

ويرى أن رأس الخطابة - وهي من أهم أنواع الأداء - الطبع حيث قال : " رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربه ، وجناحاها رواية الكلام . . . ". (١) وهو ينقل عن بشر بن المعتمر شرط وجود الطبيعة لمن يريد مزاولة ألوان البيان والخطابة.

كما يبيّن الصفات الأساسية في تلك الطبيعة من مدحهم لشدة العارضة ، وقوة المنّة ، وظهور الحجة ، وثبات الجنان ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم ويهجون بخلاف ذلك.

كما يرى الجاحظ " أن الرجل قد يكون له طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة . . . وهكذا ". (٢)

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٣٣ .

(٢) نفس المرجع والصفحة.

قال المؤلف : وهكذا نرى الجاحظ مؤمنا بالطبيعة والفطرة والاستعداد في مجال البيان والأداء المرتبط به. وواضح له أن تلك الطبيعة ليست متَّحدة عند كل الناس.

وهنا يطرح المؤلف سؤالا عن موقف الجاحظ من الأداء على البديهة والارتجال، وهل لذلك علاقة بالجنس أو العرق ؟

قال : إن الجاحظ فيما يبدو يؤمن بأن طبيعة القول وسجيَّة الكلام والأداء ذات علاقة قوية بالجنس، وذات ارتباط واضح بالعرق. ولقد اتضح ذلك من قولين للجاحظ، أولهما : أن العرب يقولون ويتكلمون على البديهة والارتجال ودون تكلف للقول أو تفكير فيه، وأنهم في ذلك على خلاف من الأمم.(١)

القول الثاني : أنه قد زعم بأن العِرق ذو أثر في وراثة الخطابة والقيام بالبلاغة والفصاحة.(٢)

والجاحظ مع إيمانه بالطَّبع فإنه يرى أن العادة لها أثرها الفعَّال في تكوين الملكة الأدائية.

وقد أشار إلى هذا في شرحه لموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من قول الشعر حيث يقول : "فلما طال هجرانه لقرض الشعر، وروايته، صار لسانه لا ينطلق به، والعادة توأم الطبيعة".(٣)

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٣٤، حيث يرى الجاحظ أن كلام الفرس والعجم لا يصدر إلا عن طول فكر واجتهاد ومشاوره.

(٢) انظر نفس المرجع ص ٣٣٥.

(٣) نفس المرجع ص ٣٣٦. ذكر الجاحظ هذا القول ردا على شيخ من البصريين حينما قال أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان "لا يقرض الشعر، ولا يتكلف الخطابة.، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب" وقد رد عليه الجاحظ بقوله : "ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة، وأداة قرض الشعر ورواية جميع النسيب، قد

فالجاحظ يرى أن المؤثر الأول في تحصيل الأداء هو الطبيعة والاستعداد والعادة . ويتصل بذلك عامل السلامة النفسية والعضوية من المواضع التي تحول بين الإنسان وبروز ما لديه من المواهب وما يتمتع به من الاستعداد والفطرة. ذلك أن تلك الطبيعة وهذا الاستعداد يمكن أن يذهب إذا ما أُصيب المتكلم بلون من ألوان الأمراض النطقيـــة أو النفســية .

ويعطينا الجاحظ مثالا لصاحب طبيعة واستعداد تغير حالـه والتوى لسانه بسبب من تلك الأسباب المذكورة . قال أبو الزحف الراجز:

كأنّ فيه لَفَفَاً إذا نطَقْ   من طُولِ تحبيسٍ وَهَمٍّ وأَرَقْ (١)

وأكثر الذين حدثنا عنهم الجاحظ في البيان والتبيين عند كلامه عـن عيوب النطق كانوا من أصحاب اللُسن والخطابة والأداء ،وإنما اعتراهـم بعض ما عاب أداءهم وأفسد شيئا من طبيعتهم وعادتهم.

كما ذكر المؤلف أن الجاحظ كان يؤمن بأن الكلام صناعة ويرى أن تلك الصناعة تحتاج إلى ما يقوى الطبع فيها.

وفي مقدمة ذلك سيكون العلم والرواية وما يرتبط بهما من السماع والدراية وما يحققهما من التكلف والتدريب ،والمحاكاة والتقليد ،والعرض والاختبار . أما العلم بصناعة الكلام وصنعة الأداء فإن أحدا لا يستطيع تصور أي فن أدائي من دونه.

== كانت فيه تامة وافرة ،وجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة... فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ،صار لسانه لا ينطلق به..." أهـ ٤/٣٣ من البيان والتبيين .

(١) انظر الملامح الأدائية ص٣٣٧ . والبيان والتبيين ١/٣٨ .

ولما كان العلم بتلك الصنعة لا يكون إلا بالسماع والرواية ،فقد رأينا الجاحظ يذكر هذا ويلح عليه.

وقد سبق القول بأن جناحي الخطابة هما رواية الكلام والأصل في الرواية هو السماع ، لذلك دعا الجاحظ مريد البيان والأداء إلى السماع والاستماع حيث قال : " ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول" ولقد أكد الجاحظ هذا الأمر في أكثر من موضع.(١)

كما ذكر المؤلف أن الجاحظ قد حذر من الخطأ في الاستماع فقال : "ان سوء الاستماع يعقب العيّ".(٢)

وثمرة الاستماع تظهر أدائيا عند محاولة المستمع التكلم بما سمع والتحدث بما وقر في ذهنه ليبرز أداؤه وينجلي نطقه ،ومن هنا ندرك أهمية ما سماه الجاحظ بالتكلف ، وما أشار إليه من الدربة والتقليد ، وغير ذلك من وسائل التربية الأدائية والتعليم.

والذى يتعلم لا بد أن يتكلف النطق الصحيح ،والأداء الجميل ، وأن يجانب الصمت حتى لا يفسد لسانه.

فحقا إن التكلف يؤدى إلى الدربة ،ومن أجل هذا كانت عناية القدماء والمحدثين بالتمرين والتدريب على الأداء الصائب والمنطق السليم.

----

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٢٣٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

ولما كانت الحكاية والتقليد من أهم وسائل التكلف ومن أقوى أدواته في التصحيح والتجويد ،لذلك نجد الجاحظ قد ذكر قدرة الإنسان على الحكاية وحسن استعداده فيها.

كما أشار إلى محاكاة بعض المتحدثين لغيرهم ممن اشتهروا بحسن الحديث وحلاوته ،فهذا أبو نضرة وعبيدالله ابن أبي بكرة يحكيان حديث ابن الزبير ،وكان من أحسن الناس حديثا.(١)

ولا ينسى الجاحظ وهو يتحدث عن تعليم الخطابة والبيان أن عنصر الاختبار والعرض من أهم العناصر التي تدفع بالمتكلم إلى ارتقاء سلم البيان ومن ثم فهو يدعو مريد البيان والأداء عندما يكون في مرحلة التكلف والتدريب إلى عرض كلامه على أهل الخبرة وأرباب الفن ليتم له بذلك العرض اختبار قدراته.

وإنها لطريقة رائعة ووسيلة جيدة ،أن يرى الإنسان درجة نفسه ومنزلة نجاحه أو فشله عند الآخرين ،فيستمر في طريقه/أويعدل عنه تبعا لما يكشفه له هذا الاختبار ويُبَيِّنه له ذلك العرض.(٢)

ويرى الجاحظ أن الأسماع والعيون هما الحكم الحقيقي على ما يقال والفيصل الأساسي على ما يؤدى ،والمانع القوى من وقوع المتكلم في العيّ أو الإكثار. ومن هنا يظهر دور المستمع في تحقيق الأداء الجيد والنطق السليم. مما جعل الجاحظ يعنى بالربط بين القول والاستماع من ناحية ،وبين القائل والمستمع من ناحية أخرى.

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٤١. وانظر البيان والتبيين ١/ ٧٣.

(٢) نفس المرجع ص ٣٤٢ ،وانظر ما قاله الجاحظ عن هذا الأمر.

ويشير إلى قوة الارتباط بين المتكلم والمستمع ،وأنها تفتح بابا جديدا من العلم يمكن أن يعبر عنه ببلاغة القول ،وفصاحة التكلم قال : "قالت امرأة لزوجها : مالك إذا خرجت إلى أصحابك تطلقت وتحدثت ،وإذا كنت عندى تعقدت ،وأطرقت ؟ قال : لأنني أجل عن دقيقك وتدقين عن جليلي "(١) قال المؤلف : فعندما يوقن طالب الأداء بأهمية المستمع والاستماع في تكوينه فإنه لن يدع تدريب نفسه وتمرين فكره على مواجهة مواقف الاستماع ليرى أثر أدائه ،وتأثير كلامه ،وليقدم من عناصر الصوت والأداء ما يناسب أقدار هؤلاء المستمعين .

فهؤلاء المستمعون هم الذين عَلَّموا واصل بن عطاء الأداء السليم عندما خشي سخريتهم من لثغته ،وتهكمهم بعيب أدائه .

وبهذا يكون د. عبدالله ربيع قد حَدَّدَ تصور أبي عثمان لعملية تعلم الأداء واكتسابه ،وما للاستماع في ذلك من آثار خطيرة يعرفها المشتغلون بعلوم البيان والأداء .

وهكذا فصَّل الدكتور عبدالله ربيع وضع الجاحظ لأسس علم الأداء الصوتي وهو ما تمثلت فيه الإضافة الرابعة عشرة من إضافات الجاحظ في مجال دراسة الأصوات اللغوية . وبها يتم هذا الفصل .

---

(١) انظر الملامح الأدائية ص ٣٤٦ .

الباب الثالث

الكلام عن عيوب النطق قبل الجاحظ وعنده

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الاول : الكلام عن عيوب النطق قبل الجاحظ .

الفصل الثاني : كلام الجاحظ عن عيوب النطق .

الفصل الثالث : إضافات الجاحظ في كلامه عن عيوب النطق .

الفصل الرابع : تقويم كلام الجاحظ عن عيوب النطق .

الفصل الاول : الكلام عن عيوب النظم قبل الجاحظ .

الفصل الأول

الكلام عن عيوب النطق قبل الجاحظ

من الملاحظ أن بعض السابقين على الجاحظ قد تعرضوا لعيوب النطق بالتفسير والتوضيح ،وكان هذا التفسير مندرجا ضمن كلامهم عن أعضاء البدن الإنساني في كتب خلق الإنسان ،لذلك نجدهم قد ذكروا عيوب النطق في أثناء حديثهم عن اللسان وما يُصيبه من الآفات .

ونظرا إلى أن ثابت بن أبي ثابت قد ذكر في مقدمة كتابه (خلق الإنسان) أنه قد روى محتوياته عمن سبقوه كالأصمعي ،فسنعد كلامه عن عيوب النطق ممثلا لكلام السابقين على الجاحظ .

ومن هذه العيوب التي ذكروها :

(١) - البَكَمْ :

قال ثابت بن أبي ثابت إن الأَبْكَمَ هو : "الأَقْطَعُ اللسانِ العَيِّ بالجوابِ ،يقال : رجلٌ أَبْكَمُ وامرأةٌ بَكْماءُ ".(١)

وقد اختلف الأئمة في التفريق بين الخَرَس والبَكَمْ ، فبعضهم قال : إن الأَبْكَمَ والأَخْرَس شيءٌ واحد.(٢)

---

(١) انظر كتاب (خلق الانسان) لثابت ص١٨٣.

(٢) انظر لسان العرب مادة (بكم)١٢/٥٣.

" وقلت : بَيْنَ الأَخْرَسِ والأَبْكَمِ فَرقٌ في كلام العرَب. فالأَخْرَسُ الذى خُلِقَ ولا نُطْقَ له كالبَهيمة العَجْماء . والأَبْكَم الذى للسانه نُطْقٌ وهو لا يَعْقِل الجوابَ ،ولا يُحْسِن وَجْه الكلام .(١)

ويؤخذ من سياق ما ذكره ثابت عن البكم والخَرَس أنه يؤيد الرأى الذى يقول إن هناك فرقا بين البكم والخرس ،والذى يؤيد هذا القول هو ما أورده في كتابه من قول الراجز :

يا سائقَ اللَّيْلِ أَمَا تَكَلَّمُ
أَكُلَّ هذا اللَّيْلِ أَنْتَ آبْكَمُ

أى ساكت ".(٢) فالبكم هنا يدل على أن انقطاع الكلام كان عن عمد ، فهو يستطيع الكلام إلا أنه لم يتكلم .

كما أن تعريف ثابت للخرس يؤيد رأيه أيضا في أن هناك فرقا بين الخرس والبكم ،حيث قال : " وأما الخَرَسُ فهو أَنْ لا يتَكَلَّمَ الْبَتَّةَ ".(٣)

نخلص من هذا إلى أن تعريف ثابت للبكم يدل على أن البكم عىٌّ يتمثل في الانقطاع عن الكلام لعائق ما ،أيا كان ذلك العائق .

---

(١) انظر تهذيب اللغة للأزهرى ١٠/٢٩٦ .
(٢) انظر (خلق الانسان) لثابت ص ١٨٣ .
(٣) نفس المرجع ص ١٨٦ .

٢)- التَّمْتَمَةُ :

لقد ذكر الأصمعيُّ وثابت أن التَّمتمة هي تردد اللسان في التاء ، قال الأصمعيّ : "ويُقَالُ في لِسَانِهِ تَمْتَمَةٌ وهيَ تَرَدُّدُ التَّاءِ يُقال: رَجلٌ تَمْتَامٌ ، وامْرَأةٌ تَمْتَامَةٌ" قال ربيعة الرَّقِّي :

فَلَا يَحْسِبُ التَّمْتَامُ أنِّي هَجَوْتُهُ   وَلَكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ المَكَارِمِ (١)

وقال ثابت : "وأَمَا التَّمْتَامُ : فالذى في لسانه تَمْتَمَةٌ ، وهو ثِقَلٌ وتَرْدِيدٌ في التَّاءِ". (٢)

كما أورد ثابت قول أبي زيد : "التَّمْتَامُ : الذى يَعْجَلُ في الكلام ولا يُفْهِمُكَ". (٣)

فالتَّمْتَمَةُ تردد التاء على اللسان عند النطق ، أما التفسير الأخير المنسوب لأبي زيد فهو تفسير بما يوحى به عمل التمتام ذاك من أنه يتعجل النطق .

٣) - الجَلْجَالُ :

قال الأصمعي وثابت بن أبي ثابت إن الجَلْجَالَ هو : "الذى يُرَدِّدُ الكَلِمَةَ في فِيهِ فلا يُخْرِجُها مِن ثِقَلِ لِسانِهِ". (٤)

---

(١) كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص١٩٧.

(٢) كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص١٨٤.

(٣) نفس المرجع ص ١٨٥.

(٤) نفس المرجع ص١٨٣. وكتاب (المخصص) لابن سيده ١/ ١٢٢.

هكذا جاء في خلق الإنسان لثابت ،وهذا التفسير ترديد الكلمة في الفم لا يخرجها من ثقل لسانه " يوحد بين الجلجال واللجلاج ،حيث فسرت اللَّجْلَجة بالتردد في الكلام ،وبثقل اللسان ونقص الكلام وأن لا يخرج بعضه في إثر بعض.(١)

ومعنى العبارة الأخيرة هو معنى التردد في الكلام - أى أن الجَلْجَال فسر بما يفسر به اللجلاج .

فإذا أضفنا إلى هذا أن تاج العروس وهو أكبر المعاجم العربية لم يذكر الجَلْجَال في تركيب جلجل (٢) ،ترجح الظن بأن لفظ الجَلْجَال قلب للفظ اللَّجْلَاج .

٤) - الحُكْلة :

لقد اتفق الأصمعي وثابت على تعريف الحُكْلة ،وهي قولهما :

" وفي اللِّسانِ الحُكْلَةُ وهي كالعُجْمَةِ تكونُ فِيه لا يُبِينُ صاحِبها الكَلَامَ ".(٣)

قال رُؤْبَةُ بن العَجَّاج :

لو أنَّني أُوتِيتُ عِلْمَ الحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمانَ كَلَامَ النَّمْلِ (٤)

---

(١) انظر تاج العروس للزبيدى مادة (لجج).

(٢) نفس المرجع مادة (جلل).

(٣) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص١٩٧ . وانظر مخطوطة الغريب المصنف لأبي عبيد. باب الألسنة والكلام. وانظر أيضا كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص١٨٢.

(٤) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص١٩٧. وثابت ص١٨٢.

فالمراد بالعجمة هنا هو عدم بيان الكلام ووضوحه ،وذلك راجع لانخفاض الكلام وخفائه بحيث لا يسمع ، كما يدل عليه رجز رؤبة ،فإن كلام النمل لا يسمع .

٥) - الخَـرَسْ :

قال ثابت بن أبي ثابت : " وأما الخَرَسُ فهو أنْ لا يَتكلمَ البتَّةَ ".(١)
وهذا يعني أن الشخص المصاب بالخرس لا يستطيع أن يتكلم نهائيا ، أى خُلق ولا نطق له كالبهيمة العجماء .

وهذا التعريف الذى ذكره ثابت للخرس ،يؤيد ما قلناه سابقا في أن ثابتاً يؤيد الرأى الذى يقول إن هناك فرقا بين البَكَم والخَرَس .

٦) - الرُّتَّـة :

قال ثابت بن أبي ثابت : "الأَرَتُّ : الذى لا تَكادُ كَلِمَتُه تَخرجُ من فِيه ،وإنما يُرَدِّدُ كلامَه إلى حَنَكِه ،بَيِّنُ الرَّتَتِ والرُّتَّةِ ، قال العجّاج :

حتّى تَرَى الْبَيِّنَ كالأَرَتِّ "(٢)

---

(١) كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨٦.
(٢) نفس المرجع ص ١٨٤.

هكذا فسر الرُّتة تفسيرا قريبا من اللجلجة وقد جاءت في تاج العروس تفسيرات أخرى ،أنسبها لما هنا ما حكاه عن التهذيب : الرُّتَّةُ كالرَّتَج تمنع أول الكلام فإذا جاء منه اتصل به ".(١)

٧) - عَصْبُ الرِّيق :

قال الأصمعيُّ : "وفي الفَم العَصْبُ وَهُوَ أَنْ يَخْثَرَ الرِّيقُ فَيَيْبَسَ عَلَى الأَسْنَانِ والشَّفَتَيْنِ مِنْ عَطَشٍ أو خَوفٍ. يقالُ عَصَبَ الرِّيقُ بِفَمِ فُلَانٍ يَعْصِبُ عَصْباً ".(٢)

فَيُبْس الريق وجفافه يكون بسبب الحرج أو الخوف والاضطراب أو العطش ،مما يترتب عليه التعثر في إخراج الكلام بصورة سهلة ،لأنّ جفاف الفم يعوق حركة اللسان داخل الفم عند النطق بالأصوات اللغوية. قال ابنُ الأَحْمَر :

[يُصَلِّي عَلَى مَنْ مَاتَ مِنَّا عَرِيفُنا وَيَقْرَأُ] حَتَّى يَعْصِبَ الرِّيقُ بالفَمِ (٣)

ولقد ذكر الأصمعيُّ أن (الطُّرَامَةَ) و (الدُّوايَةَ) كلها أسماء تطلق على الريق الذي ييبس على الفم من العطش .

---

(١) انظر تاج العروس رَتَتَ . وقوله كالرتج هي في طبعة الخيرية كالريح ".

(٢) كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٥.

(٣) نفس المرجع والصفحة .

وذكر أنه يُقَالُ للرَّجُلِ إذا أَصَابَهُ جَهْدٌ وعَطَشٌ : " عَصَبَتْ طِلَاوَةٌ بِفِيهِ : وَهُوَ أَنْ يَخْثَرَ الرِّيقُ حَتَّى يَتَلَطَّخَ به الشَّفَتَانِ والأَسْنَانُ ".(١)

وينتج عن هذا اليُبس والتخثُر ، صعوبة إخراج الكلام وتعثره في الفم .

٨) - العَقَد :

قال ثابت بن أبي ثابت : " وفي اللسان العَقَدُ ، وهو انعقادٌ فيه ، يقال : رجلٌ أَعْقَدُ ، وامرأةٌ عَقْداءُ اللسانِ ".(٢)

وجاء في اللسان قوله " وفي لسانه عُقْدَةٌ وعَقَدٌ أى التواء ".

وقيل : في لسانه عُقدة أو رتج ".(٣)

وجاء في قوله تعالى : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾.(٤)

فعند النظر لما سبق نجد أن هذا العيب يكون بسبب شيء ما يعوق اللسان عن الحركة كغلظٍ فيه أو التواء ، مما يجعل الإنسان يشعر بنوعٍ من الثقل والتحبس في لسانه ، فلا ينطلق الكلام بصورة سليمة . وهذا يجعله لا يفصح ولا يُبيِّن.

---

(١) كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨٦ .

(٣) انظر لسان العرب مادة (عقد) ص ٢٩٨ .

(٤) انظر سورة طه آية ٢٧ .

٩) - الفَأْفَأَةُ :

لقد اتفق الأصمعيُّ وثابت على أن الفَأْفَأَة تردِيدٌ للفاء ، إلا أن ثابتا لم يصرح بهذا الحرف ، بل نجده قد ذكره ضمنا عند شرحه لكلام الفَأْفَأَة . قال الأصمعي : " وَفِي اللِّسانِ الْفَأْفَأَةُ وَهُوَ أَنْ يُرَدِّدَ صاحِبُهَا في الْفَمِ الْفَاءَ . يُقالُ رَجُلٌ فَأْفاءٌ ، وامْرَأةٌ فَأْفَاءَةٌ ". (١)

وقال ثابت : " والفَأْفَأَةُ : أن تَسْبِقَ الرَّجُلَ كَلِمَتُهُ إلى شَفَتَيْهِ فَيُرَدِّدَها بِشَفَتَيْهِ مِراراً لا يُفْصِحُ بها ، يقال : رَجُلٌ فَأْفاءٌ ممدود مصروف / وامرأةٌ فأْفاءةٌ . وقومٌ فَأْفاءُونَ ." (٢)

فهذا التوضيح الذى ذكره ثابت في تعريفه ، يقصد به (الفاء) . لأن ترديد النفس بين الأسنان العليا والشفة السفلى يُولِّد الفاء . وأنشد لرؤبة :

فَأْفَأَةَ الْفَأْفاءِ لَجَّ هَذْرَمُهْ

قال أبو مالك : المُهَذْرِبُ والمُهَذْرِمُ : الذى يَخْلِطُ كَلَامَهُ. (٣)

من هذا نجد أن الفَأْفَأَة عبارة عن تردد صوت الفاء في أفواه بعض الناس عند إرادتهم الكلام.

---

(١) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص١٩٧.

(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨٥.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

١٠) - الفَدَامة :

قال ثابت بن أبي ثابت : " الفَدْم : العَيُّ اللسانِ الثَّقيلُ ، يقال : رجلٌ فَدْمٌ ،وامرأة فَدْمَةٌ ،وقوم فَدْمُونَ ".(١)

فالعِيُّ خلاف البيان ،وهو أن يأتي الشخص المصاب بكلام لا يُهتدى إليه .

جاء في اللسان : " الفَدْم من الناس : العَيِيُّ عن الحُجْة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم ،وهو أيضا الغليظ السمين الأحمق الجافي ".(٢)

فلو أنعمنا النظر قليلا فيما قاله ثابت عن الفدم ،وما ذُكر في اللسان لوجدنا أن المراد بثقل اللسان هنا ليس حقيقيا ،وإنما هو كناية عن العجز عن التعبير المناسب في وقته ،نتيجة لقلة الفهم والحمق والغباء .

إلى جانب كون كلمة (فَدْم) في اللغة تعني تغطية للفم سواء أكان تغطية لفم الإبريق أو الكوز بالخرقة لتصفية الشراب الذى فيه . أو ما تشده العجم على أفواهها عند السقي . ومن هذا أُخذ هذا التركيب ليدخل في عدم التعبير عن الحجة.

---

(١) كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨٤ .

(٢) انظر لسان العرب مادة (فدم) ٤٥٠/١٢ .

١١) - اللُّثْغَـةُ :

قال ثابت بن أبي ثابت : " الأَلْثَغُ ،وهو الذى لا يُتِمُّ رفعَ لِسانِه في الكلام ".(١)

ومعنى كلام ثابت هذا أن اللُّثغة خاصة بالحروف التي تحتاج إلى رفع (طرف) اللسان ومنها الراء واللام وعدم تمام الرفع يعني عدم وصوله إلى الموضع الذى ينبغي أن يصل إليه ،كما قد يعنى نقصا في مرونة طرف اللسان وقدرته على الحركة وكأن تعريف ثابت للثغة ينصب أساسا على اللُّثغة في الراء بنطقها لاما إذا لم يستطع طرف اللسان أن يرتعد عند نطق الراء لفقدان مرونة طرفه ،كما يشمل نطق اللام ياء حيث لا يستطيع طرف اللسان أن يمتد ليلتقي بسقف الحنك كما ينبغي في نطق اللام.

١٢) - اللَّجْلَجَةُ :

لقد اتفق الأصمعيّ وثابت على تعريف اللَّجْلَجة ،حيث ذكرا " أن اللَّجْلاجَ ،وهو الذى سَجِيَّةُ لِسانِه ثِقَلُ الكلام ونَقْصُه ".(٢) هكذا فسرا اللَّجْلَجة ذلك التفسير العامّ : ثقل الكلام ونقصه ،وقد ذُكِر أيضا في المعاجم(٣) . وهو تفسير يصدق على صور كثيرة من النطق

---

(١) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص١٨٣.
(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) لثابت ص١٨٤ . وكتاب (المخصص) لابن سيده ١/ ١٢٢.
(٣) ذكر في تاج العروس مادة (لجج).

المعيب . وقد فسرت اللَّجْلَجَة في تاج العروس بثقل اللسان ونقص الكلام ، وأن لا يخرج بعضه في إثر بعض ،كما فُسرت بالتردد في الكلام .(١)

وهذا التفسير أخص وأوضح ، أى أن اللَّجْلَجَة أن يُردد الناطق الكلمة فــي فِيه أكثر من مرة قبل أن يتمكن من إخراجها . ولعل مما يُؤكد صحة هذا الشبه بين ترديد الكلمة في الفم ،وبين ترديد اللقمة فيه للمضغ قولهم هو يلجلج اللقمة في فيه أى يرددها للمضغ .

١٣) - اللَّفَف :

من الملاحظ أن الأصمعيّ وثابتا قد اتفقا في تحديد معنى اللفف ، قال الأصمعيّ : "الأَلَفّ هو الثقيلُ اللِّسان ".(٢)

وقال ثابت : "الأَلَفّ : الثقيلُ اللسانِ عند الكلام ،يُقال : رَجلٌ أَلَفّ ،وامرأةٌ لَفّاء ،وهي اللَّفْلَفَةُ ".(٣)

فاللفف عيب من عيوب النطق ، يتمثل في ثقل اللسان عند الكلام. ولقد جاء في اللسان : " أن اللَّفَف في الأكل : إكثار وتخليط ،وفي الكلام ثِقل وعِيٌّ مع ضَعْف . ورجل أَلَفّ بيِّن اللفَف أى عَيِيٌّ بطيء"

---

(١) انظر تاج العروس مادة (لجج).

(٢) انظر مخطوطة (الغريب المصنف) لأبي عبيد / باب الألسنة والكلام . وانظر لسان العرب مادة (لفف)٩/ ٣١٩.

(٣) انظر (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨٥.

الكلام إذا تكلم ملأ لسانه فمه "(١). فالشخص المصاب بهذا النوع من العِيِّ لا يستطيع أن يُحرك لسانه بخفة وسهولة ،لذلك تجده يخلط في الكلام ويُبْطيء ،لأن ثِقل لسانه يعوقه عن الكلام بطلاقة.

١٤) - اللَّقْلَقَة :

قال الأصمعيّ : " اللَّقْلَقَة وهيَ ثِقَلُ اللِّسَانِ وَغِلَظُهُ في الفَمِ، يُقَالُ إنَّ فِيهِ لَقْلَقَةً شَدِيدَةً ".(٢)

وجاء في اللسان أن اللَّقْلَقَة هي : تَقْطِيعُ الصَّوت وهو الوَلْوَلَة. ورجل مُلَقْلَق : حادّ لا يَقِرّ في مكان.

واللَّقلاق واللَّقْلَقة : شدة الصوت في حركة واضطراب ".(٣)

نخلص مما سبق إلى أن اللقلقة هي : ثقل اللسان وغلظة في الفم الذى ينتج عنه اضطراب في حركة اللسان ، فلا يتخذ الأوضاع المناسبة للمخارج بسرعة ودقة ،مما يتسبب في تقطيع الصوت وعدم وضوحه .

------------ - ------

(١) انظر لسان العرب مادة (لفف)٩/ ٣١٩.

(٢) انظر كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي ص١٩٧.

(٣) انظر لسان العرب مادة (لقق)١٠/ ٣٣١.

١٥) - اللَّوْثُ :

قال ثابت بن أبي ثابت : " وفي اللسان اللَّوْثُ ،وهو ثِقَلُ فيه لا يَكادُ يُخْرِجُ الكلمةَ إلا بَعْدَ جَهْدٍ . يقال : رجلٌ أَلْوَثُ ،وامرأةٌ لَوْثاءُ ". (١)

فلو نظرنا إلى دلالة هذا التركيب في اللسان لوجدنا أنه يشتمل على عِدَّة معاني ،والذى يدخل في موضوعنا هو قول ابن الأعرابي :
" اللَّوْث : الطي ،واللَّوْث : اللَيُّ ،واللَّوْث : الشَّرُّ ،واللَّوْث : الجراحات ...
(فالطيّ هو أن يتكلم بكلام مطوى لم يُبينه للاستحياء) .
وقال ابن سيده : اللَّوْثُ البُطْءُ في الأَمْر.
واللُّوثَةَ ، بالضم : الاسترخاءُ والبطْءُ . والألوث : البَطِيء الكلام ، الكَلِيلُ اللسان ."(٢)

والذى يتفق مع كلام ثابت هو كلام ابن سيده وما بعده ، فاللَّوث هو البطء الشديد في النطق ثقلا وعجزا بحيث لا يكاد يخرج الكلمة إلا بعد جهد .

---

(١) انظر (خلق الإنسان) لثابت ص ١٨٥ .

(٢) انظر لسان العرب مادة (لوث)٢/١٨٥ .

وأخيرا نلاحظ أن أكثر آفات اللسان التي ذكرها الأصمعي وثابت تندرج تحت ظاهرة ثقل اللسان ،فالعيوب التي تدخل في هذا النطاق عندهما هي :

التَّمْتَمَةُ ، والقَد ،واللَّجْلَجَة ، واللَّفَف ، واللَّقْلَقَة ، واللَّوث .

فهذه الآفات التي تصيب اللسان تجعله ثقيلا بطيء الحركة ،مما ينتج عنه انعدام التناسب بين الكلام وحركة اللسان .

الفصل الثاني: كلام الجاحظ عن عيوب النطق.

الفصل الثانـــي

كلام الجاحظ عن عيوب النطـــق

سأتحدث في هذا الفصل عن العيوب النطقية التي ذكرهـــا الجاحظ ،وهذه العيوب ولا شك لها تأثيرها السيء على خروج الأصوات اللغوية بصورة سليمة.

ولقد تعرض الجاحظ لكثير من عيوب النطق المختلفة الأنواع ، وكان يقف عند بعضها بالتعريف ،ويكتفي بالنسبة للبعض الآخر باعتداده معيبا ،ويذكر ما جاء في الشعر أو غيره من عيبه.

ولعل الأوفق أن نصنف نحن العيوب التي ذكرها الجاحـــظ أنواعا ،بحيث نضم العيوب المتشابهة بعضها إلى بعض تحت عنوان يجمعها.

ويمكن تقسيم العيـوب التي ذكرها الجاحظ إلى عيوب نطق عضوية وهي التي يرجع سببها إلى خلل أو عيب واضح في أى من أعضاء النطق ، وعيوب وظيفية - وهي التي تبدو أعضاء النطق فيها سليمة ،ولكن تلازم الناطق فيها طرائق معيبة لنطق اللغة تجعل نطقه غير سوى ،وعيوب أدائية وفيها تكون أعضاء النطق سوية ،ولكن الناطق يتكلف أوضاعا أو هيئات في تلك الأعضاء أو في الصوت تجعل نطقه معيبا.

ويمكن تحديد الفرق بين العيوب الوظيفية والأدائية بأن العيـب الوظيفي ملازم لصاحبه وكأنه صفة قهرية يجهل سببها عادة وإن كان يمكن أن يكون لها سبب عصبي أو نفسي ، كما أن التخلص من هذه العيوب الوظيفية صعب ويحتاج إلى تدريبات شاقة. أما العيوب الأدائية فهي من صنـــع صاحبها ،فهو الذى يتكلف هيئات وأوضاعا لصوته وأعضائه ليتشبه بأهـــل الأداء الفصيح فلا تطاوعه أعضاؤه أو يبالغ ولا يحكم التشبه فيخرج أداؤه معيبا.

وقد ردد الجاحظ في مجال عيوب النطق هذا مصطلحين عامين سوى سائر العيوب الخاصة التي يدخل كل منها في قسم من الأقسام الثلاثة المذكورة آنفا - هما العِيّ والحَصَر ،ونرى أن نقف عند كل من هذين العيبين أولا قبل الكلام عن كل من الأقسام الثلاثة.

العِيّ :

قال الجاحظ : " وإنما وَقَعَ النَّهيُ على كل شيءٍ جاوزَ المقدار ، ووقع اسم العِيِّ على كل شيء قَصَّر عن المقدار ، فالعِيُّ مذموم ، والخطل مذموم "،(١) كما كان حديثه مشتملا على عدّة جوانب منها ، تعوّذ الناس قديما من شر العِيِّ ، ونفورهم منه ، وخصوصا إذا ما تكلف صاحبه مقامات الخطباء والبلغاء . قال النَّمر بن تولب :

أعِذْني ربِّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومن نَفْسٍ أعالجُها عِلاجا (٢)

ويتضح المعنى أكثر من خلال قوله : " وليس حَفِظك الله ، مضَرَّةُ سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسَقَطات الخطل يوم إطالة الخُطبة ، بأعظمَ مما يحدُث من العِيِّ من اختلال الحُجّة ، وعن الحَصَر مِنْ فوت دَرَك الحاجة ".(٣)

فقد جعل العِيّ ضد السلاطة ، والسلاطة هي طول اللسان وحِدَّته أي الإكثار من الكلام في اقتدار ، وفُسرت كذلك بالصخب .(٤) فيكون العِيّ نوعا من العجز عن الكلام قد يتمثل في عيب في اللسان يفسد به أداء الحروف أو الكلمات أداء صحيحا ، كما قد يتمثل في قصور الفكر أو الفشل في التعبير السليم أو الدقيق عما في النفس .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/٢٠٢ .

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٣ .

(٣) نفس المرجع ١/١٢ .

(٤) في اللسان ان السَّلْط والسليط : الطويل اللسان ، (والفعل سَلُطَ سَلاطَةً وسُلوطةً) . ورجل سليط أي فصيح حدّيد اللسان ، وامرأةٌ سليطة : حدّيدة اللسان / طويلة اللسان / صخابة . انظر لسان العرب (سلط) ٧/٣٢٠ .

كما أورد الجاحظ قول ثُمامة بن الأشرس في مدح جعفر ابن يحى البرمكي حيث قال : " ما رأيتُ أحداً كان لا يتحبَّس ، ولا يتوقَّف ولا يَتَلَجْلَج ، ولا يتنحنح ، ولا يَرتقب لفظاً قد استدعاه من بُعْد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تَعصَّى عليه طلبُه ، أشدَّ اقتداراً ، ولا أقلَّ تكلُّفا ، من جعفرِ بن يحيى ".(١)

فكلمة ثُمامة هذه كأنها تُفَصِّل أنواع العِيّ وصوره من التَّحبس والتوقف إلى التلجلج والتنحنح إلى عدم مواتاة اللفظ المناسب ، ثم إلى عسر تلخيص المعنى المراد .

ويجمل ذلك كله من معنى العي أنه عدم احسان القول والفدامه وعدم الاتجاه للحجة.(٢) فالعيّ قد لا يُحْسِن النطق ، وقد لا يُحْكِم التعبير عن حاجته ، وقد يأتي بكلام لا يُهتدى إليه ، إما لغياب الفكرة ، أو لغياب اللفظ أو العبارة المناسبة .

وقد عمم الجاحظ معنى العيّ من حيث هو عدم احسان العمل مستشهدا بوصفهم الجمل الذى لا يُحْسِن الضِّراب بأنه عيا ياء ، وبقول بشار الأعمى :

وعِيُّ الفَعَال كعِيِّ المقال وفي الصَّمت عِيٌّ كعِيِّ الكلِم(٣)

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٠٦ .

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/١١٠ .

(٣) انظر نفس المرجع ١/٤ .

والاحتكام إلى المعجم يؤيد ذلك التعميم لمعنى العِيّ :

فقد جاء في اللسان : "أعْيَا الماشي : كلَّ ، وأعيا السير البعير ونحوه أكلّه وطَلّحه ، وعيّ بالأمر وعَييَ وهو عَيّ وعَييّ وعَيّان : عجز عنه ولم يُطِق إحكامه . والرجل يتكلف عملاً فيَعْيَا به وعنه إذا لم يهتد لوجه عمله " أ. هـ

فالتركيب يدُل على العجز عن أداء الشيء أو عن إحكامه ومعرفة وجهه . ومنه المُعاياة : أن تأتي بكلام لا يُهتدى له. أعياء

ويقال عَيَيْت فلانا / أى جهلته " . ومن ذلك قالوا : " عَيّ في المنطق حَصِر " . وقالوا : " عيّ الرجُل عن حجته " . قال الجوهرى : " ورجلٌ عياياءُ إذا عَيّ بالأمْر والمَنْطِق " .(١)

نخلص من هذا إلى أن العِيّ في مجالنا هذا يعنى العجز عن الكلام بصورة ما . وإذا نظرنا إلى ما أسلفنا من كلام الجاحظ وما رواه عن ثُمامة ، وإلى ما عَنى بوصف البعير بأنه عياياء ، وإلى تفسير العيّ بالعجز ، وعدم الاهتداء للوجه ، والجهل . ترجح لدينا أن العيّ قد يعني العجز الحقيقي الكُلّي عن الكلام لعلة بدنية أو نفسية مثلا .

ثم قد يُطلق على العجز غير الحقيقي كالعجز المؤقت لحرج أو خجل أو ذهاب الفكرة أو العبارة ، وعلى العجز الجزئي كالأداء المعيب من لُثغة ورُتّة وحُبْسة الخ ... على سبيل المبالغة في وصفها .

---

(١) انظر لسان العرب مادة (عيا) ١١٢/١٥ .

ويؤيد هذا ما جاء في اللسان (حَصَر) : " الحَصَرُ ضَرْبٌ من العيّ "(١) . وبهذا فإن العِيّ يصلح عنوانا عاما لكل عيوب النطق والأداء اللغوى . قال حميد بن ثور الهلالي :

أَتانا ولَمْ يَعْدِلْهُ سحبانُ وائـلٍ
بيانـاً وعِلْماً بالذى هو قائـلُ
فما زال عنه اللَّقْمُ حتى كأنـه
من العِيِّ لما أنْ تكلَّمَ باقـلُ(٢)

ولقد أورد الجاحظ عِدَّة أمثلة ونماذج لأقوال أشخاص عُرِفوا بالعِيّ من ذلك قول أبي عبد الملك : كان عياشٌ - وثُمامةُ حيٌّ - يُعظِّمني تعظيما ليس في الدّنيا مثله .

وقالَ له عيَّاش بن القاسم : بأيِّ شيء تزعمون أن أبا علـيٍّ الأسواريّ أفضل من سلاّم أبي المنذر ؟ قال : لأنَّه لما مات سلاّمٌ أبوالمنذر ذهب أبوعليٍّ في جنازته ، فلما مات أبو عليٍّ لم يذهب سلام في جنازته"(٣).

ووجه العيّ هنا هو هذه المبالغة الفجَّة ، وطلبه مثلا للتعظيم ، وافتقاده هذا المثل في الدنيا وانفكاك ترتب على هذا التعظيم الذى لا مثل له على حياة ثُمامه . كما يتمثل الحمق أيضا في العيب على ميت سابق ، أنه

---

(١) انظر لسان العرب مادة (حصر) ٤ / ١٩٣ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/٦ ، واللقم هو : مصدرُ لَقَمَ بمعنى سدَّ فمه قال الجاحظ سحبان مثل في البيان ، وباقل مثل في العي .

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢/٢٣٤ .

لم يشترك في جنازة ميت لاحق .

وكتب إلى بعض الأمراء : " أبقاكَ اللهُ ، وأطال بقاءك ، ومدَّ في عمرك "(١) فهذا تكرار لمعنى واحد بعبارات ثلاث تكفي إحداها لأداء ذلك المعنى . ومرَّ ابن أبي علقمة ،فصاح به الصبيان فهرب منهم ،وتلقاه شيخ علية ضفيرتان ،فقال له : ﴿ يا ذا القَرْنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾(٢).

فليس في الأطفال وصياحهم به نسبة إلى كثرة يأجوج ومأجوج وافسادهم في الأرض .

وقال المهلَّبُ لرجل من بني ملكان ،أحد بني عَدِيّ : متى أنت (أى متى ولدت ؟ أوكم سنك ؟) قال : أيامَ عُتيبة بن الحارث بن شهاب (فربط تاريخ مولده بواحد من عامة الناس).وأقبل على رجل من الأزد فقال : متى أنت ؟ فقال : أكلتُ من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عامين (فعبر عن تاريخ مولده أسوأَ تعبير) . فقال له المهلب : أطعمك الله لحمك "(٣)

فهذه الروايات والنماذج التي أوردها الجاحظ تدل دلالة واضحة على أن الشخص العَيِيّ يأتي بكلام لا وجه له.

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٢٣٥.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) نفس المرجع والصفحة.

كما تعرض الجاحظ لصفات ذميمة منها العِيّ حيث قال : " ويُقال : فلان أحمق فإذا قالوا مائق ، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه ، وكذلك إذا قالوا أنْوَك . وكذلك إذا قالوا رقيع . ويقولون : فلانٌ سليم الصَّدر ، ثم يقولون عَييٌّ ، ثم يقولون أبله . وكذلك إذا قالوا معتوه ومسلوس وأشباه ذلك ". (١)

فبالرغم من أن العِيَّ يأتي متوسطا هذه المجموعة إلا أنه من أكثر العيوب كراهةً وبُغضاً عند الناس . قال أبو عبيدة : إن رُؤْبة صاح في بعض الحروب حينما أبصر رجلا منهم قد طعن فارسا طعنة ، فصاح : " لا عِيَّا ولا شللا " والعرب تقول : "عِيٌّ أبأس من شلل ". قال الجاحظ : كأن العِيّ فوق كل زمانة ". (٢)

فالشخص العَييّ مُلامٌ وخصوصا إذا ما تكلف مقامات البلغاء قال الجاحظ : " وليس ، حَفِظك الله ، مَضَرَّة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسَقَطات الخطل يوم إطالة الخُطبة ، بأعظم مما يحدث عن العِيّ من اختلال الحُجْة وعن الحَصَر من فوت دَرَك الحاجة ، والناس لا يُعَيِّرون الخُرْس ، ولا يلومون مَن استولى على بيانه العجز . وهم يذمون الحَصِرَ ، ويؤنِّبون العَيِيّ ، فإن تكلَّفا مع ذلك مقامات الخُطباء ، وتعاطَيا مناظرة البلغاء ، تضاعف عليهما الذمّ وترادَف عليهما التأنيب ." (٣)

ولهذا نجد الناس يتعوذون من شرهما .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٥٠ .

(٢) نفس المرجع ١/ ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٣) نفس المرجع ١/ ١٢ .

الحَصَرُ :

لم يذكر الجاحظ تعريفا واضحا للحصر وإنما كان حديثه عنه يشتمل على عِدَّة جوانب منها ، تعوذ الناس قديما من شر العِيّ والحَصَر وكان الجاحظ ممن تعوذ من شرهما وذلك في مقدمة كتابه البيان والتبيين.
ولقد أورد قول النَّمر بن تولب :

أَعِذْنِي رَبِّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومن نَفْسٍ أُعالِجُها عِلاجا

كما تحدث الجاحظ عن نفور الناس من الحَصِر إذا ما تكلف مقامات الخطباء . قال أبو عثمان : " وليس ، حَفِظك الله ، مَضَرَّةُ سلاطة اللسان عند المنازعة وسَقَطات الخطل يوم إطالة الخُطبة ، بأعظم مما يحدُث عن العِيّ من اختلال الحُجّة ، وعن الحَصَر مِنْ فوت دَرَك الحاجة". (١)

يؤخذ من كلام الجاحظ هذا أن الحَصَر هو أن يعجز الإنسان - بصورة ما - عن التعبير أو إحسان التعبير عن حاجته ، فتفوته إدراك حاجته فلا يَتَحصَّلها . وقد يكون سبب ذلك العجز هو الحرج أو الحياء أو خلل عضوي أو عصبي أو عجز فكري أو لغوي .

وفي لسان العرب لابن منظور تعريف يؤيد ما أراده الجاحظ قال : " الحَصَرُ : ضَرْبٌ من العِيّ . حَصِرَ الرجلُ حَصَرًا مثل تَعِبَ تَعَبًا ، فهو حَصِرٌ : عَيَّ في منطقه وقيل : حَصِرَ لم يقدر على الكلام.

وقيل : الحَصَر : تَشَب الدِّرَّة في العروق من خبث النفس وكراهة الدِّرَّة . وحَصَره وأحصره : كلاهما حبسة عن السفر . وأحصره المرض منعه من السفر أو من حاجة يريدها ".

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٢.

ويؤخذ من هذا أن تركيب (ح ص ر) يستعمل في الدلالة على الحبس أو الاحتباس عن أداء الشيء لمانع عارض ،أى غير أصيل أو دائم ، كما تحصر الناقة عن الحلب ، أى تحتبس عنه مع وجود اللبن بدليل قوله " نَشَب الدِّرَّة في العروق " أى أن الدِّرَّة موجودة لكنها لا تنزل. وكذلك الأمر في منع المرض الإنسان عن السفر أو من غيره. فالمرض عارض حبس القدرة الموجودة أصلا . ثم جاء في اللسان ما يوضح ذلك في موضوعنا قال " وفي حديث زواج فاطمة رضوان الله عليها ،فلما رأت عليًّا جالساً إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم حَصِرَتْ وبكت أى استحيت وانقطعت (يعني عن الكلام الذى كانت تريد أن تقوله) كأن الأمر قد ضاق بها كما يضيق الحبس على المحبوس "(١) أ.هـ

وواضح أن السيدة فاطمة رضي الله عنها كان عندها القدرة الكاملة على الكلام وعندها الفكر الذى تريد أن تصوغه كلاما ولكنها لما رأت عليًّا مع أبيها صلى الله عليه وسلم حَصِرَتْ ،أى احتبست عن الكلام حياء لا عجزا .

فالحصر إذا الاحتباس عن الكلام كُلِّيَّة في موقف معين لعارض كالحياء.

ثم يؤخذ من قوله في اللسان" حَصِرَ لم يقدر على الكلام.
والحَصَرُ ضيق الصدر . قال تعالى ﴿ أوجاءوكم حَصِرَتْ صدورُهُم أن يُقَاتِلُوكم أو يُقَاتِلوا قومهم ﴾ معناه ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم".

يؤخذ من هذا ومن الحديث عن حَصَرِ السيدة فاطمة أن الحَصَر بمعنى الاحتباس عن الكلام لعارض قد يكون العارض فيه ضيق الصدر أو الحرج لأن الموقف مهيب مثلا ،أو لفقدان الفكر الذى يمكن أن يعبر عنه ،أو القدرة على تكوين الكلام المعبر عن الفكرة ، كما قد يكون العارض فيه الخوف من الكلام في الموقف أو من عاقبته.

---

(١) انظر اللسان مادة (حصر) جـ ٤ / ١٩٣ .

وبعد الكلام على المصطلحين العامين اللذين ذكرهما الجاحظ : العِيّ والحَصَر ، نتكلم الآن عن كل من أقسام عيوب النطق الثلاثة التي أسلفنا ذكرها .

أولا : عيوب النطق العضوية :

أسلفنا أن هذه العيوب هي التي سببها خلل أو عيب واضح في جهاز النطق أو أحد أعضائه . وها نحن أولاء نتناولها :

١ - الخرس :

لقد ذكر الجاحظ الخرس في أثناء حديثه عن العيوب النطقية وعدَّه من ضمن عيوب النطق ولكنه لم يضع له تعريفا واضحا ولم يُحَدِّد معناه ، وإنما أشار إليه في أثناء حديثه عن العِيّ والحَصَر حيث قال : " وليس ، حَفِظك الله ، مَضَرَّة سلاطة اللِّسان عند المنازعة ، وسَقَطات الخطل يوم إطالة الخُطبة ، بأعظم مما يَحدُث عن العِيّ من اختلال الحُجة ، وعن الحَصَر مِنْ فوت دَرَك الحاجة ، والناس لا يُعَيِّرون الخُرس ، ولا يلومون مَن استولى على بيانه العجز .

وهم يذمون الحَصِرَ ويُؤَنِّبون العَيّ ... " (١)

كما أورد قول جرير : " الخَرَسُ خير من الخِلاَبَة " (٢)

وقال أبو عُمر الضَّرير : " البَكَمُ خير من البَذَاءِ " . (٣)

فالأقوال الثلاثة التي ذكرها الجاحظ آنفا لم يُشر فيها إلى معنى الخَرَس أو تعريفه . وبالرجوع إلى لسان العرب وجدنا أن " الخَرَسُ : ذهاب الكلام عِيًّا أو خِلْقَةً ، خَرِسَ خَرَساً وهو أَخْرَسُ " (٤) . إذا فمعنى الخَرَس هنا هو عدم القدرة على الكلام نهائيا . أى أنه لا يمنع أول الكلام فقط كما في الرُّتَّة ، وإنما لا يتكلم نهائيا . وقد سلفت لنا موازنة بين

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٢ .

(٢) نفس المرجع ٢/٦٩ .
والخِلاَبَة : هي الخداع انظر لسان العرب مادة (خَلَب) ١/٣٦٧ .

(٣) انظر البيان والتبيين ٢/٦٩ .
البَذَاءِ : الإِزْدِراء والاحتقار . وقيل : المُفاحشة . انظر لسان العرب مادة (بذأ) ١/٣٠ .

(٤) انظر لسان العرب مادة (خَرِس) . ٦/٦٣ .

الخرس والبكم ذكرنافيها أن ثابتا ،والأزهرىقطعا بأن الخرس(١) ذهاب الكلام نهائيا خِلقة ، وأن البكم هو عدم احسان وجه الكلام والجواب وإن كانت القدرة على النطق موجودة وكلام الجاحظ هنا يؤيد ذلك لأنه يقرر أن الناس يلومون العيّ والحصر ، ولا يلومون الأخرس . وإنما ذلك لأنه خُلق ذاهب الكلام هكذا فلا ذنب له . أما العيّ والحصر فلومان لعدم إحسانهما الكلام مع قدرتهما عليه .

٢- اللُّثْغَةَ :

لقد تكلم الجاحظ عن اللُّثْغَةِ دون أن يضع لها تعريفا أو يُحَدِّد معناها ،وإنما كان حديثه عنها من جوانب أخرى .

ومن خلال تقصينا لهذه الجوانب وجدنا أن ما قاله عن اللُّثْغَة وكيفيتها يطابق في معناه ما جاء في الكامل للمبرد من تعريف ،فقد جاء في الكامل أن اللُّثْغَة هي : " أن يعدل بحرف إلى حرف ".(٢)

أما ما ذكره الجاحظ عن اللُّثغة ويُطابق هذا التعريف فهو قوله : "فاللُّثغة التي تعرض للسِّين تكون ثاء ، كقولهم لأبي يَكسوم : أبي يَكثوم ،وكما يقولون بُثْرَةٌ ،إذا أرادوا بُسْرة . وبثم الله ،إذا أرادوا بسم الله.

والثانية : اللُّثْغة التي تعرض للقاف ،فإن صاحبها يجعل القاف طاءً ،فإذا أراد أن يقول : قلت له ،قال : طُلْت له ،وإذا أراد أن يقول : قال لي ،قال : طال لي .

ثالثا : اللُّثْغَة التي تقع في اللام فإن من أهلها مَن يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله : اعتللت : اعتييْت ،وبدل جَمَل : جَمَي . وآخرون يجعلون اللامَ كافاً ، كالذى عرض لعُمَر أخي هلال ،فإنه إذا أراد أن يقول : ما العِلَّة في هذا ، قال : مَكِعكّة في هذا .

---

(١) انظر ص ٢١١ - ٢١٢ من هذه الرسالة .
(٢) انظر الكامل للمبرد ٢/ ٥٧٨ .

رابعا : اللُّثْغَة التي تقع في الراء ، فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام ، لأن الذى يعرض لها أربعةُ أحرف : فمنهم مَن إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عَمْي ، فيجعل الراء ياءً ، ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عَمْغ ، فيجعل الراء غينا . ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمذ فيجعل الراء ذالا ، وإذا أنشد قول الشاعر :

واستبدَّت مرة واحدة إنما العاجزُ مَن لا يستبدّ

قال :

واستبدَّت مَذَّة واحدة إنما العاجزُ من لا يستبذّ

فمَن هؤلاء عليّ بن الجُنيد بن فُرَيدى .

ومنهم من يجعل الراء ظاءً معجمة ... ".(١)

ويلحظ أنه لم يذكر من يجعل الراء لاما ، مع كثرة ذلك .

وجاء في لسان العرب لابن منظور أن اللُّثْغَةَ هي : "أَن تَعْدِلَ الحرْفَ إلى حرف غيره .

والأَلْثَغُ : الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل : هو الذى يجعل الراء غيناً أو لاماً ، وقيل : هو الذى يَتَحَوَّلُ لسانه عن السين إلى الثاء ، وقيل : هو الذى لا يُتِمُّ رَفْعُ لسانه في الكلام ،

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٤ ، ٣٥ .

وقيل : هو الذى قَصُرَ لسانه عن موضع الحرف ولَحِقَ مَوْضِعَ أقْرَب الحروف من الحرف الذى يَعْثُر لسانه عنه ".(١)

فبالنظر لما سبق نجد أن معظم الأقوال والتعريفات التي وردت في الكامل واللسان تُطابق - في معظمها - ما قاله الجاحظ عن اللُّثْغَة ، فبهذا يكون المعنى الذى أراده الجاحظ عن اللُّثْغَة هو المعنى المعروف عموما ولذلك نجد أن التعريفات كلها قد وافقت المعنى الذى يقصده الجاحظ ، ولكن ذلك التعريف الذى ذكره المبرد ووجدنا أنه يفسر ما قاله الجاحظ في هذا الصَّدد ، يصدق أيضا على العدول بحرف إلى حرف بسبب العُجمة ، أى عُجمة المتكلم . وهذا النوع الذى بسبب العُجمة يدخل في تعريف اللُّكنة . وعلى ذلك فإنه للفصل بين الظاهرتين ينبغي أن نضيف قيدا إلى تعريف المبرد فنقول : إن اللُّثْغَة هي أن يعدل بحرف إلى حرف بغير عجمة . وهناك أمثلة كثيرة عن أصحاب اللَّثَغ وردت في كتاب البيان والتبيين للجاحظ منها : لُثغة واصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العدويّ الشاعر ، والتي ليس إلى تصويرها سبيل ، وأيضا اللُّثْغَة التي تعرض لمحمد بن الحجاج ، كاتب داود بن محمد ، كاتب أم جعفر ، فإن تلك أيضا ليس إلى تصويرها سبيل ، وإنما يصورها اللسان ، وتتأدى إلى السمع .

---

(١) انظر لسان العرب مادة (لثغ) ٨/ ٤٤٨ .

كما ذكر الجاحظ أن هناك من تجتمع فيه لُثْغَتان في حرفين ، مثل لثغة شَوْشَي ، فإنه كان يجعل اللامَ ياءً والراء ياء . قال مرَّةً : مَوياي وبِيَّ أيَّيّ . يريد مولاى وليّ الرّى .

وهناك أيضا (محمد بن شبيب) الذى يجعل الراء غينا .

ولقد ذكر الجاحظ أن اللُّثْغَة التي في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهُنَّ وأوضعهُنَّ لذى المروءة ، ثم التي على الظاء ، ثم التي على الذال . فأمّا التي على الغين فهي أيسرهُنَّ ، وأقلّها قبحا وأوجدها في ذوى الشرف وكبار الناس وبُلغائهم وعلمائهم .(١)

كما نوه الجاحظ إلى أن الناس كانوا يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثةَ السن ، ومقدودةً مجدولة فإذا أسنَّتْ واكتهلَتْ تغيَّرَ ذلك الاستملاح .(٢)

وخلاصة الأمر أن اللُّثْغَة هي العدول بحرف إلى حرف آخر بغير عُجمة .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٦، ٣٧ .

(٢) نفس المرجع ١/ ١٤٦ .

٣) - العُقْلَة :

قال الجاحظ في تحديد معنى العقلة : " ويقال في لسانه عُقْلَةٌ ، إذا تَعَقَّل عليه الكلام ". (١)

وهذا يعني أنه لا يستطيع الكلام والإبانة عن نفسه. فكأن لسانه قد ثَقُل ورُبِطَ عن الكلام ، أخذا من قولهم : عَقَلْتُ البعير ، أي شَدَدْتُ وظيفه مع ذراعه في وسط الذراع بعد ثنيه عليه.

وفي الكامل للمبرد ما يؤيد هذا القول فقد قال : " العُقْلَة التواء اللسان عند إرادة الكلام ". (٢)

فهذا الالتواء يربط اللسان ويعوقه عن الإفصاح والإبانة.

وفي لسان العرب ورد قوله : " اعْتُقِل لِسانهُ إذا حُبِسَ ومُنِعَ الكلامَ . واعْتَقَلَ لِسانُه : امْتَسَكَ . قال الأصمعي : مَرِضَ فلان فاعْتُقِل لسانُه ، إذا لم يَقْدِرْ على الكلام . قال ذو الرمة :

ومُعْتَقَل اللِّسانِ بِغَيْرِ خَبْلٍ يَميد كأَنَّه رَجُلٌ أَميم

والخَبْلُ : الشَّلَل (٣) . ويؤخذ من هذا أن العُقْلة قد تكون بسبب الشَّلل أو ما يشبهه ، كالذى يقع عند الاحتضار . كما يؤخذ من اعتقال اللسان عند المرضى كما في قول الأصمعي ، ولهذا وضمناها في العيوب العضوية .

نخلص من هذا كله بأن العقلة : احتباسٌ عن الكلام بسبب توقف اللسان . كالذى يحدث عند المرض والاحتضار أحيانا .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٣٩/١.
(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٥٧٨/٢.
(٣) انظر لسان العرب مادة (خبل) ١٩٧/١١.

٤- الحكلـــة :

قال الجاحظ في تحديد معنى الحُكْلَة : " إذا قالوا في لِسانِه حُكْلَة فإنما يذهبون إلى نُقصَان آلة المنطق ،وعَجْز أداة اللفظ ،حتَّى لا تُعرَفَ معانيه إلا بالاستدلال ".(١)

وقال أيضا : " يُقال في لِسانِه حُكْلَة . إذا كان شديدَ الحُبْسة مع لَثَغ ".(٢) قال محمد بن ذؤيب في مديح عبدالملك بن صالح :

وَيَفْهَمُ قولَ الحُكْلِ لو أنَّ ذَرَّةً تُساوِدُ أُخرى لم يَفُتْه سِوَادُها(٣)

ونجد في لسان العرب عِدَّة أقوال للحُكْلَة تقرب مما قاله الجاحظ، منها ما قاله ابن سيدة : " الحُكْلُ من الحيوان ما لا يُسْمع له صوت كالذَّرّ والنَّمْل ".

وقال ثعلب : " كَلَامُ الحُكْل ،كَلَامٌ لا يُفْهَم . وقيل : " الحُكْلَةُ كالعُجْمَة ،لا يُبين صَاحِبُها الكَلَام . والحُكْلَة والحَكيلة : اللُّثْغَة ".

وقال ابن الأعرابي : " في لِسانِه حُكْلَة أي عُجْمة لا يُبيـــن الكلام ".(٤)

إذا فالحكلة كلام لا يبين لخفائه وخفاء أصواته ومقاطعه ، إما لضياع بعض الأصوات الأبجدية لعيب ونقص في آلة النطق ،وإمـــا لانخفاضه ودخول بعضه في بعض فلا تتبين معالمه .

فالمراد بالحُكْلَة عموماً هو عجز اللسان عن إبانة الكلام ووضوحه .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ١/ ٣٢٥ . وانظر الحيوان للجاحظ ٤/ ٢١ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٤٠ . السِوَاد : السرار .

(٤) انظر لسان العرب مادة (حكل)١١/ ١٦٢ .

٥ - دِقّةُ الصَّوت : (الصَّئِيُّ)

دقة الصوت من العيوب النطقية التي لم يذكر لها الجاحظ تعريفا ، لوضوح معناها الذى يفهم - كما يفهم سببها - من قول " وأَعْيَبُ عندهم مِن دِقّةِ الصَّوتِ وضِيق مَخْرَجِه ،وضُعف قُوَّته أَنْ يَعْتَرِىَ الخَطيبَ البُهْرُ" الخ .(١)

فالدِّقة هنا ضد الغلظ أى كون الصوت رفيعا حادا كأصوات الأطفال والنساء . وسبب هذا هو " ضيق المخرج وضعف القوة " كما ذكر - إذافهمنا ضيق المخرج على أن يشمل ضيق الحنجرة الذى يترتب عليه قِصر الأوتار الصوتية ، ويشمل ضيق تجاويف الجهاز الصوتي : الحلق والفم وغيرهما . ومن هنا عددنا هذا عيبا عضويا .

والصوت الدقيق يُشبه أصوات الفراريج وهو الصَّئِيُّ : جاء في اللسان أنّ الصَّئِيَّ صَوْتُ الفَرْخ . صَأَى الطَّائِرُ والفَرْخُ والفأرُ والخِنزيرُ والسِّنّوْرُ .(٢) .

وقد جاء تشبيه الصوت الدقيق بصوت الفروج في شعر ذكره الجاحظ في كلامه عن عيب دقة الصوت هذا .

قال الجاحظ : " وكانوا يَمْدَحُون الجَهيرَ الصَّوتِ ،ويَذُمُّون الضَّئِيلَ الصَّوت ، ولذلك تَشادَقُوا في الكَلَامِ ،ومَدَحوا سَعة الفم ،وذَمُّوا صِغَر الفَم ".(٣)

وقال : وأَعْيَبُ عندهم مِن دِقّةِ الصَّوت وضِيق مَخْرَجِه ، وضُعف قُوَّته أَنْ يَعْتَرِىَ الخَطِيْبَ البُهْرُ والارتعاش والرِّعدة ،والعَرَق ،(٤) . وأورد قول سلمة بن عَيَّاش :

كَأَنَّ بنى رَأْلَان إذْ جاء جَمْعُهم فراريجُ يُلْقَى بَيْنَهُنَّ سَوِيقُ

وعقب عليه بقوله " فقال ذلك لدِقّة أصواتهم ،وعَجَلة كَلَامهم ".(٥)

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٣.
(٢) لسان العرب (صأى) ٤٤٩/١٤.
(٣) البيان والتبيين ١/ ١٢٠.
(٤) نفس المرجع ١/ ١٣٣.
(٥) نفس المرجع ١/ ٣٩.

٦ - العُقْدَة :

العُقْدَة من العيوب النطقية التي لم يضع لها الجاحظ تعريفا محددا وإنما تحدث عنها حديثا عاما وشاملا ، وقد تعرض فيها لعُقْدة موسى عليه السلام الذى بعثه الله سبحانه وتعالى إلى فرعون ليُبَلِّغ رسالته ، فطلب موسى عليه السلام من رَبّه أن يحل له عُقْدَة لسانه حيث قال عز وجل : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (١) . فهناك آيات كثيرة تتحدث عن لُثغة موسى ورَدّ فرعون عليه ، منها قوله تعالى :

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ (٢) ، أما رَدُّ فرعون الذى يجحد فيه ويعاند فهو ما خبرنا به الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (٣) .

فبالنظر لما سبق نجد أن الآيات الكريمة والتي أوردها الجاحظ في كتابه تشير إلى أن العُقْدَة في اللسان تجعل الشخص المصاب بها لا يَكَادُ يُبِيْن عما يريده إلى جانب كونها تُقيد اللسان ولا تجعله ينطلق بالحديث . والآيات السابقة أكبر شاهد على ذلك.

ولقد جاء في اللسان قوله : " وفي لِسَانِه عُقْدَةٌ وعَقَدٌ أَيِ الْتِواء. وَرَجُلٌ أَعْقَدُ وعَقِدٌ : في لِسَانِه عُقْدَة أو رَتَجٌ ، وعَقِدَ لسانُه يَعْقَدُ عَقَداً ".

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٧/١ .

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

فالالتواء في اللسان يسبب ثقلاً يعوق اللسان عن الحركة السريعة مما يؤدّى بالشخص المصاب بها إلى الإبهام وعدم الوضوح والإبانة في أثناء الحديث ، لذلك نجد أن النبي موسى عليه السلام قد دعا رَبّه أن يُرسل معه أخاه هارون ليساعده في دعوته وذلك في الآيات التي أخبرنا بها الله عز وجل حيث قال :
* قال رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِى ، ويَسر لِي أَمْرِى ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرا مِنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِى * إلى قوله *قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى *. (١)

فاستجاب الله تعالى لدعوته وحقق له جميع ما طلب وأطلق لِسَانَه ليقوم بدعوته على أكمل وجه ، رغم ما أعطاه من الحُجّة البالغة والعلامات الظاهرة ،والبرهانات الواضحة ،إلى أن حَلّ تلك العُقْدة وأطلق تلك الحُبْسة ،وأسقط تلك المحنة وذلك من أجل الحاجة إلى حُسن البيان وإعطاء الحروف حقها من الفصاحة. (٢)

إذاً نخلص من هذا كله إلى أن العُقْدة صفة مشتركة مع الحُبْسة فكلاهما يؤدى إلى احتباس الكلام وتوقفه وتعذر خروجه عند إرادته مما يُؤدى إلى الإبهام وعدم الإبانة.

---

(١) سورة طه من آية ٢٤ إلى آية ٣٦ .
وانظر البيان والتبيين ١/ ٨ .
(٢) نفس المرجع والصفحة.

ثانيا : عيوب النطق الوظيفية :

وقد أسلفنا أن هذه العيوب تكون أعضاء النطق فيها سليمة حسب ما يبدو لنا ،لكن صاحبها - بالرغم من ذلك - لا ينطلق في استعمال اللغة بصورة سوية . ومن المحتمل أن يكون لتلك العيوب أسباب عصبية أو نفسية، أو يكون أصلها مجرد عادات نطق سيئة تولدت عند صاحبها ثم لازمته بحيث أصبح التخلص منها صعبا . وسنتناول هنا ما ذكره الجاحظ مما يدخل في هذا النوع .

١ - الحُبْسَةُ :

قال الجاحظ في تحديد معنى الحُبْسَة "ويُقالُ في لِسانِه حُبْسَة ، إذا كان الكَلَامُ يَثْقُلُ عليه ،ولم يَبْلُغْ حدَّ الفَأْفَاء والتَّمْتَام ".(١)

وكلام الجاحظ هنا صريح في أن من معنى الحُبْسة ثِقَلُ الكلام . وهذا يعني بطء صاحب الحُبْسة في ابتداء نطق الكلام ،وفي متابعة الكلام أيضا ، بحيث قد يتوقف قبل النطق ، أو أثناءه ، ويكون بطيئا في متابعة الكلام أيضا . كما يؤخذ من قول الجاحظ عن صاحب الحُبْسة أنه لايبلغ حدَّ الفأفاء والتمتام ،أن صاحب الحُبْسة قد يردد بعض بدايات الكلمات أو بعضها ولكنه لا يلازم ذلك كَمّاً ونوعاً كالتَّمْتَام والفَأْفَاء .

وقد جاء بعض تعريف الحُبْسة هذا في كلام المبرد حيث قال : " الحُبْسة تَعَذُّر الكَلَامِ عند إرادته "(٢) فهذا التعذر يتمثل في التوقف قبل النطق أو أثناءه على ما ذكرنا من قبل . وكذلك جاء في لسان العرب أن الحُبْسة والاحْتِبَاسَ في الكَلَامِ يعني التوقف قال " وتَحَبَّسَ في الكَلَامِ :تَوَقَّفَ ".(٣)

---

(١) البيان والتبيين ٣٩/١ ،وانظر الحيوان للجاحظ ٢١/٤ .
(٢) الكامل للمبرد ٥٧٨/٢ .
(٣) لسان العرب (حبس) ٤٦/٦ .

٢ - الرُّتَّـــةَ :

أشار الجاحظ إليهـــا في قوله : " وليس اللَّجْلَاج والتَّمْتَام والأَلْثَغ والفَأْفَاء وذو الحُبْسَة والحُكْلَة والرُّتَّةِ وذو اللَّفَفِ والعَجَلة ،في سبيـــل الحَصِر في خُطْبتِهِ ،والعَيِيِّ في مناضلة خصومه ،كما أن سبيلَ المُفْحَـــم عند الشعراء ،والبكِيِء عند الخُطباءِ ،خلافُ سبيل المُسْهَب الثَّرثار ، والخَطِل المِكْثار ". (١)

ويقصد الجاحظ بهذه العبارة أن جميع هذه العيوب النطقية أخف وأهون من الإنسان الحَصِر العيّ الذى يعجز عن التعبير عما في نفسه أو عن حُجْته ،ورغم ذلك يقف مقام الخطباء .

فالجاحظ هنا قد ذكر الرُّتَّة من ضمن هذه العيوب دون تحديد معناها ، ولقد جاء في الكامل للمبرد أن الرُّتَّةَ هي : " تَعَذُّرُ الكَـلَامِ إذا أرادَهُ الرجُل . وقال : هي كالرَّتَجِ (٢) تمنع أول الكلام ، فـإذا جاء منه شيء اتَّصَل ". (٣)

أما في لسان العرب فقد وردت فيه عِدَّة أقوال وتعريفـات، إلا أنني اعتمدت على التعريفات التي تشابهت في معناها عند أكثر الأئمة ، من ذلك قول أبي عمرو : الرُّتَّةُ رَدَّةٌ قبيحة في اللِّسانِ من العيب ،وقيل: هي العُجْمة في الكَلَامِ ،والحُكْلَة فيه.

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ١٢.

(٢) للرَّتَجِ صورتان : الصورة الشائعة أن يكون الإنسان في موقـف يتطلـب منه الكلام فيرتج عليه ،فلا يجد ما يقوله وهذا ليس عيبا في اللسان وإنما هو من غياب الفكر.

الصورة الثانية : وهي ما سميت بالرُّتَّةِ وهي أن يجد عوائق في نطق الكلام ،فقد يعتقل لسانه عن الكلام ثم ينطلق به بعد ذلك .

والمبرد يقصد في تعريفه للرُّتَّة الصورة الثانية للرَّتَـج وذلك في قوله : " الرُّتَّة : كالرَّتَـج تمنع أول الـكلام ،فإذا جاء منه شيء اتَّصل".

(٣) انظر الكامل للمبرد ٢/ ٥٧٧ - ٥٧٨.

والرُّتَّة : كالرَّتَج (١) ،تمنع منه أوَّل الكلام ، فإذا جاء منه اتَّصل به . قال : الرُّتَّة عزيزة ،وهي تكثُر في الأشراف .

ابن الأعرابي : رَتَرَتَ الرجل إذا تَعْتَع في التاء وغيرها".(٢)

وإذا رجعنا إلى ما سبق نجد أن ثابت بن أبي ثابت قد عرَّف الرُّتَّة بقوله : "الأَرَتُّ : الذي لا تَكادُ كَلِمَتُهُ تخرج من فِيهِ ، وإنما يُرَدِّد كلامه إلى حَنَكه ،بَيِّنَ الرَّتتِ والرُّتَّة ".(٣)

نستخلص من هذه التعريفات أن الرُّتَّة هي : تَحَبُّسٌ وتَعَذُّرٌ عند بدءِ الكلام ،ويتمثل ذلك في تردد اللسان بحرف أو تردده وتعقله في كلمة أوجملة ، ثم ينطلق بعد ذلك الكلام ويتصل . فالمنع والاستغلاق لا يكون إلا في بداية الكلام ،بعدها يتصل ويستمر .

ومن هنا نجد أن أكثر التعريفات والمعاني الموجودة في لسان العرب عن الرُّتَّة تؤيد ما قاله المبرد . وبما أن أبا العباس المبرد قد توفي في سنة (٢٨٦) ،والجاحظ توفي في سنة (٢٥٥) ،إذا فهما تقريبا متعاصران ،وعدم تحديد الجاحظ لمعنى الرُّتَّة لم يكن عن جهل بها أو بمعناها ،وإنما كان ذلك من باب التجاوز عن شيء معروف وواضح في ذلك الوقت .

---

(١) لقد وردت في اللسان (كالريح) ،وهذا تصحيف . انظر مادة (رتت)٢/ ٣٤ .

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (رتت)٢/ ٣٤ .

(٣) انظر ما سبق ص ٢١٥ .

٣ - التَّعْتَعَةُ :

لقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين قول الأصمعيّ عن التَّعْتَعَةِ : " إذا تَتَعْتَعَ اللِّسانُ في التَّاءِ فهو تمتام ، وإذا تَتَعْتَع في الفاءِ فهو فَأْفَاء ". (١)

كما أورد بيتا من الشعر تنافرت ألفاظه قال فيه الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قَفْرٍ   وليس قُرْبَ قبرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قال الجاحظ : " ولما رَأَى مَنْ لا عِلم له أن أحدا لا يستطيع أن يُنشدَ هذا البيت ثلاثَ مَرَّاتٍ في نَسَقٍ واحدٍ فلا يَتَتَعْتَعُ ولا يَتَلَجْلَج، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن ". (٢)

فالذى يَتَتَعْتَع ويتردد لِسَانُه في التَّاءِ يقال له تمتام ، والذى يَتَتَعْتَع ويترددُ لِسَانُه في الفاء يقال له فَأْفَاء .

ومِن الكَبَائِرِ مِقْوَلٌ مُتَتَعْتِعٌ   جَمٌّ التَّنَحْنح مُتْعَبٌ مَبْهُورُ (٣)

قال الجاحظ : إن بشر بن المُعْتَمِر قال هذا البيت عندما شهد رَيْسان ،أبا جُبَير بن رَيْسانَ يخطُب وقد شهدَ الجاحظ هذه الخطبة أيضا وقال : " لم أرَ جبانا قطّ أجرأَ منه ،ولا جريئا قطُّ أجبَن منه ". (٤)

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٧ مت : درويش .

(٢) نفس المرجع ١/ ٦٥ .

(٣) نفس المرجع ١/ ٤١ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

والمراد بهذا القول هو : أنه رغم عِيِّه الذى يفرض عليه أن يجبن عن التعرض لموقف الخطابة نراه يقدم ويتقدم ليخطب ، وفي هذا جرأة مذمومة ، ثم إنه عندما يتخذ هذا الموقف يخذله عِيُّهُ فيبدو جبنه ويبهر .

ولقد جاء في اللسان أن التَعْتَعَةَ هي : الحركة العَنِيفة ، وقد تَعْتَعَه إذا عَتَلَه وأَقْلَقَه .

وتَعْتَعةُ الدّابةِ : ارْتِطامها في الرمل والخَبار والوَحل ونحو ذلك. وقد تَعْتَعَ البعيرُ وغيره إذا ساخَ في الخَبار أى في وُعُوثِه الرِّمال ، قال الشاعر :

يُتَعْتِعُ في الخَبارِ إذا عَلاه ،

ويَعْثُرُ في الطريقِ المستقيمِ

والتَعْتَعُ : الفَأْفاء . والتَعْتَعةُ في الكَلامِ : أن يَعْيا بكلامه ويتَرَدَّد من حَصَرٍ أو عِيٍّ ، وقد تَعْتَعَ في كلامه وتَعْتَعَه العِيُّ . ومنه الحديث : "الذى يقرأُ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه أى يتردَّدُ في قراءته ويَتَبَلَّدُ فيها لسانُه ".(١)

ونخلص من هذا كله إلى أن المعنى الذى جاء في اللسان عن التَعْتَعَة إنما هو تأييد وتأكيد لما قاله الجاحظ ، فالمراد بالتعتعة عندهما هو عسر النطق والتردد في النطق عِيًّا .

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (تعتع) ٨/ ٣٥ .

وإن ما ذكره الجاحظ ،وما جاء في اللسان من قوله تَعْتَعَهُ إذا عتله وأقلقه ومن أن تَعْتَعَةَ الدابة هي ارْتِطامها في الرَّمل والخَبار يعني أن التَعْتَعَةَ في النطق هي الثقل في نطق الكلام والعجز عن أدائه في طلاقة. ويتمثل ذلك أساسا في التردد في نطق الكلام أو الحروف لسبب حسي أو غيره ،

٤ - اللَّجْلَجَةُ :

أشار الجاحظ إليه في أثناء تعديده لعيوب النطق الناتجة عن أسباب عضويه ،[١] كما لم يُعرِّفه المبرد ، ولكن من خلال تقصينا لما قاله الجاحظ وجدنا أن المقصود باللَّجْلَجَة عنده هو اضطراب في نطق الكلام بحيث تتردد بعض ألفاظه فلا يسترسل ،أو تتداخل ويختل نظام الكلام فيصير غير بَيِّن.

ولا يكون هذا التلجلج أو التردد في الكلام ناتجا عن عِيٍّ ومرض فقط ،إنما يكون أحيانا بسبب تنافر الألفاظ فيما بينها إذا كانت مجتمعة مع بعضها البعض قال الشاعر :

وَقبرُ حَرْبٍ بمكانٍ قَفْرٍ ... وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ (٢)

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٢.

(٢) نفس المرجع ١/ ٦٥.

وجاء في اللسان أن اللَّجْلَجَةَ هي : " ثِقَلُ اللِّسانِ ،ونَقْصُ الكلامِ، وأنْ لا يخرج بعضه في أثر بعض .(١)

" واللَّجْلَجَةُ : كلامُ الرجلِ بلسان غيرِ بَيِّن ، وهو يُلَجْلِجُ لسانَهُ وقد تَلَجْلَجَ لسانُه ... وكلام مُلَجْلَجٌ : مختلط ".(٢)

فعند النظر لما سبق نجد أن اللّجلجة في معناها العام هي : ثِقَلُ اللسان واضطراب في نطق الكلام بحيث تتردد بعض ألفاظه مع عدم الاسترسال وهذا واضح من تعريف اللسان وقول الجاحظ .

ولقد أورد الجاحظ أبياتا عِدّة قيلت في اللَّجْلَجَةِ منها قول الشاعر :

ليس خَطيبُ القوم باللَّجْلاجِ ولا الذى يَزْحَلُ كالهِلْباجِ

ورُبَّ بيداء وليلٍ داجِ هتكتُه بالنَّصِّ والإدلاجِ (٣)

كما أورد الجاحظ في كتابه مدح ثُمامة بن الأشرس لجعفر بن يحيى البرمكي بأنه كان لا يَتَحَبَّس ولا يَتَلَجْلَج ولا يَتَنَحْنَح .(٤)

فجعفر بن يحيى كان خاليا من العيوب إلى جانب كونه أقل تكلفا .

---

(١) انظر لسان العرب مادة (لجج) ٢/ ٣٥٥ .
(٢) انظر العين ٦/ ٢٠ ت : المخزومي والسامرى .
(٣) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٩ ،يزحل : يزل عن مقامه.
والهلباج : الأحمق الشديد الحمق. وهناك أبيات أخرى قيلت في اللّجلجة ،انظر البيان ١/ ١٣١،١٣٤ .
(٤) نفس المرجع ١/ ١٠٦ .

٥ - التَّمْتَمَةُ :

لقد أتى الجاحظ في كتابه البيان والتبيين بعبارة الأصمعيّ عن التَّمْتَمَةِ حيث قال : " إذا تَتَعْتَعَ اللسانُ في التَّاءِ فهو تمتام وإذا تَتَعْتَع في الفاء فهو فَأْفَاء " ،وأنشد لِرُؤْبة بن العجّاج :

يا حَمْدَ ذاتَ المنطقِ التِّمتامِ كأنَّ وَسْواسَك في اللِّمامِ
حديثُ شيطانِ بني هِنّامِ (١)

كما أتى بقول الخولاني :

إنَّ السِّياط تَرَكْنَ لاستِك منطِقا كمقالة التمتامِ ليس بِمُعْرِبِ

قال الجاحظ : لقد جعل الخَولانيُّ التمتامَ غيرَ مُعربٍ عن معناه ولا مفصحٍ بحاجته ". (٢)

وجاء في الكامل للمبرد ان "التَّمْتَمَةَ هي التَرَدُّدُ في التَّاء ". (٣)

وفي لسان العرب ما يؤيد قول الجاحظ والمبرد حيث قال :
"التَّمْتَمَةُ : رَدُّ الكلام إلى التاءِ والميم ". (٤)

----

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٣٧.
(٢) نفس المرجع ١/٣٨.
(٣) انظر كتاب الكامل في اللغة والأدب والنحو والصرف لأبي العباس المبرد / ٢/٥٧٨.
(٤) انظر اللسان مادة (تمم) ١٢/ ٧١.

" و التَّمْتَمَةُ في الكلام ألاّ يبين اللسان ، يُخطِئ موضعَ الحرف فيرجع إلى لفظ كأنه التاء والميم"(١) ،

قال محمد بن يزيد : " التَّمْتَمَةُ الترديدُ في التاءِ ، والفَأْفَأة الترديد في الفاء . وقيل : هو أن يَعْجَل بكَلاَمِهِ فلا يكادُ يُفْهِمُك ".(٢)

فواضح من هذا كله أن التَّمْتَمة تكون بثقل اللسان وتردده في نطق التاء فينتج عن ذلك الإبهام وعدم الإبانة والافصاح عن الحاجة ، على ما نُسب إلى الليث .

٦- الفَأْفَأة :

لقد أورد الجاحظ قول الأصمعي في معنى الفأفأة : " إذا تَتَعْتَع اللسانُ في التاءِ فهو تمتام وإذا تَتَعْتَع في الفاء فهو فأفاء ".(٣)

فالشق الأول من العبارة وهي : (إذا تَتَعْتَع اللسان في التاء فهو تمتام) قد سبق أن أشرنا إليه في أثناء حديثنا عن التَّمْتَمة ، أما الشق الآخر من العبارة وهو قوله : " إذا تَتَعْتَع في الفاء فهو فَأْفَاء " فالمراد به أن اللسان يتردد عند النطق بالفاء ، فينتج عن هذا التردد تكرار الفاء .

وجاء في الكامل للمبرد أن الفأفأة هي : " الترددُ في الفاء ".(٤)

---

(١) انظر العين ٨/ ١١١ ت : المخزومي والسامرائي .
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (تمم) ٧١/١٢ .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ ٣٧/١ .
(٤) الكامل للمبرد ٥٧٨/٢ .

أما في لسان العرب فقد ذكر أن الفَأْفَاءَ : "الذى يُكْثِرُ تَرْدادَ الفاء إذا تكلّم . والفَأْفَأَةُ : حُبْسَةٌ في اللسانِ وَغَلَبةُ الفاءِ على الكلام. وقد فَأْفَأَ . ورجل فَأْفَأٌ وفأفاء يُمَدُّ ويُقْصَرُ وامرأة فأفأة ، وفيه فأفأة"(١) : "الفَأْفَأَةُ في الكلام إذا كان الفاء يَغْلِبُ على اللّسان . فَأْفَأَ فلان في كلامه يُفَأْفِئُ فأفأةً"(٢).

فمن هنا نجد أنهم قد اتفقوا جميعا على معنى الفَأْفَأَة ، وهذا المعنى هو ما أراده الجاحظ لأنه قال أيضا : "ويقال في لسانه حُبْسة ، إذا كان الكلام يَثْقُل عليه ولم يبلغ حدَّ الفأفاء والتمتام" وهذا القول يؤيده ما جاء في اللسان من قوله : "والفأفأة : حُبْسة في اللسان وغلبة الفاء على الكلام ".

وهكذا نجد أن الاتفاق بينهم في معنى الفَأْفَأَة ظاهر وواضح .

٧ - الطبق :

الطبق من العيوب التي ذكرها الجاحظ في قوله : " ويقال في الفَحْلِ إذا لم يُحْسِن الضِّراب: جمل عَيَاياء ، وجمل طَبَاقاء ، وقالتْ امرأةٌ في الجاهلية تشكو زوجها "زوجي عَيَاياءُ طَبَاقَاء ، وكل داءٍ له داءٌ "(٣).

---

(١) انظر لسان العرب مادة "فأفأة" ١/١١٩ .

(٢) العين ٨/٤٠٧ ، ت: المخزومي والسامرائي .

(٣) ورد هذا النص أيضا في فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ونصه " قالت السابعةُ : زوجي غَيَاياءُ -عَيَاياءُ - طَبَاقاء كُلُّ داءٍ له داءٌ ، شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جمع كلًا لكِ " أ.هـ انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٩/٢٥٥ ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

حتّى جعلوا ذلك مثلاً للعَيِّ الفَدْم (١) ،والذى لا يتّجه للحُجة (٢) . قال الشاعر :

طَبَاقاء لم يشهدْ خصوما ولم يَقُدْ ركابا إلى أكوارها حين تُعكَفُ (٣)

فالطبق عموما تُطلق على الأشياء التي لا يُحسِن المرء فِعْلَها عن عِيٍّ ، كما يطلق هذا المعنى على الحيوانات فيقال : جمل عياياء ، وجمل طباقاء .

وجاء في اللسان أنه يُقال رَجل طَبَاقاءُ : أى أَحْمَق ،وقيل هو الذى لا ينكح ،وكذلك البعير الذى لا يَضْرِب . والطَّبَاقاء : العَيِيُّ الثقيل .

قال الأصمعي : الطَّبَاقاء ،الأحمق الفَدْم ،وقيل هو الذى يعجز عن الكلام فَتَنْطَبِق شفتاه ". (٤)

فبالنظر لما سبق نجد أن الكلمة مستعملة فيما لا يُحْسِن ،كالرجل الذى لا ينكح ،وكالفحل الذى لا يُحسِن الضِّراب . ويدخل في ذلك أيضا عدم احسان التعبير عن الحُجّة ، فالطَّباقاء : عنده القدرة ، ولكنه لا يحكم الأداء .

(١) الفَدْم من الناس : العيّ عن الحُجّة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم . والفِدام : شيء تشده العجم على أفواهها عند السقي وقيل : هو ما يوضع على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذى فيه .أ.هـ (انظر لسان العرب مادة : فدم) . إذاً فالفدم تغطية الفم ،وهي تدخل في عدم التعبير .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) نفس المرجع ١/ ١١٠ والكور : الرحل بأداته . تعكف : تحبس .

(٤) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (طبق) ١٠/ ٢١٤ .

فخلاصة الأمر أن الطَّبقَ هو : العِيُّ عن وجه الحُجّة حمقاً وغباءً ، فهو لا يُحْسِن التعبير عن حجته رغم أن أعضاء نطقه سليمة ،فالعجز هنا ، مما يجعل المرء يعجز عن الكلام فتنطبق شفتاه . وكثيرا ما نجد أن العرب كانوا يهجون الرجل الطباقاء ويذمونه . قال الشاعر :

طَبَاقاءُ لم يشهدْ خُصوماً ولم يَعِش حَميداً ولم يشهدْ حِلَالاً ولا عِطْرَا

قال الجاحظ : إن المراد بالطباقاء في هذا البيت هو : الرجل الذى لا يتجه للحجة . الحِلَال : الجماعات ،ويقال حيٌّ حِلَالٌ إذا كانوا متجاورين مقيمين . والعِطْرُ هنا : العُرْس ".(١)

ولكراهية العرب للطبق ،نجدهم قد ذموا الشخص المصاب به ، والذى يتسم بقلة الحُجّة .

٨ - عَصْبُ الريق :

وهو يبس الريق . ويؤخذ من مقابلة الجاحظ إياه هنا بكثرة الريق كناية عن سلاسة النطق والانطلاق فيه أن المراد جفاف ريق المتكلم جُبنا وبهرا . قال الجاحظ : " وكانوا يمدحون كثرة الريق وذلك في قوله : " وكانوا يَمدَحُون شِدَّة العارضة ،وقوة المُنَّة ،وظهور الحُجَّة ،وثَباتَ الجَنَان ، وكثرةَ الرِّيق ،والعلُوَّ على الخَصْم ،ويَهْجُون بخلافِ ذلك ".(٢) وذلك

---

(١) انظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٧٦ .

(٢) نفس المرجع والصفحة.

لأنّ وجود الريق في الفم يساعد اللسان على التحرك بسهولة في الموضع الذى يتطلبه الحرف. قال الشاعر في ذكر الريق :

وإن خَطَرَتْ أيدى الكُماة وجدتَني نَصُوراً إذا ما استيبَس الرِّيقَ عاصبُه

عاصبه : يابسه ، يعتصم به حتّى يُتمَّ كلامَه ... "(١)

وجاء في لسان العرب أن الرِّيق هو : ماءُ الفم غُدوة قبل الأكل ، ويؤنث في الشعر فيقال : ريقَتُها.

وريقُهُ : لعابه ، وجمع الرِّيق أرْياقٌ ورِياق.

وعصب الفم قيل : يَبِسَ ريقُه. وفُوه عاصبٌ ، وعَصَبَ الريقُ بِفيهِ ، بالفتح ، يَعْصِبُ عَصْباً ، وعَصِبَ : جَفَّ ويَبِسَ عليه.

قال ابن أحمر :

يُصَلِّي على مَنْ ماتَ منَّا عَرِيفُنا ويَقْرأُ حتى يَعْصِبَ الرِّيقُ بالفَمِ

ورَجل عاصبٌ : عَصَبَ الريقُ بفيه ". (٢)

ويبس الريق أحيانا يكون نتيجة حرج أو خوف أو اجهاد ، ثم يترتب على يُبس الريق التعثر في إخراج الكلام بسهولة ووضوح ، فيعد ذلك عيبا من عيوب الأداء .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٧٩-١٨٠.
خطرت : ارتفعت ، الكماة : جمع كمي وهو الرجل المتستر بالسلاح ، عاصبه : يابسه . وانظر اللسان مادة (خطر) و (عصب).

(٢) انظر اللسان مادة (ريق) ١٠/١٣٥ ، ومادة (عصب) ١/ ٦٠٧.

٩- الفَهَـهُ :

الفَهَـهُ من العيوب النطقية التي ذكرها الجاحظ ضمن بيتين من الشعر ، حيث أورد قول الشاعر :

ولمْ تُلْفِني فَهًّا ولم تُلفِ حُجَّتي مُلَجْلَجَةً أبْغِي لها مَنْ يُقيمُها (١)

كما أورد قول أبي قيس بن الأسلت :

الكَيْسُ والقُوَّةُ خيرٌ من الإشْفاقِ والفَهَّةِ والهاعِ

قال : وجعل عمر يردد البيت ويتعجب منه ". (٢)

فهنا نجد أن الفهة ذُكرت دون أن يُعرِّفها الجاحظ أو يُحدِّد معناها ، وإنما جاءت عندما أورد الجاحظ قول العائشي : بأن عمر كان أعلم الناس بالشعر ، وكثيرا ما كان يُعْرَضُ عليه الشعر ، ليروا رأيه فيه ، وغالبا ما كان يُعجب به ويَستحسنه .

ولقد جاء في اللسان أن الفَهَّ هو : الكليلُ اللسانِ العَييُّ عن حاجته ، والأنثى فَهَّةٌ ، بالهاء . والفَهِيهُ والفَهْفَهُ كالفَهِّ . وقد فَهِهْتَ وفَهَهْتَ تَفَهُّ وتَفِهُّ فَهًّا وفَهَهًا وفَهَاهةً : أي عَيِيتَ ، وفَهَّ العَيِيُّ عن حاجته .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣١ .

(٢) نفس المرجع ١/ ٢٤١ . والهاع : شدة الحرص .

وفَهَّ العَيِيُّ عن حاجته . وخرجت لحاجةٍ فأَفهَّني عنها فلانٌ حتى فَهِهْتُ أي أنسانيها . شَغَلني عنها حتى نَسِيتُها ".(١)

ونخلص من تفسير الفَهَّه بالعيّ والنسيان ، ومن قول ابن شميل - في اللسان أيضا - فَهَّ في خُطْبَتِه وحُجَّته إذا لم يُبالِغْ فيها ولم يَشْفِها ، وقوله : تقول أَتَيْتُ فلانا فبَيَّنْتُ له أمرى كلَّه إلا شيئاً فَهِهْتُه ، أي نَسيتُه ، بأن الفهة عيٌّ مظهره عدم إشباع الفكرة تفصيلا وتوضيحا ، وإغفال جوانب منها بسبب غياب هذه الجوانب عن ذهن المتكلم غفلة أو نسيانا . وقد يدخل في هذا غياب الكلمة أو العبارة المناسبتين ، فلا توفي الفكرة حقها في العرض .

ولقد أشار الجاحظ إلى أن الفَهَه يأتي بمعنى النسيان من خلال ما أورده عن عامر بن الظرب العدواني " الذى حكم العرب في الجاهلية ، فلما أَسَن واعتراه النسيان ، أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هو فَهَّ عن الحكم ، وجار عن القصد ".(٢)

فهذه القصة تدل على أن الجاحظ كان على علم بأن الفهه يأتي بمعنى العِيّ عن الحُجّة ، وأيضا يأتي بمعنى النسيان .

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (فَهَّهَ) ٥٢٥/١٣ .

(٢) انظر البيان والتبيين ٣/ ٣٨ .

١٠ - الرَّطَانَةُ :

لقد ذكر الجاحظ الرَّطانةَ في قولـه : " فمن زعم أنَّ البلاغة أن يكونَ السامعُ يفهمُ معنى القائلِ ،جَعَلَ الفصاحةَ واللُّكْنَة ،والخطـأَ والصّوابَ ،والإغلاق والإبانة ،والملحونَ والمُعْرب ، كله سواءً ،وكلّه بيانا . وكيف يكون ذلك كلُّه بيانا ،ولولا طولُ مخالطة السامع للعجَم وسماعِه للفاسد من الكلام ،لما عَرَفه ،ونحن لم نَفْهم عنه إلا للنَّقص الذى فينا . وأهلُ هذه اللُّغةِ وأربابُ هذا البيانِ لا يستدلُّون على معاني هـؤلاء بكلامهم ، كما لا يعرفون رَطانة الرُّوميّ والصَّقلبي ،وإن كان هذا الاسم (يعني البيان) إنما يستحقُّونه بأنَّا نَفهم عنهم كثيرا من حوائجهـم. فنحن قد نَفهم بحَمْحَمة الفَرَس كثيرا من حاجاته ... "(١)

فهنا نجد أن الجاحظ قد تكلم عن الرَّطانة كلامـا عـامـاً . والمفهوم من السياق ا... أن المراد بالرّطانة عنده هو : كلام أعجمي لا يفهمه العرب وذلك في

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٦٢/١.

قوله : " كما لا يعرفون رَطانة الرُّومي والصَّقلبي " وفي لسان العرب معنيان للرَّطانة أحدهما يوافق ما قاله الجاحظ عنها . قال : " رَطَنَ العجميّ يرطِن رطْناً : تكلم بلغته . والرَّطانة والرِّطانة والمُراطَنة : التكلم بالعجمية ، وقد تَراطَنا . تقول : رأيت أعجميين يتراطَنان ، وهو كلام لا يفهمه العرب . قال الشاعر :

* كما تَراطَنَ في حافاتِها الرُّومُ *

ويقال : ومارطيناك هذه أى : ماكلامك ومارُطَيْنَاك بالتخفيف أيضا . وتقول : رطنت له رطانة وراطنته اذا كلمته بالعجمية . وتراطن القوم فيما بينهم . وقال طرفة :

فأثار فارِطُهُم غَطَاطا جُثَّمَا ... أصْوَاتُهُم كتراطُن الفُرْسِ

وفي حديث أبي هريرة قال : أنت امرأة فارسية فرطنت له .

قال : الرطانة بفتح الراء وكسرها ، والتراطن : كلام لا يفهمه الجمهور ، وإنما هو مُواضَعَة بين اثنين أو جماعة ، والعرب تخص بها غالبا كلام العجم .

أما المعنى الثاني للرَّطانة فهو حديث عبدالله بن جعفر النجاشي : قال له عمرو : أما ترى كيف يَرْطُنون بحِزْب الله أى يَكْنُونَ ، ولم يُصَرِّحوا بأسمائهم ".(١)

نخلص من هذا أن المراد بالرَّطانة عموما هو : كلام الأعجمي الذى لا يفهمه العرب . وهذا هو المعنى الذى أراده الجاحظ ولم يُحدِّدَه بتعريف ، وإنما فُهم من سياق كلامه .

وأما المعنى الآخر للتراطن وهو التعبير بالكنايات . فواضح أنه فرع على المعنى الأول ومحمول عليه .

---

(١) انظر لسان العرب مادة (رَطَنَ) ١٣/١٨١ .

١١ - اللَّفَف :

لقد أورد الجاحظ قول أبي عبيدة في معنى اللَّفَف فقال : " إذا أدْخَلَ الرَّجُلُ بعضَ كلامه في بعضٍ فهو أَلَفُّ ،وقيل بلسانه لَفَفٌ . وقد قال فيه الراجز :

كأنّ فيه لَفَفاً إذا نطَق   من طُولِ تَحْبيسٍ وَهَمٍّ وأَرَقْ (١)

فتداخل الكلام بعضه في بعض يُؤدّي إلى عدم الإبانة والإفصاح في أثناء الكلام . وجاء في الكامل للمبرد أن اللَّفَفَ "إدخال حرف في حرف " (٢) ،بمعنى تداخل الكلام بعضه في بعض وعدم إبانته

واستعمال تركيب لَفَفَ يؤيد ذلك ،إذ يقال : "لفّ الشيء جمعه " واللَّفيف الجمع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والدَّنيء والمُطيع والعاصي ،والقوى والضعيف " (٣).

وجاء في اللسان أيضا ما يؤيد ما قاله الجاحظ والمبرد وهو قوله : " اللَّفَفُ في الكلام : ثِقَل وعِيٌّ مع ضَعْف . ورجل أَلفّ بيِّن اللَّفَف، أى عَيِيّ بطيء الكلام ، إذا تكلم ملأ لسانُه فمه . وقد لَفَّ لَفَفاً وهو أَلَفُّ وكذلك اللَّفْلَفُ واللَّفْلافُ وقد لَفْلَفَ .

قال أبو زيد : الألَفُّ العَيِيُّ ،وقد لَفِفْت لَفَفاً ،وقال الأصمعي : هو الثقيل اللسان ". أ.هـ

وثقل اللسان يتمثل هنا في عدم تخليصه الحروف بعضها من بعض . فالملاحظ أن جميع الأقوال التي قيلت في معنى اللَّفَف تؤيد ما قاله الجاحظ وهو : تداخل الكلام بعضه في بعض مع ثقل في اللسان .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٨.

(٢) انظر الكامل للمبرد ٢/ ٥٧٨.   (٣) انظر لسان العرب مادة (لفف) . ج٩/ ص ٣١٩.

١٢ - اللُّكْنَةُ :

قال الجاحظ في تحديد معنى اللُّكْنَة : " ويُقالُ في لِسانِه لُكْنَة إذا أَدْخَلَ بعضَ حروف العَجَم في حروف العرب ، وجَذبت لسانَه العادةُ الأولى إلى المخرج الأوَّل ".(١)

قال أبو عثمان : " وإنما تهيَّأَ وأمكنَ الحاكيةَ لجميع مخارِجِ الأمم ، لِمَا أعطى اللهُ الإنسانَ من الاستطاعة والتمكين وحين فضَّله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة. فَبِطُول استعمال التكلُّف ذلت جوارحه لذلك .... فأمّا حروفُ الكلامِ فإن حُكْمَها إذا تمكَّنَتْ في الألسنة خلافُ هذا الحكم. ألا ترى أنّ السِّنْدى إذا جُلِبَ كبيراً فإنه لا يستطيع إلاّ أنْ يَجعلَ الجيم زاياً ولو أقامَ في عُليَا تميم ، وفي سُفْلَى قيس وبين عَجُز هوازنَ خمسين عاماً ...".(٢)

نفهم من هذا أن الجاحظ أراد أن يبين لنا أن اللُّكنة هي عُجْمة في اللسان بمعنى أن الشخص الأعجمي إذا تكلم باللغة العربية فإنه لا بد من أن يُدخل بعض حروف العجم في حروف العرب . ويشمل ذلك إبدال الحروف العربية في الكلام بسبب العُجْمة.

فهذا التحديد لمعنى اللُّكنة تحديد دقيق وواضح ولقد اعتمد الجاحظ فيه على الشرح والتعليل فنجد أنه قد بَيَّنَ أن التقليد والمحاكاة تختلف تماما عن اللُّكنة ، لأن اللُّكنة تلزم الأعجمي مهما

----

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٤٠.

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٧٠.

حاول التغلب عليها أو اخفاءها حتى ولو مكث معظم حياته بين العرب .

وجاء في الكامل للمبرد أن اللُّكنة هي : " أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية ، يُقال فلان يَرْتَضِخُ لُكنة رومية أو حبشية أو سندية أو ما كانت من لغات العجم "(١) . بمعنى أن يُدخل على اللغة العربية بعض حروف أعجمية ، وذلك من لغته السابقة .

وفي لسان العرب تعريف يؤيد ما قاله الجاحظ والمبرد وهو قوله : " اللُّكْنَة : عُجْمة في اللسان وعِيٌّ . يقال : رجل ألْكَنُ بيِّنُ اللَّكَن .

ابن سيده الألْكَنُ الذى لا يُقيمُ العربية من عجمة في لسانه ، لَكِنَ لَكَناً ولُكْنَة ولُكُونة . ويقال : به لُكْنة شديدة ولُكُونةٌ ولُكْنُونةٌ "(٢) .

وبالنظر لما سبق نجد أن الأئمة قد اتفقوا على تحديد معنى اللُّكنة ، وهذا المعنى هو ما أراده الجاحظ .

ولقد أورد الجاحظ عِدَّة أمثلة عن لُكنة بعض الشعراء والخطباء والكُتاب والرُّوساء ، كما أتى بأمثلة عن لُكنة العامة منها قوله : بأن النَّبَطِيَّ القُحَّ يجعل الزاى سينا ، فإذا أراد أن يقول زورق قال : سَوْرق . ويجعل العين همزة ، فإذا أراد أن يقول مُشْمَعِلّ ، قال مُسْمَئِل .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ٢/ ٥٧٨ .

(٢) انظر لسان العرب مادة (لكن) ١٣/ ٣٩٠ .

وقال : إن النَّخاس يمتحن لسانَ الجارية إذا ظنَّ أنها رُومية وأهلها يزعمون أنها مولدة ،بأن تقول ناعمة ، وتقول شمس ،ثلاث مَرّاتٍ متواليات .

كما ذكر الجاحظ أمثلة عن لُكن الخطباء أو الشعراء ومنهم (زيادَ بن سَلْمَى أبو أُمامة) وهو زياد الأعجم فقد كان ينشد قوله :

فتىً زادَهُ السُّلطان في الوُدِّ رِفعةً
إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلِ (١)

فكان يجعل السين شينا والطاء تاء ،فيقول " فتى زاده الشلتان".

ومنهم (سُحَيْم عبدَ بني الحَسحاس) فقد أنشد قوله :

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزتَ غاديًا
كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا (٢)

فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو قَدَّمْتَ الإسلامَ على الشَّيبِ لأجزتُك ، فقال له : ما سَعَرت . يريد ما شعرت ،فجَعَلَ الشين المعجمة سينا غير معجمة.

ومنهم (عُبيدالله بن زيادٍ) والي العراق ،قال لهانيء بن قَبيصة : أَهَرُورِيٌّ سائرَ اليوم ،يريد أحَرُورِيّ .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٧١.

(٢) نفس المرجع ١/ ٧١ - ٧٢.

ومنهم (صُهَيب بن سِنان النَّمَرِيّ) ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنّك لهائنٌ ،يريد إنك لَحَائن (يعني هالك) ،فصهيب يرتضخ لُكْنة روميّة ،و(عبيد الله بن زياد) يرتضخ لُكْنة فارسيّة . وقد اجتمعا على جعل الحاء هاء .

ومنهم أيضا (أبو مسلم الخراساني) كان إذا أراد أن يقول : قلت لك ،قال : كُلْت لك . وشارك في تحويل القاف كافا عبيدالله بن زياد . فهذه كلها أمثلة للُكْنة البلغاء والخطباء والشعراء والرؤساء .

فأما لُكْنة العامة فتتمثل في (فيل) مولى زياد . فقد قال له مَرّة (أَهْدَوا لنا هِمَارَ وَهْشٍ) ، يريد : حمارَ وحش . فقال له زياد : ما تقولُ وَيْلَك ! قال : (أهدَوا الينا أيرا) ،يريد : عيرا. فقال زياد : الأول أهون ، وفهم ما أراد .

وقالت أمُّ ولدٍ لجرير بن الخَطَفَي ، لبَعضِ وَلدِها : " وقع الجُرْدَان في عِجان أُمِّكم " ،فأبدلت الذَّال من الجرْذان دالا وضمت الجيم وجعلت العجين عجانا .

وذكر الجاحظ قول بعض الشعراء في أُمِّ ولدٍ له ،يذكر لُكْنَتَها :

أَوّلَ ما أسمَعُ منها في السَّحَرَ   تذكيرُها الأُنْثَى وتأنيثُ الذّكَرْ
والسَّوءَةُ السَّوآءُ في ذكر القَمَر (١)

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر ،قالت : الكَمَر .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٧٣ ، ٧٤ .

وذكر الجاحظ بابا آخر من اللُّكْنة ، قيل لنَبَطيٍّ : لِمَ ابتعتَ هذه الأتان ؟ قال : (أركَبها وتَلَدُ لي) فجاء بالمعنى بعينه ولم يبدل الحروف بغيرها ، ولا زاد فيها ولا نقص ،ولكنه فتح المكسور حين قال (وتلَد لي ،ولم يقل تلِد لِي)(١).

إذاً فاللُّكْنة تكون في إبدال حرف مكان حرف ،وتكون أيضا في الحركات ،بمعنى أنه يأتي بحركة بدل أخرى كما حصل في مثال النبطي الذى ابتاع الأتان.

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، فقد وردت فيها كل الأمثلة السابقة.

١٣ - العَجَلَةُ :

العجلة من العيوب التي استغنى بوضوح معنى اسمها عن تعريفها . قال الجاحظ :

" وليس اللَّجْلَاج والتَّمْتَام ، والألثغ ، والفأفاء ، وذو الحُبْسة والحُكْلَة والرُّتَّةِ وذو اللَّفَفِ والعَجَلة ، في سبيل الحَصِر في خطبته ، والعيِّ في مناضلة خُصومه ، كما أن سبيلَ المُفْحَم عند الشعراء ، والبكيء عند الخطباء ، خلافُ سبيل المُسْهَب الثَّرثار والخَطِل المِكْثار ".(١) فهنا نجد أنه قد عَدّ العَجَلة وهي السرعة في الكلام من ضمن عيوب النطق .

كما نجد أن المبرد وصاحب اللسان لم يُعرِّفا العَجَلة أيضا ، وإنما جاء ابن منظور في اللسان بمعاني أخر ، ولم يُشر إلى أن العَجَلة عيب من عيوب النطق .

وبالنظر فيما أورده الجاحظ من أشعار عن العَجَلة نجد أنه يقصد بها سرعة الكلام مما ينتج عنه الإبهام وعدم الوضوح ، ومن ذلك ما أنشده الأصمعي حيث قال :

حديث بني قُرْطٍ إذا ما لقيتَهم　　　كنَزْو الدَّبَا في العرفج المتقارِبِ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٢ .

قال الجاحظ : " قال الشاعر ذلك لأن في كلامهم عَجَلة ".(١)
كما أورد الجاحظ قول سلمة بن عيّاش :

كَأَنَّ بنيَ رألانَ إنْ جاء جمعُهم   فراريجُ يُلْقَى بينهنَّ سَوِيقُ

فقال ذلك لدقة أصواتهم وعَجَلة كلامهم ".(٢)

إذاً فالمراد بالعَجَلة عموما هو السرعة في الشيء ، ووصف الكلام بالعَجَلة يدل على سرعة الكلام لدى الشخص المتصف بهذه الصفة لدرجة أن كلامه يكون غير واضح أو مفهوم ، لذلك شبههم الشاعر بالفراريج التي يُلْقَى بينهن السويق .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٩.
(٢) نفس المرجع والصفحة.

١٤- الغَمْغَمَــةُ :

لقد ذكر الجاحظ الغَمْغَمَةَ في أثناء حديثه عن أفصح النــاس حيث قال : " قال معاويةُ يوما : من أفصَحُ الناس ؟ فقال قائل : قوْم ارتفعوا عن لُخلخانِيَّة الفُراتِ ،وتيامنوا عن عنعنة تميم وَتياسَروا عــن كسـكسةِ بكرٍ ، ليست لهم غمغمةُ قُضاعة ولا طُمْطُمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جَـرْم . قال : اجلس ".(١)

ولعل لفظ (الغَمْغَمَةَ) مأخـوذ من (الغمام) ، وبما أن الغمام يحجب عنا الرُّؤية فلا نتبين ما وراءه بوضوح ،فكذلــك الغمغمة التي تحجب عنا الفهم ، لأن الشخص الذى يغمغم في كلامه لا تكون ألفاظه ومقاطعه واضحة ولا بينة .

جاء في اللسان أن الغَمْغَمَةَ والتَّغَمْغُم : الكلام الذى لا يُبَيـن".(٢)

ونظرا إلى أن الغمغمة لا تقتصر على قُضاعة بل هي صفة ملازمة لبعض الناس في كلامهم فإنها تستحق أن يشار إليها هنا كعيب من عيوب النطق الوظيفية . وقد ذكرها المبرد عيبا من عيوب النطق .(٣)

---

(١) انظر البيان والتبيين ٣/ ٢١٢، ٢١٣.

(٢) انظر اللسان مادة (غمم)١٢/ ٢٤٤.

(٣) قال المبرد في الكامل (تحقيق محمد احمد الدالي ٢/ ٧٦٢) : " الغمغمة أن تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطيع الحروف ".

ثالثا : عيوب الأداء :

لقد تحدثنا آنفا عما ذكره الجاحظ من عيوب النطق التي لها سبب عضوى ظاهر، وسميناها نحن عضوية ،كما تحدثنا عما ذكره من عيوب سميناها وظيفية، والآن سوف نتحدث عن عيوب الأداء التي ذكرها الجاحظ وهي : التخلُل باللسان والتشادق والتعمق والتقعيب والتقعير والتمطيط والنحنحة ، والثرثرة .

١)- التخلل باللسان :

لقد أشار الجاحظ بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عاب الإنسان الذى يتخلَّل بلسانه تَخَلُّلَ الباقرة بلسانها ،حيث أورد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى قال فيه : " إن الله يُبْغِض البليغ الذى يَتَخَلَّل بلسانه ،تَخَلُّلَ البَاقِرَةَ بلسانِها ".(١)

فذكر الجاحظ للتخلل باللسان كان عرضا بحيث لم يُعَرِّفه أو يُفَصِّل في معناه ، بل اكتفى بذكر الحديث فقط .

وجاء في النهاية شرح وتعريف لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال فيه : " إن الله يُبْغِض البليغ من الرجال الذى يَتَخَلَّل الكلام بلسانِه كما تَتَخَلَّل الباقرةُ الكلأ بلسانِها ، قال ابن الأثير : هو الذى يتشدَّق في الكلام ويُفَخِّم به لسانه ويَلُفُّه كما تَلُفُّ البقرة الكلأ بلسانها لَفًّا ".(٢)

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٧١ .

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٧٣ . تحقيق : محمود محمد الطناحي ، طاهر أحمد الزاوى .

فعلى هذا يكون التخلل باللسان عبارة عن تشدق في القول وتفاصُح مع لَيِّ اللسان ولَفّه بطريقة تجعل الكلام واللسان مفخما ، وهذا شيء عابه الرسول صلى الله عليه وسلم وعلينا اجتنابه لأنه تكلف ومبالغة مقيتة تشوه وقع الكلام.

٢) - التَّشَـادُقُ :

وهو من عيوب الأداء التي تعرض لها الجاحظ بقوله : "الأعرابيُّ المُتَشادق ، وهو الذي يصنَعُ بفَكَّيْه و بشدقيه ما لا يستجيزه أهلُ الأدب من خطباء أهل المدَر ، فمن تكلف ذلك منكم فهو أعْيَبُ ، والذَّمُّ له ألزَم ".(١)

و معناه أنه يلوى شدقه في أثناء الكلام للتفصُح بطريقة تجعل أهل اللغة والأدب يستقبحون ذلك منه ، وخصوصا إذا ما تكلف ذلك فإن الذم له أشد .

و لقد أيَّدَ الجاحظ قوله هذا في ذم التشادق بما أورده من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن أبغضكم إليَّ وأبعدَكُم منيِّ مجلساً يومَ القيامة ، الثَّرثارونَ المُتَشدِّقون المُتَفَيْهِقون ".(٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم : " إيَّاىَ والتَّشادُق ".(٣)

كما أورد قول أبي العاص : "أنشدني أبو مُحْرِز خلفُ بن حَيَّان ،

----

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٧١.

(٢) نفس المرجع ٢ / ٢١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

وهو خلف الأحمر مولى الأشعريين في عيب التشادق :

لـه حَنْجَرٌ رَحْبٌ وقـول منقّـح
وَفَضْلُ خِطابٍ ليس فيه تشادقُ (١)

فالشاعر هنا قد مدحه بأن نفى عنه صفة مذمومة وهي التشادق .

كما أورد الجاحظ قول دَغْفَل بن حنظلة النَّسّابة حين سألـه معاوية عن قبائل قريش فذكر بأن بني المُغيرة فيهم تشادُق في الكـلام حيث قال عن بني مخزوم : " مِعْزَى مَطيرةٌ ،علَتْها قُشَعْريرة ،إلا بنـى المُغيرة ، فإن فيهم تشادُقَ الكلام ،ومصاهرةَ الكرام ".(٢)

وقال أيضا : " أنه لما اجتمَعت الخُطباء عند معاوية في شأن يزيد ،وفيهم الأحنف ،قام رجلٌ من حمير ،فقال : إنا لا نطيق أفواهَ الكِمال - يريد الجِمال - عليهم المقال ،وعلينا الفِعال . وقول هذا الحميرىّ: إنا لا نطيق أَفواهَ الكِمال يدلُّ على تشادُق خطباء نِزار ".(٣)

نستخلص من الأقوال السابقة عِدَّة أمور :

أولا : أن الكلام الذى أورده الجاحظ عن التشادُق يؤخذ منه أن هناك تشادُقا ممدوحا وآخر مذموما .

فمن التشادق المذموم ما ذكره الجاحظ من ليِّ الشدق في أثناء الكلام بطريقة متكلّفة مستقبحة.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٢٩.

(٢) نفس المرجع ١/١٢١-١٢٢.

(٣) نفس المرجع ١/٣٩٨.

وأما التشادق الممدوح فيظهر مما أورده الجاحظ من سؤال معاوية عن قبائل قريش ، فقيل له إن بني المغيرة فيهم تشادق الكلام ، ومصاهرة الكرام. والمراد بالتشادق هنا هي الفصاحة.

كما أن ما رواه من أن الخطباء قد اجتمعوا عند معاوية في شأن يزيد وفيهم الأحنف ،وقيام الرجل الحميريّ وقوله : إنا لا نطيق أفواهَ الكِمال ، وتعليل الجاحظ بأن هذا يدل على تشادق خطباء نزار ،معناه فصاحتهم في الخطابة ،وخصوصا أن معهم الأحنف .

الأمر الثاني المأخوذ من الأقوال السابقة : هو أن هناك تشادقاً حسيا ،وتشادقاً معنويا.

والمراد بالتشادق الحسي هو تحرك الفك أو الشدق من اليمين إلى اليسار ، أو من الأعلى إلى الأسفل ،وتكلف ذلك ، وهذا أمر معيب .

أما التشادق المعنوى ويكون في الكلام ،وذلك كما في قول الشاعر:

* وفصلُ خِطاب ليس فيه تشادُق *

فالتشادق المعنوى يكون بكثرة الكلام مع تكرار معانيه ، فهو لا يصل إلى القول الفَصْل إلا بعدَ كلام كثير .

والذى يؤيد الكلام السابق هو ما جاء في لسان العرب من قوله : " المُتَشَدِّقُ الذى يَلْوى شِدْقَه للتَّفَصُّح . ويقال : هو مُتَشَدِّق في منطقه إذا كان يتوسع فيه ويَتَفَيْهَق .

وتَشَدَّق في كلامه : فتح فمه واتسع .

ورجل أشدق إذا كان متفوّهاً ذا بيانٍ . ومنه قيل لعمرو بن سعيد ، الأشدق ، لأنه كان أحد خطباء العرب . وجاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " أبغضكم إليّ الثرثارون المتشدّقون ، فهم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز ". (١)

فهذا الذى ذكر في اللسان يؤكد قولنا من أن هناك تشادقاً ممدوحا ، وتشادقاً مذموم ، كما أن هناك تشادقاً حسيا وتشادقاً معنويا .

ولا بد لنا من التفريق بين الشّدق والتّشادق ، وذلك لاختلافهما في الدلالة .

ونلاحظ أيضا أن الجاحظ قد ذكر أن أقبح اللّحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب والتشديق (٢) . حيث أورد قول يحيى بن نَوفل ، في خالد بن عبدالله القَسريّ :

وألحنُ الناسِ كلِّ الناس قاطبةً
وكان يولعُ بالتشديق في الخطبِ (٣)

فهو إلى جانب لحنه المَشين نجده يكثر من التشديق في الخطب ، ولذلك هجاه يحيى بن نوفل .

---

(١) انظر اللسان مادة (شدق) ١٠/١٧٣ .
(٢) انظر البيان والتبيين ١/١٤٦ .
(٣) نفس المرجع ٢/٢١٦ .

٣) - التَعَمُّقُ :

ذكر الجاحظ التَعَمُّقَ في الكلامِ في سياق ما يكرهه الأُدَباء والبلغاء وأهل المعرفة ،وذلك لما فيه من التَكَلُّفِ والتَّشَدُّدِ في الأمر ، قال الجاحظ : " قال بعض الرَّبَّانِيِّين (١) من الأُدَباء ،وأَهلِ المعرفةِ من البلغاء مَمَّن يكره التَّشادُق والتَعَمُّق ويُبغض الإِغراق في القول والتكَلُّف والاجتلاب ،ويعرف أكثرَ أدواء الكلام ودوائه ... " (٢)

فنجد أن الجاحظ قد ذكر التَعَمُّق دون أن يُعَرِّفه أو يُحَدِّد معناه .

وبالنظر لما جاء في اللسان نجد أن قولهم : رَجلٌ عُمْقِيُّ الكلام: أى لكلامه غَوْرٌ .

وعَمَّق النظر في الأُمور تَعْمِيقاً ،وتَعَمَّق في كلامه أى تَنَطَّع - (والتَّنَطُّعُ في الكلام : التَعَمُّقُ فيه ،مأخوذ منه . وفي الحديث : هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ ، وهم المُتَعَمِّقُونَ المُغالُون في الكلامِ الذين يَتَكلمون بأقْصَى حُلُوقِهِم تَكبُّرا .

وفي حديث عمر ،رضي الله عنه : لن تَزالوا بخَيْرٍ ما عَجَّلْتُم الفِطْرَ ولم تَنَطَّعُوا تَنَطُّعَ أَهْلِ العِراقِ أى تتكلفوا في القول والعمل .

وقال ابن الأعرابي : النُّطُعُ المُتَشَدِّقُون في كلامهم . وتَنَطَّعَ في الكلام وتَنَطَّسَ إذا تأنَّقَ فيه وتَعَمَّقَ) (٣) - وقيل : المُتَعَمِّقُ : المُبالغ في الأَمْر المُتَشَدِّد فيه الذى يَطلب أَقصى غايته ". (٤)

---

(١) ذكر محقق البيان والتبيين أن الرباني : هو العالم الراسخ في العلم ، أو العالم العامل المعلم.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٥٤ .

(٣) انظر اللسان مادة (نطع) ٨/ ٣٥٧ .

(٤) نفس المرجع مادة (عمق) ١٠/ ٢٧٠ ، ص ٢٧١ .

نستخلص مما سبق أن للتَعَمُّق معنيين :

المعنى الأول : وهو التَعَمُّق في إخراج/ الكلام من مخارجه بصورة يتكلف فيها الفصاحة .

المعنى الثاني : وهو المبالغة في تفتيت الفكرة وتكلُّف ما يستولد منها وما يتعلق بها ، فهو يتغلغل إلى عمق الفكرة لكي يصل إلى أقصى غاياته ، مما ينتج عنه التعقيد والإبهام في المعنى وفي المخرج ، وهذا هو ما كرهه العرب من البلغاء والفصحاء .

٤) - التقعيب والتقعير :

لقد جَمَعْتُ بين هذين العيبين في موضوع واحد ، وذلك لما لَمَسْتُه من تشابه وتطابق في المعنى بين الاثنين . وعند الاطلاع على معنى قعب وقعر في اللسان وجدت أنه قد ذكر بأن معناهما واحد . وبالنظر لما قاله الجاحظ وأورده ، نجد أنه لم يُعَرِّف أي منهما ، وإنما كان كلامه في أمور أخرى ألا وهي حديثه عن "أَنَّ أَقْبَحَ اللَّحن لحنُ أصحاب التَّقعير والتقعيب ، والتَّشدِيق والتمطيط والجَهْورةِ والتفخيم".(١) فهم إلى جانب لَحْنِهم المشين يُقَعِّرون في كلامهم ويُقَعِّبون مما أظهر شناعتهم وقبحهم . قال المَيسانيُّ في هجائه قوما :

وَلَحْنُكُم بتقعيرٍ ومَدٍّ وَلُؤْمٌ من يَدِبُّ على العَفارِ (٢)

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٤٦/١ .

(٢) البيان والتبيين ٢١٥/٢ .

وذكر الجاحظ في بعض المواقف أن أصحاب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء، مع سماجة التكلُّف، وشُنْعةِ التزيُّد، أعْذَرُ من عَيِيٍّ يتكلف الخطابة، ومن حَصِرٍ يتعرض لأهل الاعتياد والدُّرْبَة.(١) فنجده هنا وقد وصفهم بالتكلف السمج والتزيد الشنيع.

ولقد ذكر الجاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عابَ التشديق، وجانب أصحاب التقعيب(٢). وذلك لما لاحظه من شناعة كلامهم وتكلفهم، وهو المعروف عنه بأنه أفصح العرب قاطبة.

قال الشاعر في التقعيب:

لَعمري لقد قَعَّبْتَ حين لَقِيتَنَا
وأنت بتقعيبِ الكلامِ جديرُ(٣)

كما قال خلف الأحمرُ في ذم التقعيب:

وفَرْقَعهنَّ بتقعيبه كفرقعةِ الرَّعدِ بين السَّحابِ(٤)

أما عن التقعير فقد أورد الجاحظ قول أبي الحسن: كان غلامٌ يُقَعِّر في كلامه، فأتى أبا الأسود الدُّؤلي يلتمس بعضَ ما عنده، فقال له أبو الأسود: ما فَعَل أبوك؟ قال: "أخذته الحُمَّى فطبخَتْه طبخاً، وفَنَخَتْه فَنْخا، وفضخته فضخا، فتركته فرخا".

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣.
(٢) نفس المرجع ٢/١٧.
(٣) نفس المرجع ٢/٢١٧.
(٤) نفس المرجع ٢/٢١٨.

فنخته : أضعفته . والفنيخ : الرخو الضعيف . وفضخته : دقته . فقال أبو الأسود : " فما فعلت امرأته التي كانت تُهارُه وتُشارُّه ، وتُجارُّه وتُزارُّه " ؟ قال " طلّقها فتزوّجت غيره ، فرضيَت وحَظِيت وبظيت ". قال أبو الأسود : قد عرفنا رضيت وحظيت ، فما بظيت ؟ قال : حرف من الغريب لم يبلغك . قال أبو الأسود : يا بُني كلُّ كلمة لا يعرفها عمُّك فاستُرْها كما تستر السنورُ جَعْرها ".(١)

فالذى يؤخذ من كلام الجاحظ هو أن التقعيب والتقعير من العيوب التي يكرهها الفصحاء والبلغاء ولذلك عاب عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك .

وجاء في اللسان قوله : "التّقْعِيبُ في الكلام : كالتّقْعِير . قَعَّبَ فلانٌ في كلامه وقعَّر ، بمعنى واحد ".(٢)

وقال صاحب اللسان : " قَعَّر في كلامه وتَقَعَّر تَشَدَّق وتكلم بأقصى قَعْر فمه ، وقيل : تكلم بأقصى حلقه . والتَّقْعير في الكلام : التَّشَدُّق فيه . والتَّقَعُّر : التَّعَمُّق .. يقال : هو يَتَقَعَّر في كلامه إذا كان يَتَنَحَّى وهو لحّانه ويَتَعاقَلُ وهو هِلْباجة ".(٣)

وعلى هذا فإن التقعير والتقعيب والتعمق بمعنى واحد تقريبا .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٣٧٩/١ . جعرها ، يعني : خرءها .

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (قعب) ٦٨٤/١ .

(٣) نفس المرجع ، مادة (قعر) ١٠٨/٥ ، ١٠٩ .

٥) - التمطيط :

لقد أشار الجاحظ إلى التمطيط في أثناء حديثه عن اللَّحن حيث قال : " ثمَّ اعلمْ أنّ أقْبَحَ اللَّحن لحنُ أصحاب التّقعير والتقعيب، والتَّشديق والتمطيط والجَهْورة والتفخيم . وأقْبَحُ مِن ذلك لحنُ الأعاريب النّازلين على طُرق السَّابلة ،وبقُرب مَجامع الأسواق ".(١)

فهو هنا لم يُعرِّف التمطيط أو يُحدِّد معناه ،وإنما ذكره عرضا .

وبالنظر لما جاء في اللسان وجدنا أن المَطْمَطَةَ عنده هو : مدُّ الكلام وتطويله . ومَطَّ شِدْقَه : مدّ في كلامه ،وهو المَطَط."(٢)

وفي التهذيب : ومَطْمَطَ إذا تَوانَى في خَطِّه وكلامه".(٣)

فيرى الجاحظ هنا أن أقبح اللَّحن لَحْنُ أصحاب التمطيط فهم يظهرون عيبهم إظهارا قبيحا وذلك بتطويلهم في الكلام رغم ما يعترى لسانهم من اللَّحن الذى لا تُجيزه العربية في أى حال من الأحوال.

فهم يضيفون اللَّحن إلى سوء النطق ، لذا عَدَّه الجاحظ أقبح اللحن.

----

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٤٦.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (مطط) ٧/٤٠٣.

(٣) انظر تهذيب اللغة للأزهرى ١٣/٣٠٧.

٦) - النَّحْنَحَةُ :

النَّحْنَحَةُ من عيوب الأداء يلجأ إليها الخطيب أو المتحدث بقصد تأجيل الكلام أو التهرب منه من أجل فرصة تفكير أو تعبير ذهب عن خاطره و يريد أن يستدركه فالخطيب الجيد الحاضر الفكر الواثق من نفسه لا يشعر بالخوف أو الرهبة فلذلك تجده ثابت القول لا يتلجلج ولا يتنحنح .

قال الجاحظ : " وإنّما يجترىء على الخُطبة الغِرّ الجاهل الماضي ،الذى لا يثنيه شيءٌ ،أو المطبوع الحاذق الواثقُ بِغَزارته واقتداره ، فالثِّقة تنفِي عن قلبه كلَّ خاطرٍ يُورِث اللَّجلجة والنَّحنحة والانقطاعَ والبُهْر والعَرَق "(١) ، إذا فالثقة بالنفس لازمة للخطيب حتى لا يتلجلج ولا يتنحنح .

وجاء في اللسان أن النحيح هو : صَوتٌ يُرَدِّدُه الرجلُ في جوفه"(٢).

قال الأزهرى عن الليث : النَّحْنَحَةُ: التَّنَحْنُح ،وهو أسهل من السُّعال وهي عِلَّة البخيل ،وأنشد :

يَكادُ من نَحْنَحَةٍ وأَحِّ   يَحْكي سُعالَ الشَّرِقِ الأَبَحِّ(٣)

فقوله " وهي عِلَّة البخيل " يعنى به أن البخيل إذا سُئِل

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٣٤.

(٢) انظر اللسان مادة (نحح) ٢/ ٦١٢.

(٣) انظر تهذيب اللغة للأزهرى ٣/ ٤٤٩.

تنحنح وسعل ليعطي نفسه فرصة التفكير في كلام وتَعِلَّة يُصْرِف بها السائل وهذا يشهد لما قدمنا من أن الشخص يلجأ إليها ليستدرك مافات عن ذهنه من تعبير أو فكرة . قال الشاعر :

ومن الكبائر مِقْوَلٌ مُتَتَعْتِعٌ   جَمُّ التَّنَحْنحِ مُتْعَبٌ مَبْهُورُ (١)

قال الجاحظ : وأنشدني سحيم بن حفص ،في الخطيب الذى تَعْرِضُ له النحنحة والسُّعْلَةُ ،فقال :

نعوذُ بالله مِن الإهمالِ   ومِنْ كَلالِ الغَرْب في المَقَالِ

ومن خطيبٍ دائمِ السُّعالِ (٢)

وقال الأشَلُّ الأزرقي في زيد بن جندب الإيادىّ ،خطيب الأزارقة ،وقد اجتمعا في بعض المحافل :

نَحْنَحَ زيدٌ وسَعَلْ   لمَّا رأى وَقْعَ الأَسَلْ

ويلُ امِّه إذا ارتجَلْ   ثُمَّ أطالَ واحْتَفَلْ (٣)

فبالنظر إلى الأبيات السابقة والتي ذكرها الجاحظ ، نجد أن النَّحْنَحَةَ كانت من العيوب التي تعيبها العرب على الخطيب إذا ما فعلها ، فلذلك نجدهم يتعوذون منها ويهجون من يلجأ لها ،

----

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٤١ ،والمِقْوَل : كثير القول .

(٢) نفس المرجع ١/٤٠ . والكِلاَل : هو العَيِّل والثِّقل . والغرب : إذا لم يبق شيئا إلا تكلم به. انظر اللسان مادة (كلل) و (غرب).

(٣) البيان والتبيين ١/٤٢ .

ويمدحون به من يتجنبها ،قال ثُمامة بن أشرس في مدح جعفر بن يحيى : " ما رأيتُ أحداً كان لا يَتَحَبَّس ولا يَتَوَقّف ،ولا يَتَلَجْلَج ،ولا يَتَنَحْنَح ، ولا يَرتقب لفظاً قد استدعاه من بُعْد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تَعصَّى عليه طلبُه ،أشدَّ اقتداراً ،ولا أقلَّ تَكَلُّفا ، من جعفر بن يحيى ".(١)

فالواجب إذا على الخطيب أن يتجنب هذا العيب ويبتعد عنه.

٧)- الثرثرة :

وهي من عيوب الأداء التي أشار إليها الجاحظ وتعوذ منها ، وذلك في قوله : " اللَّهم إنَّا نَعوذ بك من فِتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ،ونعوذ بك من التَكَلُّف لما لا نُحْسِن كما نعوذ بك من العُجْب بما نُحسن ، ونعوذ بك من السَّلاطة والهَذَر ".(٢)

والمراد بالهَذَرِ هنا هو كثرة الكلام في خطأ ،حيث جاء في اللسان : "الهَذَرُ : الكلام الذى لا يُعْبَأُ به. هَذَرَ كَلَامُه هَذَراً : كثُر في الخطأ والباطل .

وهَذَرَ الرجلُ في منطقه يَهْذِرُ ويَهْذُرُ هَذْرا ،بالسكون ،وتَهْذَاراً وهو بناء يدل على التكثير . وأَهْذَرَ الرجلُ في كلامه : أكثر".

فدلالة هذا التركيب يدل على الكثرة ،وهذا العيب وهو الهذر أو الثرثرة يدخل ضمن عيوب الأداء الذى لا يكون سببه عضويا .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٠٦/١.

(٢) انظر البيان والتبيين ٣/١.

كلام الجاحظ عن أسباب عيوب النطق وعلاجها :

بعد أن حددنا معاني عيوب النطق في الفصل الأول وحللنا دخائلها في ضوء ما قاله الجاحظ والمبرد وما جاء في اللسان، فإننا سوف نتحدث الآن عن أسباب هذه العيوب وعلاج الجاحظ لها .

وأحب أن أشير إلى أن الجاحظ لم يذكر أسباب كل العيوب وعلاجها، وإنما تحدث عن بعضها، وفي بعض الأحايين نجده يذكر الأسباب دون ذكر العلاج أو العكس.

وعلى هذا فسوف نجمل ما ذكره عن الأسباب ، ثم نجمل ماذكره عن العلاج .

١ - عيوب الحَصَر وعدم الوضوح :

من أسباب العيّ والحَصَر التي ذكرها الجاحظ طول الصمت، قال عبدالله بن الحسن : "تَحَوَّلْتُ إلي زيد بن علي فقلت له : الصمت خيرٌ أم الكلام ؟ قال : "أَخْزَى الله المُساكَتة، فما أفسدها للبيان، وأجلَبها للحَصَر . والله للمُماراةُ أسرَعُ في هدم العِيِّ من النَّار في يَبِيس العرفج، ومِنَ السَّيل في الحَدُور" . قال الجاحظ : وقد عرف زيدٌ أن المماراةَ مذمومة، ولكنه قال : المماراةُ على ما فيها أقلُّ ضررا من المُساكَتة التي تورث البُلْدة ، وتَحلُّ العُقدة، وتُفسِد المُنَّة، وتُورث عِلَلاً، وتُولِّد أدواءً أيسَرُها العِيّ . فإلى هذا المعنى ذَهَب زيد ". (١)

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٣١٣ - ٣١٤ .

نخلص من هذا إلى أن السبب في العِيّ والحَصَر هو الصمت ، فلقد وضح الجاحظ أن المساكتة ينتج عنها أضرار كثيرة أيسرها العيّ فهي تسبب العُقدة في اللسان مما يترتب عليه عدم الإبانة والإفصاح في الكلام ، فطول الصمت والسكوت يفسد البيان ويجلب الحَصَر ، وقد صرح الجاحظ بذلك السبب للحصر وبعض عيوب عدم الوضوح فقال : " إذا تَرَكَ الإنسانُ القولَ ماتت خواطُره ، وتَبَلَّدتْ نَفْسُه ، وفَسَدَ حِسُّه ... وأيةُ جارحةٍ منعتَها الحركةَ ولم تمرِّنْها على الاعتمال ، أصابَها من التَعَقُّد على حسب ذلك المنْع " (١) . وقال أيضا : " اللِّسان إذا أكثرت تقليبه رقّ ولانَ ، وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكانه جسأ وغلظ " . (٢)

وروى بشأن الحُبْسة وما إليها قول بكر بن عبدالله المزني :
" طُول الصَّمت حُبْسَة " . (٣)

وقول مَكّيّ بنُ سوادَةَ في ذلك :

تَسَلَّمَ بالسُّكوت من العيوبِ ... فكان السَّكْتُ أجلَبَ للعيوبِ (٤)

وروى بشأن العُقْلَة قول عمر رضي الله عنه : " تَرْكُ الحركة عُقْلَةٌ " . (٥)

وروى بشأن اللفف وما اليه قول أبي الزحف :

كأنَّ فيه لَفَفاً إذا نَطَقْ ... من طُولِ تَحْبيسٍ وهَمٍّ وأَرَقْ (٦)

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) نفس المرجع ١/ ٢٧٢ ،
(٤) نفس المرجع ١/ ٥ .
(٥) نفس المرجع ١/ ٢٧٢ .
(٦) نفس المرجع ١/ ٣٨ .

" كأنَّه لما جلس وحْدَه ولم يكن له مَن يُكلِّمه ، وطال عليه ذلك ، أصابه لَفَفٌ في لِسانِه." (١)

وقال الجاحظ : " كان يزيدُ بن جابرٍ قاضي الأزارقة بعد المُقَعْطِل يقال له الصَّموت لأنَّه لما طال صمتُه ثَقُل عليه الكلام فكان لسانُه يلتوي ، ولا يكاد يبين ". (٢) قال : " وأخبرني محمدُ بنُ الجهم أنَّ مثل ذلك اعتراه أيامَ محاربة الزُّطِّ من طول التفكُّر ولزوم الصَّمت ". (٣)

أما العلاج فيمكن اجمال ما ذكره الجاحظ منه في التدريب على الكلام وكثرة تقليب اللسان به ، ويؤخذ ذلك من أكثر ما أسلفناه من أقواله في أسباب تلك العيوب كقوله : " إذا ترك الانسان القول ماتت خواطره " الخ فإن معناه أن ممارسة القول تمنع ما يترتب على تركه ، وتعالجه إذا وقع ، وكذلك قوله : " وأيةُ جارحةٍ منعتَها الحركة ، ولم تُمرِّنها على الاعتمال أصابَها من التعقُّد على حسب ذلك المَنْع . " فإن معناه أن إتاحة الفرصة للجارحة لتتحرك ، وتمرينها على الاعتمال يمنع اصابتها بالتعقد ، ويعالج ذلك التعقد إذا وقع .

ومن صريح قوله في أسلوب العلاج هذا قوله : " اللسان إذا أكثرت تقليبه رقَّ ولانَ ". وقوله " كانوا يُرَوُّون صبيانهم الأرجاز ، ويُعلِّمونهم المُناقلات ، ويأمرونهم برَفْع الصوت وتحقيق الإعراب ، لأن ذلك يفتق اللَّهاة ، ويفتح الجِرْم ". (٤)

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٨.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) نفس المرجع ١/ ٢٧٢، ٢٧٣.

٢ : اللُّثْغَةُ :

اللُّثْغَةُ هي أن يعدل بحرف إلى حرف بغير عُجْمة. ولقد تكلم الجاحظ كثيرا عن هذا العيب وبين الحروف التي تدخلها اللُّثْغَة وهي : لُثغَة تَعْرِض للسين فتكون ثاء ،ولُثغة تَعْرِض للقاف فتكون طاء ،ولُثْغَة تَعْرِض للام فتكون ياء ،أو كافا . ولُثْغَة تَعْرِض للراء فتكون ياء ،أو ذالا ، أوغينا ،أوظاء .

ومن الملاحظ أن الجاحظ لم يذكر أسباب هذا العيب ولعل ذلك راجع إلى أن اللُّثغة تكون خِلْقَة أوجدها الله في بعض الناس ،وليست راجعة إلى أى سبب من الأسباب ،كما في الحُبْسة والعُقْلة والحَصَر واللَّفف.

أما من ناحية العلاج فنجده أيضا لم يذكره أو يتحدث عنه ،إلا من ناحية اللُّثْغَة التي تكون في بعض الناس سهلة يستطيع أن يتغلب عليها إذا ما حاول واجتهد . ومن ذلك اللُّثْغَة التي على الغين فهي أيسرها. قال الجاحظ : " فأَمَّا التي على الغين فهي أيسرهُنَّ ،ويقال إنَّ صاحبَها لو جَهَد نفسَه جَهْدَه ،وأَحَدَّ لِسانَه ،وتكَلَّف مَخرج الراء على حقِّها والإ فصاح بها ، لم يَكُ بعيدا من أن تُجيبه الطبيعة ،ويؤثِّر فيها ذلك التعهُّد أثراً حسناً.

وقد كانت لُثْغَة محمَّد بن شبيبٍ المتكلِّمُ بالغَين ،وكان إذا شاء أن يقول عَمْرو ، ولعمرى ، وما أشبه ذلك على الصحَّة قاله ،ولكنه كان يستثقل التكلُّف والتهَيُّوءَ لذلك ،فقلت له : إذا لم يكن المانعُ إلا هذا العُذْرَ فلستُ أشكُّ أنك لو احتملتَ هذا التكلُّفَ والتتبُّعَ شهرا

واحداً أنَّ لسانك كان يستقيم ". (١)

فهو هنا قد بيَّن أن اللُّثغة التي على الغين هي أيسر اللَّثغات ويستطيع الشخص المصاب بها أن يعالجها بنفسه ، وذلك بأن يجتهد ويغالب نفسه ويتكلف حتى يستقيم لسانه . فعلاج هذا الأمر يحتاج إلى طول تدريب وتحمل حتى يستقيم اللسان . قال الجاحظ :

إن اللُّثغة التي تكون على الغين "وهي أقلُّ اللَّثغات قبحا وأوجدُها في ذوِي الشرف وكبار الناس وبُلغائهم وعلمائهم ". (٢)

كما ذكر "أن اللُّثغة في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهُنَّ وأوضَعُهنَّ لذى المروءة ، ثم التي على الظاء ، ثم التي على الذال". (٣)

أما بالنسبة للُثغةِ واصل بن عطاء فقد ذكر الجاحظ أن واصل حينما وجد أنه فاحش اللَّثغ ،وأنَّ مَخرج ذلك منه شنيع أراد أن يُسقط الراء من كلامه ،وإخراجَها من حروفِ منطِقِه ،فلم يزل يُكابِد ذلك ويغالبُه ويناضله ،حتى انتظم له ما حاول واتَّسق له ما أمَّل ". (٤)

وهذا العمل الذى فعله واصل بن عطاء لا يعتبر علاجا للثغة ، وإنما هو حسن تخلص من أمر يكرهه ويشينه وهو على ما هو من مكانة وزعامة .

----

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٦ .
(٢) انظر نفس المرجع ١/ ٣٧ .
(٣) انظر نفس المرجع ١/ ٣٦ .
(٤) انظر نفس المرجع ١/ ١٤-١٥

وبذكرى لهذه القصة أردت أن أُبيّن أن الاجتهاد والمثابرة على التخلص من عيب من العيوب ممكن لو اجتهد الشخص في ذلك وناضل ، وهذا الشيء يؤيد ما قاله الجاحظ من أن على الانسان أن يحاول ويجتهد حتى يتغلب على لثغة الراء التي تكون بالغين لأنها كما قال : أيسرهن.

ويمكن أن يدخل في العلاج أيضا إلى جانب التدريب على تقليب اللسان بالكلام ما ذكره الجاحظ عن الثقة بالنفس ،فالتدريب على الكلام والتزود بالثقافة والفكر ،عامل مهم للثقة بالنفس. وهذا العلاج ينفع بالنسبة للعيوب التي يسببها الخوف ورهبة موقف الكلام . قال الجاحظ : " وإنَّما يجترئ على الخُطبة الغِرُّ الجاهل الماضي ،الذى لا يثنيه شيء أو المطبوع الحاذق الواثقُ بِغَزَارته واقتداره ، فالثِّقة تنفِي عن قلبه كلَّ خاطرٍ يُورِث اللَّجْلَجَة ،والنَّحْنَحَة ،والانقطاعَ ،والبُهْر ،والعَرَق ".(١)

فتدريب الشخص الفاقد الثقة بنفسه على الكلام والتزود بالثقافة والمعرفة يُربي لديه حصيلة غزيرة منهما ، فذلك يبث الثقة في نفسه فلا يعتريه الخوف الذى يسبب اللَّجْلَجَة والانقطاع والبُهْر والعَرَق والنَّحْنَحة.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ١٣٤.

الفصل الثالث : إضافات الجاحظ في كلامه عن عيوب النطق .

الفصل الثالث

إضافات الجاحظ في كلامه من عيوب النطق

لم تقتصر إضافات الجاحظ وجهوده على جانب الأصوات اللغوية فقط بل تعدتها أيضا إلى الإضافات في مجال عيوب النطق . وسيكون الحديث في ذلك مشتملا على أمرين :

الأمر الأول : إضافته بالنسبة للعيوب التي ذكرها ولم يذكرها من قبله .

الأمر الثاني : إضافته بالنسبة للتفاصيل التي ذكرها عن العيوب ولم يذكرها من قبله ،كالتعريف ،والسبب ،والعلاج ،والأثر ، (أى أثر هذا العيب في الكلام والإلقاء) .

وأول هذه الإضافات هي :

العِيّ :

لقد تعرض الجاحظ للعيّ في أكثر من موضع في كتابه البيان والتبيين ،ولقد اعتبرناه من العيوب العامة . وأشرنا إلى أن الجاحظ قد ذكر أسبابه وعلاجه.(١)

أما الأصمعي وثابت فلم يذكرا العي ،وإنما ذكرا بعض الصور التي تنضوى تحته ،كالخَرَس ،والحُكْلة ،واللفَف . . . وغيرها .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٩، ٢٧٢ ،وانظره أيضا في رسالتنا هذه ص ٢٢٧- ٢٨٤.

الحَصَر :

أسلفنا أن الحَصَر عيب عام يشمل صوراً كثيراً[1] . ونلاحظ أن الأصمعي وثابتا قد ذكرا بعضا من هذه العيوب أو الصور إلا أنهما لم يشيرا إلى الحَصَر في كلامهما عن هذه العيوب .

أما الجاحظ فقد تكلم عنه إلا أنه لم يُعرِّفه . كما تكلم عن أسبابه وعلاجه[2] ، وأثره السيء على المصاب من ناحية النطق والتعبير عن الفكرة ،حيث ذكر الجاحظ أن عيوب النطق الأخرى كاللَّجْلَجَةِ والتَّمْتَمةِ والفَأْفَأَةِ . . . وغيرها أفضل من الحَصَر ، وخصوصا إذا تكلف صاحبه مقامات الخطباء[3] . وذلك لأن حَصَره يمنعه من النطق أو التعبير عن الفكرة التي يريد توضيحها .

اللُّثْغَةُ :

ذكرها الأصمعي وثابت ضمن آفات اللسان ،إلا أنهما لم يُفصِّلا القول فيها .[4] أما الجاحظ فقد تكلم عنها بالتفصيل وبيَّن الحروف التي تدخلها اللُّثغة والأشخاص الذين عُرفوا بها .. إلى جانب ذكره لجانب من جوانب العلاج وهو التدريب والاجتهاد في التغلب عليها .[5]

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٢٦.
(٢) انظر ما قيل سابقا عن الحصر في رسالتنا هذه ص ٢٣٣ - ٢٨٤.
(٣) انظر البيان والتبيين ١/ ٣ ، ٤ ، ١٢.
(٤) انظر ما سبق ص ٢٢٠.
(٥) انظر البيان والتبيين ١/من ٣٤ الى ٣٧ وانظر ما سبق ص ٢٣٦- ٢٨٧.

العُقْلَـــة :

عرّفها الجاحظ بقوله : " ويُقال في لِسَانِه عُقْلة ،إذا تَعَقَّل عليه الكلام ". ولقد سبق أن ذكرنا أسباب هذا العيب وعلاجه عند الجاحظ.(١)

أما الأصمعي وثابت فلم يشيرا إليها ولا لأسبابها وعلاجها .

دقـــة الصوت (الصَّئي) :

والمراد به دقة الصوت وضعفه ، وعبر عنه الجاحظ بدقة الصوت ولم يذكر أسبابه وعلاجه ،وإنما اكتفى ببيان كره العرب له وذمهم لصاحبه.(٢)

أما الأصمعي وثابت فلم يذكرا شيئا عنه .

الحُبْسَـــة :

عرفها الجاحظ بقوله : " ويُقال في لِسانه حُبْسه ، إذا كان الكلام يَثْقُل عليه ، ولم يبلغ حَدّ الفأفاء والتّمْتام " . وقد أسلفنا أن الجاحظ قد ذكر أسبابها وعلاجها.(٣) أما الأصمعي وثابت فلم يشيرا إليها في أثناء حديثهما عن عيوب النطق .

---

(١) البيان والتبيين ٣٩/١ ، ٢٧٢ ، وانظر أيضا في رسالتنا هذه ص ٢٤٠ - ٢٨٥.

(٢) نفس المرجع ٣٩/١ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ٢/٥٧. وانظر ما سبق ص ٢٤٣.

(٣) نفس المرجع ٣٩/١ ،وانظر ما قيل سابقا ص ٢٤٣- ٢٨٥.

الطَّبَقُ :

مظهر من مظاهر العِيّ ذكره الجاحظ في قوله : "طَبَاقاء ، يقال للبعير إذا لم يُحْسِن الضِّراب : جمل عياياء ، وجمل طَبَاقاء . وهو هاهنا للرجل الذى لا يتجه للحُجْة ".(١)

ونجد أن الجاحظ لم يذكر أسبابه وعلاجه .

أما الأصمعي وثابت فلم يذكرا شيئا عنه .

الفَهه : (٢)

ذكره الجاحظ في كتابه البيان والتبيين دون أن يُعرِّفه أو يذكر أسبابه وعلاجه . ولقد قمنا نحن بتعريفه وتوضيح معناه .

أما الأصمعي وثابت فلم يتعرضا له ولم يشيرا إليه أبدا .

---

(١) نفس المرجع ١/٣ الى ٧ ، ٠١٠٩ وانظره أيضا في رسالتنا هذه ص٢٥٤

(٢) نفس المرجع ١/ ١٣١ ، ٢٤١ ، ٣/ ٠٣٨ وانظره أيضا في رسالتنا هذه ص٢٥٨

الرَّطَانَة :

ذكره الجاحظ في كتابه دون أن يُعَرِّفه وذلك في قوله :"وأهل هذه اللُّغة وأربابُ هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم ، كما لا يعرفون رَطانة الرُّومي والصَّقلبي ".[١]

ولقد قمنا نحن بتعريفه وتوضيح معناه ،[٢] دون ذكر الأسباب والعلاج وذلك لعدم ذكر الجاحظ لها .

أما بالنسبة للأصمعي وثابت فلم يشيرا إليها .

اللَّفف :

عَرَّفَه القدماء ،إلا أنهم لم يُفَصِّلوا القول فيه .[٣] أما الجاحظ فقد وضح معناه وفَصَّل القول في أسبابه وعلاجه وأثره السيء على النطق ، وبيان عدم قدرة صاحبه على الإبانة .[٤]

اللُّكْنَة :

عرَّفها الجاحظ بقوله : " ويُقال في لِسانه لُكْنَة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب ،وجذبت لسانَه العادة الأولى إلى المخرج الأول ".[٥]

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ١٦٢.

(٢) انظر ما قيل سابقا في رسالتنا هذه ص ٢٦٠.

(٣) انظر ما قاله الأصمعي وثابت عن اللفف في رسالتنا هذه ص ٢٢١.

(٤) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٨ ،وانظر ما قيل سابقا عن اللفف ص ٢٦٣ - ٢٨٥.

(٥) نفس المرجع ١/ ٤٠.

ومن الطبيعي أن لا يذكر الجاحظ أسباب هذا العيب وعلاجه، لأنه ليس ناتجا عن مرض عضوي أو نفسي.

ونجد أن الجاحظ قد فَصَّل في هذا العيب وذكر الحروف التي تدخلها اللُّكْنة، والناس الذين اشتهروا بها.(١)

العَجَلةُ :

ذكرها الجاحظ مكتفيا بمعنى اسمها عن تعريفها،(٢) وهو يريد بها سرعة الكلام لدرجة الإبهام وعدم الوضوح. وهي لا ترجع إلى أسباب عضوية، ولم يذكر الجاحظ أسبابها وعلاجها.

أما الأصمعي فقد أشار إليها ضمن بيت من الشعر دون أن يَعُدَّها ضمن العيوب كما فعل الجاحظ.(٣)

ونخلص من ذلك كلّه إلى أن إضافات الجاحظ في هذه العيوب كانت إما من ناحية ذكره للعيب دون ذكر السابقين له، أو تعريفه لبعض العيوب، أو ذكره للأسباب والعلاج، أو تفصيله في الكلام عنه دون غيره من الذين سبقوه وإما من ناحية بيان أثر هذا العيب في النطق والإلقاء، ولذلك اعتبرنا هذه العيوب مما أضافه الجاحظ.

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٦٣.
(٢) انظر البيان والتبيين ١/١٢، ٣٩. وانظر ما قيل سابقا عن العجلة ص ٢٦٨.
(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٩.

الفصل الرابع : تقويم كلام الجاحظ عن عيوب النطق .

الفصل الرابع

تقويم كلام الجاحظ عن عيوب النطق

نقدم هذا الفصل تقويما لما ذكره الجاحظ عن عيوب النطق وأسبابها وعلاجها. وسنحتكم في هذا التقويم إلى كلام الرئيس أبي علي الحسين بن سينا (ت ٤٢٨هـ) باعتداده أحد عظماء الأطباء وعلماء النفس في العصور الوسطى، وإلى كلام علماء النفس المحدثين، وذلك لنتبيّن مدى سبق الجاحظ، وصدق نظراته في مجال الكلام عن عيوب النطق.

أولا : كلام الرئيس ابن سينا عن عيوب النطق.

تحدث الرئيس أبو عليّ بن سينا عن عيوب النطق في كتابه (القانون) في معرض حديثه عن الفم واللسان وبيان تشريحهما، حيث ذكر الآفات التي تصيبهما وعلاجها عنده.

والذى نلحظه على ابن سينا أنه لم يتحدث عن العيوب النطقية كوِحْدَةٍ واحدة، بل قسم الأمراض التي تصيب اللسان إلى فصول، وكل فصل يندرج تحته بعض من العيوب.

وقد قدم قبل ذلك حديثا عن الفم واللسان وبيان أفضل الألسنة في الاقتدار على الكلام الجيد الخالي من العيوب، حيث قال عن الفم :

" هو الوعاء الكُلي لأعضاء الكلام في الإنسان والتصويت في سائر الحيوانات المصوّتة من النفخ. واللسان عضو منه وهو من آلات تقليب

الممضوغ وتقطيع الصوت وإخراج الحروف وإليه تمييز الذوق ".(١)

أما بالنسبة لأفضل الألسنة في الاقتدار على الكلام الجيد فقد قال : " وأفضل الألسنة في الاقتدار على جودة الكلام ، المعتدل في طوله وعرضه المستدق عند أسلته ".(٢)

أ : أمراض اللسان :

قال ابن سينا : " قد يحدث في اللسان أمراض تُحدِث آفة في حركته إما بأن تبطل أو تضعف أو تتغير . . . وقد يكون المرض سوء مزاج وقد يكون آليا من عظم أو صغر أو فساد شكل أو فساد وضع ، فلا ينبسط أو لا ينقبض ، أو من انحلال فرد وقد يكون مرضا مركبا كأحد الأورام وربما كانت الآفة خاصة به وربما كانت لمشاركة الدماغ ".(٣)

وهكذا نراه يتحدث عن عِظم اللسان ، وصغره ، وفساد شكله ووضعه بحيث لا ينبسط أو لا ينقبض ، باعتداد كل تلك من آفات اللسان .

ولعلنا نلحظ الصّلة الوثيقة بين كلامه عن عظم اللسان وعن عدم انبساطه وعدم انقباضه ، وبين ما ردده الجاحظ كثيرا من الكلام عن ثقل اللسان وثقل حركته وجساوته وقلة مرونته .

----

(١) انظر الكتاب الثالث من القانون في الطب لابن سينا ٢ / ١٧٥ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) نفس المرجع والصفحة .

ولبّ الكلام هنا هو لبّه هناك والفرق بينهما أن كلام الجاحظ كلام أديب وكلام ابن سينا كلام طبيب.

والعيوب النطقية التي تحدث عنها ابن سينا تنقسم إلى فصول هي :

١ - حديثه عن استرخاء اللسان وثِقَله وما ينتج عن ذلك من خلل في الكلام وذلك في قوله : " وقد يبلغ الاسترخاء باللسان إلى أن يعدم الكلام أو يتعسر أو يتغير ومنه الفَأْفَاء والتَّمْتَام ومن الصبيان من تطول به مدة العجز عن الكلام ومن المتعتع في كلامه من إذا عرض له مرض حار انطلق لسانه لذوبان الرطوبة المتعتعة للسان المحتبسة في أصول عصبه ولمثل هذا ما يكون الصبي ألثغ ،فإذا شبّ واعتدلت رطوبته عاد فصيحا ".(١)

وكلام الرئيس ابن سينا واضح إلا أننا نلحظ ارجاع بعض أنواع اللُّثْغَة إلى زيادة رطوبة بدن الطفل . ومن ثم لسانه فإذا بلغ واعتدلت رطوبته فصُح لسانه.

<u>أسباب الاسترخاء :</u>

لقد ذكر ابن سينا أن الاسترخاء في اللسان وثقله راجع إلى رطوبة دموية مائية ، قد يكون لسبب في الدماغ ،أو العصبة المحركة

----

(١) انظر (القانون في الطب) ١/١٧٧.

له الجائية منها إليه . والذى يدل على أن المادة دموية حمرة اللسان وحرارته قد يدل على أن المادة رقيقة مائية كثرة سيلان اللعاب.(١)

كما ذكر أن "اتصال عصبة اللسان بعدّة أعصاب لا يخلو إما أن تكون تلك الأعصاب مواتية لها في الحركة لا تعاوقها فيكون حال أصحاء الكلام ، وإما أن تعاوقها ولا تواتيها بسهولة فيكون التَّمْتَمة ونحو ذلك وربما وقعت التَّمْتَمة من الحُبْسة بسبب أن العصب تستقى القوة من عصب آخر فينحبس إلى أن يتجه".(٢)

العلاج :

لو نظرنا إلى العلاج عند ابن سينا لوجدنا أنه يعتمد في علاجه دائما على :

١ - العلاج الطبي بالأدوية والغراغر والدّلك بالمراهم والأدوية ، حيث ذكر بأنه " إذا اشتد الاسترخاء وامتنع الكلام فيؤخذ شيء من الاوفربيون وكندس ويُدَام دَلْك اللسان وأصله به ، كما توضع على الرقبة أيضا ".(٣)

٢ - التدريبات والتمرينات للسان ، وذلك بإدامة تحريكه وتدليكه. مع إجبار المصاب على الكلام حتى يتعود على الكلام وتحريك اللسان .(٤)

---

(١) انظر القانون في الطب ٢/١٧٧.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) نفس المرجع والصفحة.

٢ : أمراض أخرى :

تحدث ابن سينا عن أمراض أخرى للسان تُحدِثُ ضررا في الكلام منها تشنج اللسان ، وعظمه ، وقصره ، وورمه . . . وقد بيَّن لكل من تلك الآفات اللِّسانية سببها وعلاجها ، ومما ذكره من علاج التشنج الغرغرة بأدوية مُعَيَّنة ، ولعِظَم اللسان الدَّلْك ببعض الأدوية كما ذكر عِدَّة أدوية لورم اللسان . أما قصر اللسان (وهو من أسباب اللَّثغ) فذكر أن سببه اتصال الرباط الذى تحته برأس اللسان وطرفه فلا يدع اللسان ينبسط ، وأن علاجه يكون بقطع ذلك الرِّباط من طرفه قليلا - بحيث يستطيع المريض أن يمد لسانه إلى أعلى الحنك ، وأن يخرجه من الفم .

فإن خيف كثرة نزف الدم اكتفى بخرم الرباط بدل قطع طرفه .(١)

٣ : اجمال أسباب أمراض الكلام :

أجمل ابن سينا - في موضع آخر من القانون - أسباب الخلل في الكلام بأنه قد يكون سببه " آفة في الدماغ ، وفي مخرج العصب الجائي إلى اللسان المحرك له ، فقد يكون في نفس الشعبة وقد يكون في العضل نفسها وذلك الخلل إما تشنج وإما تمدد أو تصلب أو استرخاء أو قِصر رباط أو تعقد من جراحة أو ورم صلب ، وقد يكون من رطوبة أو يبوسة .

---

(١) انظر القانون لابن سينا عن تشنج اللسان ٢/١٧٧ ، وعن عظمه ٢/١٧٨ ، وعن قصره ٢/١٧٨ ، وعن ورمه ٢/١٧٨ .

وقد تكون الآفة في الكلام نتيجة قروح تعرض في اللسان ونواحيه وقد تكون الآفة في الكلام بسبب عضل في الحنجرة إذا كان فيه تمدد واسترخاء ".(١)

وبعد ، فإن أهم ما يلفتنا هنا هو تحدث الطبيب ابن سينا عن كثير من عيوب النطق التي ذكرها الجاحظ بعينها ،ثم ذكره في علاج تلك العيوب وسائل مما ذكره الجاحظ كالتدريب الذى ذكره في معالجة استرخاء اللسان ، وكذلك التدليك والغرغرة التي ذكرها بالنسبة لعظم اللسان وتشنجه وورمه. والتدليك والغرغرة شبيهان بالتدريب والتمرين.

وذلك كله يدل على ما كان للجاحظ من بصيرة نفاذة ،وتقدير صائب للأمور في هذا الباب.

ثانيا : كلام علماء النفس المحدثين عن عيوب النطق :

من خلال الاطلاع على ما أُتيح من دراسات علماء النفس المحدثين يتبين أن أكثرهم -على ما قال الدكتور مصطفى فهمي-(٢) يقسمون اضطرابات الكلام وعيوب النطق إلى قسمين رئيسيين :

---

(١) انظر القانون ١/١٧٩.

(٢) الدكتور مصطفى فهمي يُعدّ من رواد علماء النفس المحدثين في مجال أمراض الكلام.

١)- عيوب ترجع العلة فيها إلى أسباب أو عوامل عضوية ،كوجـود عيب في الجهاز الكلامي أو السمعي ،أو النقص في القدرة الفطرية العامة (الذكاء) ،فيحدث نتيجة لذلك عيب في النطـق أو احتباس في الكلام أو نقص في القدرة التعبيرية.

٢)- عيوب ترجع العلة فيها إلى أسباب وظيفية ،وهنا نجد أن المصاب لا يشكو أي نقص عضوي في الجهاز الكلامي أو السمعي.(١)

وبما أن هذا التقسيم يتفق إلى حد كبير مع تصنيفنا الأول للعيوب عند الجاحظ ،فسنمر مرًّا سريعا على عيوب النطق التي تناولها علمـاء النفس المحدثون وتناولها الجاحظ قبلهم .

----

(١) انظر كتاب (أمراض الكلام) للدكتور مصطفى فهمي ص ٢٩ ، ط/ الثالثة ،دار مصر للطباعة ،وكتاب (سيكلوجية المرضى وذوى العاهات) د. مختار حمزة ص ٢٢٨، ط/ الثانيـة ، دار المعارف بمصر ،القاهرة ج ٠ م ٠ ع ٠

وهناك تقسيم آخر انظر كتاب (أمراض الكلام) د. مصطفى فهمي ص ٢٩ ،٣٠. ط/ الثالثة ، دار مصر للطباعة.

وانظر كتاب (علم اللغة النفسي) د. عبد المجيد سيد أحمد منصور . الناشر : عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الملك سعود الرياض عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

أ) - العيوب التي اتفق فيها الجاحظ والمحدثون وهي كالآتي :

العِيُّ :

إن من مظاهر العِيّ بعض من عيوب النطق والكلام الناتجة عن نقص في القدرة الذهنية ،أو النقص العقلي . الذى يشتمل على ضعف في قدرة المصاب على اكتساب اللغة مع عجز والتواء في طريقة النطق . وأيضا يشتمل على عدم الاستعمال الصحيح للغة ، وحصول الألفاظ اللغوية قليلة ويرجع ذلك إلى أن لديه مجموعة ضئيلة من الأفكار.(١)

ومن مظاهر العِيّ أيضا بعض أنواع الحُبسة أو الأفيزيا التي تتصل بفقد القدرة على التعبير بالكلام أو بالكتابة ،أو عدم القدرة على الفهم.(٢)

ويرى الجاحظ أن العِيّ يشتمل على العجز عن الكلام بصورة ما ،فهو يعني العجز الحقيقي الكلي عن الكلام لعلة بدنية أو نفسية وقد يطلق أيضا على العجز غير الحقيقي المؤقت لحرج أو خجل أو ذهاب الفكرة أو العبارة . ويطلق أيضا على العجز الجزئي ،كالأداء المعيب من لُثغة وحُبسه وتأتأه وفأفأة . . . على سبيل المبالغة في وصفها . وعلى هذا فإن العِيّ يصلح عنوانا عاما لكل عيوب النطق والأداء اللغوى.(٣)

---

(١) انظر (أمراض الكلام) د . مصطفى فهمي ص ٨٧ ، ٨٨ ط/الثالثة.

(٢) انظر نفس المرجع ص ٨٥ ،والصحة النفسية د .حامد زهران ص ١٤٥ .

(٣) انظر ص ٢٢٧ في هذه الرسالة .

أما أسباب العي وعلاجه فهي نفس أسباب الضعف العقلي باعتباره مظهرا من مظاهر العِيّ(١). وكذلك بالنسبة للحُبْسة .

العُقْلَـة :

عَرّفوها بأنها عقدة اللسان أو اعتقاله وامساكه بحيث يعجز المريض من تلفظ المقطع أو نطق الكلمة إلا بعد جهد ومشقة "(٢) وقد مرَّ بنا قول الجاحظ عنها "ويقال في لسانه عُقْلة إذا تعقل عليه الكلام ".(٣) وقد أسلفنا أن الجاحظ ذكر سببها من ترك تحريك اللسان بالكلام وما إليه وأن علاجها يكون بتحريك اللسان والإكثار من تقليبه بالكلام حتى يَـرِقَّ ويلين. هذا بينما لم يتعرض المحدثون للأسباب ولا للعلاج . وهذه درجة للجاحظ عليهم .

التلعثم :

وقد عَرّفوه بالتردد في نطق الحروف أو تكرار مقاطعها (٤)، وواضح من تَعْرِيفِهَا أنها تشمل صورا ذكرناها باسم التَّمْتَمَة والفَأْفَأة واللَّجْلَجة. وهذا أيضا يؤخذ من كلام الجاحظ (٥) وقد لحظه بعض المحدثين

----

(١) انظر (أمراض الكلام) د. مصطفى فهمي ص ٩٨، ٩٩ ، وكتاب سيكلوجية المرض د. مختار حمزة ص ٢٤٩ ، ٢٥٠.

(٢) الصحة النفسية د. حامد زهران ١٤٦.

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩.

(٤) الصحة النفسية د. حامد زهران ١٤٧.

(٥) قال الجاحظ : إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام ، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء (البيان والتبيين ١/٣٧).

ذلك أيضا (١) ،وقد توسع المحدثون في الكلام عنها ،وأرجعوها إلى سببين: عصبي و نفسي .(٢)

التَّمْتَمَةُ :

عَرَّفها بعض المحدثين بما يقرب من تعريف القدماء فقالوا : هي التردُّد في نطق حرف الفاء والميم "(٣) وبعضهم عممها في تكرار الحروف أيا كانت (٤) ، وقد حظي هذا العيب باهتمام علماء النفس المحدثين .(٥)

الحُبْسَة أو الأفيزيا :

اصطلاح الأفيزيا يشمل صورا كثيرة (٦) منها صور عرفناها في كلام الجاحظ ينطبق عليها تعريف الحُبْسة و تشمل الرُّتة واللَّجْلَجة والتَّمْتمة والفَأْفَأة . وهي من العيوب التي حظيت باهتمام المحدثين.(٧)

العُقْدة :

إن ارجاع المحدثين سبب العُقْدة إلى حالة الحبال التي تربط اللسان بموءخرة قاع الفم (٨) يذكرنا بما قاله ابن سينا عن اللُّثغة .

----

(١) انظر سيكولوجية المرضى وذوى العاهات د . مختار حمزة ط/ ٢ ، ٢٢٩ .

(٢) انظر علم اللغة النفسي د . عبد المجيد سيد أحمد منصور ص ٢٨٨ .

(٣) انظر الصحة النفسية د . حامد زهران ١٤٧ .

(٤) انظر سيكولوجية المرضى وذوى العاهات ٢٤٤ .

(٥) انظر مثلا المرجع السابق ٢٤٤-٢٤٩ .

(٦) انظر (أمراض الكلام) د . مصطفى فهمي ٨٥ ، والصحة النفسية د . حامد زهران ١٤٥ .

(٧) انظر (أمراض الكلام) ٥٨ - ٦٧ ،والصحة النفسية د . حامد زهران

(٨) انظر سيكلوجية المرضى وذوى العاهات د . مختار حمزة ٢٣١ .

الفَأْفَأة :

عرّفوها - كالقدماء - "بالتردد في نطق الفاء"[١] وجعلها بعضهم من صور التلعثم.[٢]

اللَّجْلَجة أو التَّهتهة :

عَرّفوها بأنها التردُّد في الكلام وأنه لا يكاد يخرج من الفم[٣] وهذا يتفق مع تعريف القدماء ،ولكن المحدثين توسعوا في دراستها تشخيصا وعلاجا حتى صارت هناك نظريات متعارضة فيها[٤] . وقد توسع د. مصطفى فهمي في الكلام عنها ،وعما عالجه من حالاتها.[٥]

اللَّفَف :

عَرّفوه كما عَرّفه الجاحظ بتداخل الكلام بعضه في بعض.[٦] إلا أنهم لم يعرضوا لأسبابه ولا لعلاجه ، بينما عرض الجاحظ لذلك كما مرّ بنا.[٧]

---

(١) الصحة النفسية د. حامد زهران ١٤٧.

(٢) انظر علم اللغة النفسي د. عبدالمجيد منصور ٢٨٨.

(٣) الصحة النفسية د. حامد زهران ١٤٦.

(٤) انظر (أمراض الكلام) د. مصطفى فهمي ١٢٩ ومابعدها.

(٥) انظر المرجع السابق ص ١٤٢- ١٥٦ ثم الى ١٨٨.

(٦) انظر الصحة النفسية د. حامد زهران ١٤٧.

(٧) انظر ص ٢٨٥ في هذه الرسالة .

اللُّثْغَةُ :

وهي من عيوب إبدال الحروف ، وقد توسع المحدثون في تناولها كما توسع الجاحظ ،إلا أنهم أضافوا حروفا ، يقع فيها الإبدال لم يذكرها الجاحظ كإبدال السين شينا أو دالا ،والهمزة عينا ،والراء همزة ،والكاف تاء ،والغين خاء ،والراء تاء ،والصاد تاء.(١) كما أنهم خصوا إبدال السين ثاء أو شينا أو دالا باسم الثأثأة (٢) . وقد ذكر الجاحظ إبدال القاف طاء ،واللام كافا ،والراء ذالا ،أو ظاء(٣) ولم يذكرها المحدثون.

أما عن أسبابها فقد ذكر بعضهم أسبابا عضوية كالخلل في حجم الأسنان أو انتظامها ،وأسبابا نفسية ،ولم يفطنوا إلى ما ذكره ابن سينا عن الأربطة التي تربط اللسان إلى قاع الحنك.

وأما عن العلاج فقد اهتموا به وذكروا منه إزالة ما يكون في الأسنان من تشوه ،كما ذكروا منه التدريب على التحكم في اللسان ،وعلى نطق الحروف موضع اللثغة نطقا صحيحا (٤) . وكلامهم عن التدريب هذا سبقهم به الجاحظ .

---

(١) انظر علم اللغة النفسي د. عبد المجيد سيد أحمد منصور ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) انظر الصحة النفسية د. حامد زهران ١٤٦.

(٣) انظر كلام الجاحظ عن اللثغة في ما سبق هنا ص ٢٣٦.

(٤) انظر أمراض الكلام د. مصطفى فهمي ١٢٤-١٢٥ ،سيكولوجية المرض د. مختار حمزة ٢٢٩ ،صحتك في فمك وأسنانك ،د. مدحت فريد ٢٢١ ،وقد ذكر د. عبد المجيد سيد أحمد منصور في علم اللغة النفسي ٢٨٩-٢٩٠ أن شيوع الخطأ في نطق الكلمات والحروف كما في الابدال المرضى هذا راجع الى تقارب الحروف في المخارج والصفات . وهذا التقارب لا تختص به العربية.

اللُّكْنَةُ :

عرّفها المحدثون بأنها إبدال الحاء هاء والعين همزة (١) .

ويوضح قصور هذا التعريف أن الجاحظ عرّفها بما هو أشمل وأدق ، يقال في لسانه لُكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول (٢) فهي مما يقع للعجم في نطقهم العربية ومما ذكر منها إبدال الجيم زايا في مثل الزمل (أى الجمل) ، والزاى سينا في مثل سورق (زورق) والسين شينا والطاء تاء ، في مثل الشلتان (السلطان) ، والشين سينا في مثل ما سعرت (أى ما شعرت) ، والقاف كافا في كلت لك (قلت) ، والذال دالا في مثل الجردان (الجرذان) بل وتشمل الخطأ في نطق الحركات أحيانا كقوله تَلد بفتح اللام بدل كسرها . (٣)

وإذا كان سبب اللُّكنة يؤخذ من تعريف الجاحظ لها وهي انجذاب لسان الأعجمي - عندما ينطق العربية - إلى ما اعتاده في نطق لغته الأولى ، وعلاجها يؤخذ مما ذكره عن كثرة التدريب والتمرين ، فإن هذا يُعَدُّ سبقا له لم يلحقه فيه المحدثون حيث لم يتعرضوا لأسباب اللُّكنة أوعلاجها .

---

(١) الصحة النفسية د. حامد زهران ٤٧ ، كما عرفها أيضا حسين خضر في كتاب علاج الكلام ص ٣٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٤٠ .

(٣) انظر ما سبق هنا في الكلام عن اللُّكنة ص ٢٦ .

الحُكْلة والصِّئِيّ :

ذكر المحدثون من عيوب النطق اضطرابات الصوت " وتشمل هذه الاضطرابات الإخفاق في إخراج الصوت مرتبا مقبولا وواضحا حسبما تتطلبه الظروف ، ومثال ذلك خشونة الصوت ، والمبحوح منه ، أو انخفاضه وضعفه ، أو حدّته ، أو اخراجه عن طريق الأنف " (١) ولم يخصصوا لكل من هذه الاضطرابات اسما . وبمراجعة ما ذكرنا قبلا عن الحُكْلة من خفاء الصوت بحيث لا يبين لانخفاضه وضياع بعض مقاطعه يتبين أنها تدخل ضمن ما سموه اضطرابات الصوت ، وكذلك الأمر في الصِّئِيّ فقد ذكروا من صور هذه الاضطرابات الارتفاع غير الكافي بحيث يعتبر الصوت غير مرتفع بدرجة كافية بحيث يفهم بسهولة في المحادثات العادية. (٢) وهذا ينطبق على الصِّئِيّ جزئيا على الأقل .

وقد فصّل المحدثون في أسباب اضطرابات الصوت وعلاجها. (٣)

الثرثرة :

عرفها المحدثون بأنها : " كلام كثير بدون داع " (٤) وأدخلوها ضمن اضطرابات كم الكلام . أما الجاحظ فقد عرضها بالهذر ، وتعوذ من شرّها (٥) . والهذر هو كثرة الكلام في خطأ .

---

(١) انظر سيكولوجية المرض د . مختار حمزة ٢٢٩ .

(٢) نفس المرجع ٢٣٤ بتصرف .

(٣) انظر سيكولوجية المرض د . مختار حمزة ٢٢٨- ٢٣٤ .

(٤) انظر الصحة النفسية د . زهران ص ١٤٦ .

(٥) انظر ما قيل سابقا ص ١٢٨ .

الغَمْغَمَةُ :

عرّفها المحدثون بقولهم : " الغَمْغَمَةُ هي عدم تبيان مقاطع الحروف "(١) وعدّوها ضمن اضطرابات الصوت .

أما الجاحظ فقد عدّها من اللهجات .(٢)

*

ب) - العيوب التي انفرد بها الجاحظ وهي كالآتي :

الرتّة :(٣)

تحدث عنها الجاحظ ضمن عيوب النطق ،إلا أنه لم يذكر أسبابها ولا علاجها .

أما المحدثون فلم يذكروا هذا العيب ،كما لم يذكروا أسبابه وعلاجه .

---

(١) انظر الصحة النفسية د . زهران ص١٤٧ .

(٢) انظر ما قاله الجاحظ في **البيان والتبيين** ٣/ ٢١٢-٢١٣ .
وانظر رسالتنا هذه ص ٢٧ .

(٣) انظر نفس المرجع ١/ ١٢ . وانظر ص ٢٤٦ في رسالتنا هذه .

الرِّطانـة :(١)

وهي من العيوب التي تعرض لها الجاحظ في كتابه البيـان والتبيين دون أن يذكر أسبابها وعلاجها ،حيث اكتفى بتوضيح المعنى المراد منها . أما المحدثون فلم يذكروا شيئا من الرِّطانة ولا من أسبابها وعلاجها .

غَضَبُ الرِّيق :(٢)

ذكر الجاحظ أن العرب كانوا يمدحون كثرة الريق ،لأنها من الأمور المستحبة التي تساعد اللسان على الحركة بسهولة في الموضع الذي يتطلبه الحرف . ونجد أن الجاحظ لم يذكر أسبابه ولا علاجه ، بل اكتفى بذكر موضوعات أخرى لا تتصل بالأسباب ولا بالعلاج .

أما المحدثون فلم يتعرضوا لها ،ولا لأسبابها وعلاجها .

الطَّبـق :(٣)

وهو ما يُطلق على الأشياء التي لا يُحسِن المرء فعلها ،والذي يَبْتَعِدُ فيها عن الحجة.

ولقد ذكر الجاحظ هذا العيب إلا أنه لم يذكر أسبابه ولا علاجه.

أما بالنسبة للمحدثين ، فالملاحظ أنهم لم يتكلموا عن هذا العيب ، كما لم يذكروا أسبابه ولا علاجه.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١٦٢/١ ،وانظر ص ٢٦٠ في رسالتنا هذه.

(٢) انظر نفس المرجع ١٧٦/١-١٧٩-١٨٠ . وانظر ص٢٥٦ في رسالتنا هذه.

(٣) انظر نفس المرجع ١٠٩/١-١٧٦ . وانظر ص ٢٥٤ من رسالتنا هذه .

الفهـــه : (١)

الفهـه من العيوب التي ذكرها الجاحظ دون أن يُعَرِّفـه كما أنه لم يذكر أسبابه ولا علاجه.

أما المحدثون فلم يشيروا إلى هذا العيب أبدا .

وبهذا يكون الجاحظ قد تميز عن المحدثين بذكر هذه العيوب، حتى ولو بالتنويه الموجز البسيط .

جـ : العيوب التي انفرد بها المحدثون :

لقد حظيت عيوب النطق بمزيد من اهتمام المحدثين ،وأُجريت عليها دراسات موسعة نشير إليها إشارات :

١)- الأفيزيا (الحبسة) بصورها الأخرى غير التي اتفق فيهـــا الجاحظ والمحدثون .(٢)

٢) - التأخر في قدرة الأطفال على الكلام.(٣)

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ١٣١-٢٤١ . وانظر ص٢٥٨ من رسالتنا هذه .

(٢) انظر (أمراض الكلام)د . مصطفى فهمي ص٥٧ ومابعدها .
وانظر (الصحة النفسية) د . حامد زهران ص ١٤٥- ٤٩١-٤٩٢
وانظر (علم اللغة النفسي) د . عبد المجيد سيد أحمدص٣٠٢- ٣٠٥ .
و (سيكلوجية المرضى) د . مختار حمزه ص ٢٣٩ ومابعدها .

(٣) انظر(أمراض الكلام)د . مصطفى فهمي ص٤٢ الى ص٥٣ ،ص١١١.

٣)- أثر شلل الأطفال في عيوب النطق والكلام.(١)

٤)- الكلام التشنجي ،ويتمثل ذلك في "أن يكون الكلام متفجرا وبطيئا ومملا ،وقد يصحبه اضطراب في التنفس أو حركات لا إرادية ".(٢)

٥)- الكلام الطفلي . حيث " يحوى الكلمات الرئيسية دون الباقي ".(٣)

٦)- اللغة الجديدة "وهي أن يتفاهم المريض بلغة جديدة يصوغها هو ولا يفهمها إلا هو ".(٤)

٧)- قلة الكلام ،" وهو اقتضاب الكلام. ويلاحظ في الإكتئاب ".(٥)

٨)- عرقلة الكلام ،" حيث يسكت الكلام ويمتنع ويتوقف سريانه فجأة ".(٦)

٩)- بطء الكلام "وهو صدور الكلام بطيئا بدرجة ملحوظة . ويشاهد في الإكتئاب ".(٧)

١٠)- النمطية وهي "تكرار كلمات معينة ليس لها قصد واضح ".(٨)

---

(١) انظر (أمراض الكلام) د . مصطفى فهمي ص٧١ الى ص ٨٢ .

(٢) انظر (الصحة النفسية) د . حامد زهران ص ١٤٥ .

(٣) نفس المرجع ص ١٤٦ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) نفس المرجع والصفحة .

(٧) نفس المرجع والصفحة .

(٨) نفس المرجع والصفحة .

١١)- اجترار الكلام " وهو التكرار النمطي للكلمات والجمل ، والإجابة على كل الأسئلة بإجابة واحدة ".(١)

١٢)- المصاداة وهي " تكرار الألفاظ والكلام المسموع بطريقة آلية ".(٢)

١٣)- السلبية والامتناع عن الكلام .(٣)

١٤)- اضطرابات أخرى في الكلام وهي :

أ - الاندفاع في الصراخ والسباب والكلام البذيء .(٤)

ب- التحدث مع النفس .(٥)

وبهذه الموازنة بين كلام الجاحظ عن عيوب النطق وبين كلام ابن سينا عنها من ناحية ، ثم بين الجاحظ وبين علماء النفس وأمراض الكلام المحدثين من ناحية أخرى ، يتم هذا الفصل بعد أن تبينا ما سبق به الجاحظ ابن سينا والعلماء المحدثين سواء في تناول عيوب النطق أو في بيان أسبابها وعلاجها . أما ما أضافه هؤلاء بعد الجاحظ فلا يحسب لهم عليه لأنه نتاج قرون متطاولة تلت الجاحظ ، وواجب البحث العلمي أن لا يتوقف ، فإن كانوا أدّوا واجبهم فإن الجاحظ يظل محتفظا بدرجة السبق في ما سبقهم إليه .

---

(١) انظر (الصحة النفسية) د. زهران ص ١٤٦.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) نفس المرجع والصفحة .
(٥) نفس المرجع والصفحة.

الخاتمة

الخاتمـــــــة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وبعد :
فموضوع هذا البحث (دراسة الأصوات وعيوب النطق عند الجاحظ) .

وقد كان هدف هذه الدراسة مايلي :

أولا : بيان ما أسهم به الجاحظ في مجال دراسة الأصوات اللغوية ،ودراسة عيوب النطق ،وقد اقتضى تحقيق بيان ما أسهم بـــه في المجالين تمييز ما أضافه فيهما ،وتتبع ذلك عرضا سريعا لمـــا أنجز في كل من المجالين قبل الجاحظ ، كما اقتضى بيان قيمة إضافاته إلقاء نظرة سريعة على ما استجد بعده في مجال عيوب النطق خاصة ، لأنّ هذا المجال حظى بمن أولاه اهتماما خاصا وكانت له فيه إضافـــات قيمة ،وهوابن سينا المتوفي بعد الجاحظ بأقل من قرنين - فألقينـــا نظرة على عمل ابن سينا استتبعت نظرة على عمل المحدثين . أما دراسة الأصوات اللغوية فقد ظلت تدور في نطاق ما وضع بين الخليل والجاحظ فلم يكن هناك وجه للموازنة في هذا المجال .

وفي ضوء هذا الهدف ومقتضياتـــه حققت هذه الدراســـة مايلـــي :

أولا - بيان مفصل لما تعرض له الجاحظ في مجال دراسة الأصـــوات اللغويـة. ومن خلال هذا البيان استخلص البحث ما أضافه الجاحظ في هذا المجال ،وقد تمثلت تلك الإضافات فيمايلي :

بالنسبة لأعضاء الجهاز الصوتي :

١ - التصريح بدور الحنجرة في إخراج الصوت اللغوى (وذلك في صفحة ٣٢).

٢ - الربط بين حالة أعضاء جهاز النطق الإنساني من حيث سلامتها وكمالها أو إصابتها ونقصها - وبين حالة النطق اللغوى من حيث كونه سليما أو معيبا . فذكر (أثر سعة الحنجرة ، الحلق ، الفم ،الأشداق ، طول اللسان وقصره ومرونته ،سلامة الأسنان واستوائها أو سقوطها واختلاف نبتتها حالة الشفتين ،حالة الخياشيم).

٣ - إبراز دور ما سمي - فيما بعد - الصناديق الرنانة (تجويف الحلق ،والفم). (من ص ٣٣ الى ص ٥٠).

٤ - بيان أثر مرونة أعضاء الجهاز الصوتي وحسن التدريب في تحسين الأداء . (ص ٥٣ الى ص ٥٥).

بالنسبة للأصوات اللغوية كانت الاضافات في :

١ - كلمته عن الضاد (ص ١١٦).

٢ - ما تختص به العربية من الأصوات (ص ١١٧).

٣ - تنافر الكلمات (ص ١١٨).

٤ - إمكانات الجهاز الصوتي الإنساني (ص ١١٨).

٥ - الحروف الاكثر دورانا في اللغة ومنهج إحصاء هذه الحروف (ص ١٢٣).

٦ - الامتحانات الصوتية (ص ١٣٨).

٧ - بعض الدراسات المقارنة في الأصوات (ص ١٤٠).

٨ - إيحاءات الأصوات (ص ١٤٢).

٩ - تعليل تنوع الأصوات اللغوية وكثرة الألفاظ (ص ١٤٤).

١٠- العلة في صعوبة بعض اللغات وسهولتها (ص ١٤٦).

١١- أثر التدريب في تعلم اللغة (ص١٤٨).

١٢- اهتمام الجاحظ بأصوات الحيوانات (ص ١٥١).

١٣- دراسة الجاحظ للصوت دراسة طبيعية (ص ١٧٤).

١٤- وضعه لأسس علم الأداء الصوتي (ص ١٨٢).

ثانيا - بيان مُفَصَّل لما تناوله في مجال عيوب النطق .

ومن خلال هذا البيان استخلص البحث ما أضافه الجاحظ في هذا المجال وتمثلت تلك الإضافات فيما يلي :

١ - ذكره للعيوب دون غيره من السابقين.

٢ - إضافته بالنسبة للتفاصيل التي ذكرها عن العيوب ولم يذكرها من قبله ، كالتعريف ، والسبب ، والعلاج ، وأثر هذا العيب في الكلام والإلقاء .

فبالنسبة للعيوب العامة :

العِيّ - وتمثلت الإضافة هنا في ذكره لهذا العيب ، وفي ذكر بعض أسبابه وعلاجه (ص ٢٢٧ - ٢٨٤) .

الحَصَر - ذكره الجاحظ وذكر أسبابه وعلاجه وأثره السيء على المصاب من ناحية النطق والتعبير عن الفكرة (٢٣٣ - ٢٨٢).

العيوب العضوية :

اللُّثْغَة - تمثلت الإضافة هنا في تَفْصِيله لهذا العيب ،وذلك ببيانه للحروف التي تدخلها اللُّثغة والأشخاص الذين عُرِّفوا بها ،إلى جانب ذكره لجانب من جوانب العلاج (ص ٢٣٦ - ٢٨٧) .

العُقْلَة - وتمثلت الإضافة هنا في تعريفها وذكر أسبابها وعلاجها . (ص ٢٤٠ - ٢٨٥) .

دقة الصوت (الصَّئى) - والإضافة هنا متمثلة في ذكره لهذا العيب (ص ٢٤٢) .

العيوب الوظيفية :

الحُبْسة - عرفها الجاحظ وذكر أسبابها وعلاجها (ص ٢٤٣- ٢٨٥) .

الطَّبق - إضافته هنا من ناحية ذكره لهذا العيب (ص ٢٥٤) .

الفَهَّه - الإضافة هنا من ناحية الذكر لهذا العيب (٢٥٨) .

الرَّطانة - الإضافة هنا من ناحية الذكر أيضا (ص ٢٦٠) .

اللَّفَف - وتمثلت الإضافة في توضيح معناه وتَفْصِّيل القول في أسبابه وعلاجه ، وأثره السيء على النطق وعدم الإبانة (ص ٢٦٢ - ٢٨٥) .

اللُّكْنَة - عرَّفها الجاحظ ،وفَصَّل في ذكرها وذكر الحروف التي تدخلها اللُّكنة والناس الذين اشتهروا بها (ص ٢٦٣) .

العَجَلة - ذكرها الجاحظ مكتفيا بمعنى اسمها عن تعريفها (ص ٢٦٨) .

أما بالنسبة للموازنات التي كانت بين الجاحظ وبين ابن سينا والمحدثين ، فقد تمثلت الإضافة فيما يلي :

أ - سبق الجاحظ ابن سينا في :

١ - حديثه عن ثقل اللسان وعظمه ورقته وثقل حركته وقساوته وقلة مرونته (ص ٢٩٩) .

٢ - سبقه في الحديث عن كثير من عيوب النطق كالفَأْفَأَة ، والتَّمْتَمة ، والتَّعْتَعَه ، واللُّثْغَة ، والحُبْسَة ، وقد ذكر في علاج تلك العيوب وسائل مما ذكره الجاحظ كالتدريب (ص ٣٠٠ - ٣٠١) .

ب - علماء النفس وأمراض الكلام المحدثون سبقهم الجاحظ وأضاف في :

١ - حديثه عن الحَصَر وعن أسبابه وعلاجه (ص ٣١٢) .

٢ - حديثه عن الرُّتَّة (ص ٣١٢) .

٣ - حديثه عن الرَّطانة (ص ٣١٣) .

٤ - حديثه عن عصب الريق (ص ٣١٣) .

٥ - حديثه عن الطَّبَق (ص ٣١٣) .

٦ - حديثه عن الفَهَه (ص ٣١٤) .

ومن خلال ما سبق استطعنا أن نثبت أن دراسة الجاحظ في هذين المجالين ، مجال الأصوات اللغوية وعيوب النطق كانت رائدة ، حيث أنه اكتشفها عن طريق دقة الملاحظة والاطلاع .

ولا شك ان إضافات ابن سينا والمحدثين في كلامهم عن الأسباب والعلاج بالنسبة لبعض العيوب راجع إلى كون ابن سينا والمحدثين أطباء معالجين أما الجاحظ فقد كان أديبا استنبط هذه الأمور من خلال ملاحظاته واطلاعه كما أن إضافات المحدثين راجعة أيضا إلى تقدم العلوم الطبية والنفسية ، وإلى ظهور الاختراعات الحديثة التي سهلت من الكشف والعلاج . وكل هذه الأمور لا تُنقص من فضل الجاحظ وسبقه في هذين المجالين .

وبعد :

أحمد الله وأثني عليه لما أمدني من عون طيلة السنين التي قضيتها في البحث والدراسة بما أحطه من علم يسير مستعينة بفضل الله مسترشدة بكل ناصح حمل لي مشعلاً أضاء لي طريق بحثي . راجية من كل هذا العمل والجهد رضاء الله ورسوله متمنية أن يكون لبنة مفيدة لكل من يطلع عليه ، سائلة من الله سبحانه وتعالى أن يهدى الجميع إلى سواء السبيل .

الفهارس

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع		الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحـة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس المراجع

فهرس المراجـــــع

١ - أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة
للدكتور أحمد مكي الأنصاري - مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٢ - أجزاء الحيوان لأرسطو طاليس
ترجمة يوحنا بن البطريق - تحقيق د / عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م - الناشر وكالة المطبوعات - الكويت.

٣ - إحصائيات جذور معجم تاج العروس (باستخدام الكمبيوتر)
للدكتور علي حلمي موسى - مطبوعات جامعة الكويت - الكويت.

٤ - إحصـــائيات جذور معجم الصحاح (باستخدام الكمبيوتر)
للدكتور علي حلمي موسى - مطبوعات جامعة الكويت سنة ١٩٧٣م الكويـــت.

٥ - ارتشاف الضرب من لسان العرب
لمحمد بن يوسف أبى حيان النحوى . تحقيق وتعليق د / مصطفى النماس - الطبعة الاولى سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٦ - الإصابة في تمييز الصحابة
لابن حجر العسقلاني أحمد بن علي - تحقيق علي محمد البجاوى دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة .

٧ - الأصوات اللغوية
للدكتور ابراهيم - الطبعة الرابعة ١٩٧١م - ملتزمة الطبـــع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.

٨ - أصوات اللغة العربية دراسة نظرية وتطبيقية
للدكتور محمد حسن حسن جبل - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م - القاهرة.

٩ - أمراض الكلام
للدكتور مصطفى فهمي - الطبعة الثالثة دار مصر للطباعة القاهرة.

١٠- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز
لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى - تحقيق محمد علي النجار - الكتاب الرابع - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية لجنة احياء التراث الاسلامي ١٣٨٣هـ/ القاهرة.

١١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م - دار الفكر.

١٢- البيان والتبيين
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون - الطبعة الرابعة - دار الفكر بيروت.

١٣- تاج العروس من جواهر القاموس
لمحمد مرتضى الزبيدى - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - إصدار وزارة الارشاد والأنباء - الكويت.

١٤- تاريخ بغداد أو مدينة السلام
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادى - دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان.

١٥- التطور النحوى للغة العربية

لبرجستراسر - تصحيح وتعليق د / رمضان عبد التواب- مكتبة الخانجي القاهرة.

١٦- تهذيب اللغة

لمحمد بن أحمد الأزهرى - تحقيق رشيد عبد الرحمن العسيرى الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٣م/ القاهرة

١٧- الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ -تحقيق د /عبد السلام محمد هارون - المجمع العلمي العربي الاسلامي منشورات محمد الداية - بيروت لبنان .

١٨- الخصائص

لأبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق محمد علي النجار - الطبعة الثانية دار الهدى للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

١٩- خلق الإنسان

لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي - نشره وعلق عليه د / أوجست هفنر المطبعة الكاثوليكية - بيروت.

٢٠- خلق الإنسان

لأبي محمد ثابت بن أبي ثابت - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - إصدار وزارة الارشاد والأنباء في الكويت ١٩٦٥م الكويت.

٢١- دراسة الصوت اللغوى

للدكتور أحمد مختار عمر - الطبعة الأولى - عالم الكتب .

٢٢- سر صناعة الإعراب

لأبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق د / حسن هنداوي - دار القلم دمشق .

٢٣- سيكلوجية المرضى وذوي العاهات

للدكتور مختار حمزة - الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .

٢٤- صحتك في فمك وأسنانك

للدكتور مدحت فريد الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م القاهرة .

٢٥- الصحة النفسية والعلاج النفسي

للدكتور حامد عبد السلام زهران - عالم الكتب ١٩٧٤م.

٢٦- علم اللغة المبرمج

للدكتور كمال إبراهيم بدري - الناشر عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود بالرياض ١٤٠٢هـ

٢٧- علم اللغة النفسي

للدكتور عبد المجيد سيد أحمد منصور - الناشر عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود الرياض عام ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

٢٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .

لأبي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد - الطبعة الخامسة - دار الجيل للنشر والطباعة ، بيروت لبنان ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٢٩- العيـــــن

للخليل بن أحمد الفراهيدي - تحقيق عبدالله درويش - مطبعة العاني - بغداد عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

٣٠- العيـــــن
للخليل بن أحمد الفراهيدى -تحقيق د/ محمد مهدى
المخزومي ،د/ ابراهيم السامرائي - وزارة الثقافة والاعـلام
دارالرشيد للنشر-العراق ١٩٨٢م٠

٣١- غريـب الحديث
لابن قتيبة عبدالله بن مسلم - تحقيق عبدالله الجبـــوري
مطبعة العاني - بغداد ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م٠

٣٢- الغريب المصنف (مخطوطة)
لأبي عبيد ٠

٣٣- الفتوحات الإلاهيـة بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية
للعلامة الشيخ سليمان الجمل -مطبعة شركة دار الكتب العربية
الكبرى على نفقة الشيخ فدا محمد الكتبي ،ومصطفى البابـــي الحلبي بمصر٠

٣٣مكرر- فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،
رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي ، قام بإخراجه وتصحيح
تجاربه محب الدين الخطيب ، الناشر دارالمعرفة للطباعة والنشر ،بيروت
لبنان ٠

٣٤ - فقه اللغة ٠
للدكتور علي عبد الواحد وافي -دار نهضة مصر للطبع والنشر ،
القاهرة ٠

٣٥- الفهرســت
لابن النديم -الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان٠

٣٦- القانون في الطـب
للحسين بن عبدالله ابن سينا -الطبعة الثالثة-المطبعة
الأميرية القاهرة ١٢٩٤هـ ٠

٣٧- الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف
لأبي العباس المبرد -تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر-
الناشر مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م القاهرة٠

٣٨- الكتـــاب

لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بـ (سيبويه) - تحقيق عبد السلام محمد هارون عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .

٣٩- لسان العرب

للامام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور - دار صادر بيروت .

٤٠- المخصص

لأبي الحسن العلى بن اسماعيل النحوى اللغوى الأندلسي المعروف بابن سيده - تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الافاق الجديدة - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٤٠مكرر- مروج الذهب للمسعودى .

٤١ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها

للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي - شرحه وعلق عليه محمد أحمد جاد المولى ،علي محمد البجاوى ،محمد أبو الفضل ابراهيم - دارالفكر .

٤٢- معاني القرآن

للأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة) تحقيق فائز فارسي الطبعة الثانية - الكويت .

٤٣- معاني القـرآن

لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء - تحقيق أحمد يوسف نجاتي محمد علي النجار الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

٤٤- معجم الأدباء

لياقوت (شهاب الدين) أبو عبد الله بن عبد الله الرومي -
راجعته وزارة المعارف العمومية - الطبعة الأخيرة - مطبوعات
دار المأمون - القاهرة .

٤٥- الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين

للدكتور عبد الله ربيع محمود - الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ

٤٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابـن
خلكان - تحقيق د. احسان عباس - دار صادر - بيروت .

٤٧ - The Human Body in Relife ,
Relife Tables (Nova , Rico , Florace) ,
Chart 036.